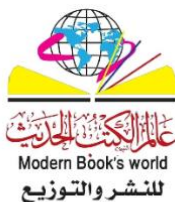


شرح كتاب
لمعة الاعتقاد
الهادي إلى سبيل الرشاد
لابن قدامة المقدسي - (620هـ)

المؤلف:
الشيخ الدكتور محمد حسن عبد الغفار
حفظه الله



2024م-1445هـ

مقدمة الشارح:

إنَّ الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتدي، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد..

فقد منَّ الله عليَّ بشرح «لمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرشاد» للإمام ابن قدامة المقدسي - - في محاضرات صوتية ضمن دورة علمية، وقد كان من بعض الطلبة أن قاموا بتسجيلها ثم تفريغها، وقد عرضوها عليَّ بهدف طباعتها لتعمَّ الفائدة - إن شاء الله-

ولمَّا كان الشرح المتلقى ليس كالشرح المكتوب، لما يعترني الأول من الزيادة والتكرار ما لا يعترني الثاني، فقد قمت بمراجعة التفريغ، فحذفت ما لا يحتاج إليه، وأضفت ما يمكن أن يكون ذا فائدة، وأعدت صياغة بعض التراكيب بما هو أنسب - إن شاء الله - والتزمت بما صح من الأدلة، وقد كنت في غالب الأحاديث آتي بوجه الشاهد الذي أريد الاستدلال به منها فقط، ثمَّ ما كان من ذكرى لبعض الأحاديث - التي لا ترتقي إلى درجة الاستدلال - وكنت قد سقتها استثناسًا، فقد أشرت منيَّها على ذلك في مواضعه.

وختامًا أقول: ليس هناك أشرف من أن ينفق المرء وقته وحياته خدمة لأعظم موروث عن النبي ﷺ، فانه العلي الأعلى أسأل أن ينفع بهذا الشرح - كما نفع بأصله - المسلمين عامة، وطلبة العلم خاصة، وأن تكون للمبتدئ منهم تأسيسًا، وللمنتهي تذكيرًا، وأن يجعلها لنا ذخراً يوم أن نلقاه.

وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

كتبه:

الشيخ: محمد حسن عبد الغفار - حفظه الله -

توطئة:

بادئ ذي بدء لا بد من ذكر توطئة لهذا العلم بذكر قواعد مهمة في باب الأسماء والصفات، كان قد ذكرها الشيخ ابن عثيمين - - يستطيع المسلم من خلالها ضبط هذا الباب العظيم الذي ضلَّ فيه أناس كثيرون، وبمعرفتها أيضًا يستطيع المسلمُ الله تعالى أن يثبت له ما أثبتته لنفسه، أو أثبتته له رسوله، من غير تأويل، ولا تعطيل، ومن غير تكليف، ولا تمثيل.

القاعدة الأولى: وجوب التسليم لكلام الله، وكلام رسوله

تتلخص هذه القاعدة في أنه يجب على كل إنسان أن يعلم أن الله أنزل الكتاب بلسانٍ عربيٍّ مبين، إذ لو أن رجلاً أعجمياً علَّم رجلاً عربياً هذا القرآن لما خرج إلينا بهذه الفصاحة والبيان، ويستفاد من أنَّ القرءان نزل بلسان عربي مبين: أن كل عربي سيفقه عن الله مراده من ظاهر كلامه، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ۝ ١٩٣ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ۝ ١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ۝ ١٩٥﴾ [الشعراء: 193 - 195]، وقال: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝ ٢﴾ [يوسف: 2]، فالحكمة من كونه عربياً: هي أنكم تعقلون ما يقال لكم؛ لأنه نزل بلغتكم، فإذا الواجب في كتاب الله، وسنة النبي ﷺ أن نمرّر الكلام على ظاهره، فلا نووله، ولا نعطله، ونسلم لكلام الله، وكلام رسوله، كما نسلم لأحكام الله، وأحكام رسوله، وبالمثال يتضح المقال:

١- قال الله جل في علاه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمُسَوِّغٌ لِّهِ أَجْرًا عَظِيمًا ۝ ١٠﴾ [الفتح: 10]، فالواجب علينا نحو لفظ اليد أن نأخذها على ظاهرها، على ما هي عليه، فلا نوولها إلى النعمة أو القدرة.

٢- أيضاً، في الصحيحين: «جاء خبرٌ من اليهود إلى رسول الله ﷺ فقال: إنَّه إذا كان يومُ القيامةِ جعل اللهُ السَّمَاوَاتِ على أصبع، والأَرْضَيْنِ على أصبع، والجبالِ والشَّجَرِ على أصبع، والماءَ والثَّرَى على أصبع، وَالْخَلَائِقَ كُلَّهَا على أصبع، ثُمَّ يَهْرُجُنَّ ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ أَنَا الْمَلِكُ، قال: فلقد رأيتُ رسولَ اللهِ ﷺ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِدُهُ، تَعَجُّبًا لَهُ، وَتَصَدِيقًا لَهُ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿يَوْمًا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝ ٦٧﴾ [الزمر: ٦٧]، فالواجب أن نثبت لله الأصابع؛ لأنَّ النبي ﷺ أقرَّ كلام اليهودي على ظاهره، والظاهر أنَّ الله أصابع، ويؤيده ما في الصحيحين عن النبي ﷺ قال: «قُلُوبُ بَنِي

(١) أخرجه البخاري (7451)، ومسلم (2786).

أَدَمَ كُلُّهَا بَيْنَ إصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، كَقَلْبٍ وَاجِدٍ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ» (1) فهذا أثبت النبي ﷺ صفة الأصابع لله فتكرر على ظاهرها تسليماً لكلامه.

٣- أيضاً، قال الله تعالى عن سفينة نوح: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: 14]، فالعين في اللغة العربية معلومة المعنى، وقد قال الله لموسى: ﴿وَوَلِّتْصَنَعُ عَلَى عَيْنَيَّ ٣٩﴾ [طه: 39]، فالواجب علينا أن نقول: كلمني ربي بلساني، وهو لسان عربي مبين، فأمرر هذه اللفظة على ظاهرها.

٤- ومن ذلك أيضاً، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ٤٢﴾ [الفلم: 42]، وقال النبي ﷺ في حديث أبي سعيد الخدري حديث الشفاعة الطويل: «فيكشف الرب عن ساقه» (2)، فالواجب أن أمرر قول الله، وقول رسوله، على ما هو عليه بنفس المعنى العربي المبين، وإن كانت الآية قد اختلف فيها هل هي من آيات الصفات أو لا، لكن صفة الساق ثبتت من نص كلام النبي العربي العدنان ﷺ.

٥- ومن ذلك أيضاً، ما جاء في صفة الضحك لله، فقد جاء عَنْ وَكِيعِ بْنِ خُدْسٍ، عَنْ عَمِّهِ أَبِي رَزِينٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ضَحِكُ رَبُّنَا مِنْ قُنُوطِ عِبَادِهِ، وَفُزْبٍ غَيْرِهِ» قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوْ يَضْحَكُ الرَّبُّ، قَالَ: (نَعَمْ، قُلْتُ: لَنْ نَعْدَمَ مِنْ رَبِّ يَضْحَكُ خَيْرًا) (3).

وهكذا نتعامل مع آيات وأحاديث الصفات، سواء كانت الصفات معنوية، أم فعلية، أم خبرية، فجميعها على نفس التقعيد ولا فرق.

أما الذي يحرف أو يؤول فيقول مثلاً: اليد هي القدرة، ويقول: العين هي الرعاية، فهذا محرف لكلام الله وهو واقع تحت التحذير الشديد الذي حذرنا الله منه في قوله: ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ١٦٩﴾ [البقرة: 169]، وقوله: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ٣٦﴾ [الإسراء: 36].

ومِمَّا يندرج تحت القاعدة فيدخل في وجوب التسليم لكلام الله ورسوله: عدم تقديم العقل على النقل، فنسلم لكل ما جاء في الكتاب والسنة وإن لم يدركها العقل، قال الشافعي: إِنَّ لِلْعَقْلِ حَدًّا يَنْتَهِي إِلَيْهِ، كَمَا أَنَّ لِلْبَصَرِ حَدًّا يَنْتَهِي إِلَيْهِ، وَعَلَى هَذَا فَيَجِبُ التَّسْلِيمُ لظَاهِرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ٣﴾ [الفيل: 1 - 3]، وعدم رده بالعقل كما تفعل مدرسة الاعتزال، حيث رد أحدهم - غفر الله له - ظاهر كلام الله، وجاء بقول لم يسبقه

(1) أخرجه مسلم (2654).

(2) البخاري (4919).

(3) روى ابن ماجه (181)، وأحمد (16187)، والطبراني في "الكبير" (469)، وقد ذهب إلى تقوية الحديث: شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، فحسّنه في "مجموع الفتاوى" (3/ 139)، وحسنه - أيضاً - بطرقه: الشيخ الألباني رحمه الله في "السلسلة الصحيحة" (2810)، وانتصر لذلك ابن القيم بقوة.

إليه أحد في معنى الآية، حيث قال: الطير الأبايل: هي جماعات البعوض والذباب التي كانت تحمل جراثيم مرض الحصبة أو مرض الجدري، وحقيقة الذي حمّله على ذلك هو تأثره بمدرسة الاعتزال، والتي أسسها وأساسها تحكيم العقل على النقل، مما جعله يؤول ويحرف، وبدل أن يكون القراءان بلسان عربي مبين جعله أعجمياً.

القاعدة الثانية: في أسماء الله، وتحت هذه القاعدة فروع.

الفرع الأول: أسماء الله كلها حسنى، أي: بالغة في الحسن، واسم الله حسن؛ لأنّه يتضمن أمرين:

أولاً: أنّه علم على ذات الله.

ثانياً: أنّ كل اسم يتضمن صفة كمال، وهذا هو الذي يبلغ بالاسم غاية الحسن، فأسماء الله - جل في علاه - غاية في الحسن وفي الكمال؛ لأنّها تتضمن صفات كمال، فإذا انضم اسم مع اسم آخر انضم كمال إلى كمال، فإذا قلت: الرحمن الرحيم، فهو أكمل من أن تقول: الرحمن، أو الرحيم فقط.

مثلاً، نقول: الكريم اسم من أسماء الله، وهو غاية في الحسن؛ لأنّه علامة على ذات الله، ويتضمن صفة كمال وهي الكرم، وكذلك اسم الله الحي، قال الله تعالى: ﴿إِلَهُمَّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ﴾ [آل عمران: 1 - 2]، فهو غاية في الحسن والكمال؛ لأنّه علم على ذات الله، ويتضمن صفة كمال وهي الحياة، وحياة الله أزلية أبدية.

مما سبق يتبين لنا أنّ ما لم يتضمن صفة كمال فليس اسماً من أسماء الله، مثال ذلك: الدهر، ورد عن النبي ﷺ أنّه قال - في الحديث القدسي - قال الله تعالى: «لا تسبوا الدهر»، وفي رواية: «فلا تقولنّ أحدكم: يا حبيبة الدهر؛ فإنّي أنا الدهر، أُقْلِبُ لَيْلَهُ ونهاره، فإذا شئتُ قبضتُهما»⁽¹⁾ ومع ذلك فالدهر ليس اسماً لله، فلا يدل على ذات الله، لأنّه لا يتضمن صفة كمال، وكذلك الموجود فكثير من الناس يسمي ابنه: عبد الموجود، وهذا الاسم ليس بصحيح لأمرين: أنّه ليس علامة على ذات الله، ولأنّه لا يتضمن صفة كمال، بل في الحقيقة هو يتضمن صفة نقص.

وعلى هذا يتبين أنّ ما جاء في شرح الطحاوية أنّ القديم اسم لله، ليس بصحيح؛ لأنّه لا يتضمن صفة كمال، فالذي ثبت ويتضمن صفة كمال هو اسم الله الأول، ويردّ على الأشاعرة الذين يقولون: إنّ أخص صفات الله هي القدم، وأنّه لا يشترك أحد مع الله في هذه الصفة، أنّ كلامكم ليس بصحيح، بل أخص صفات الله هي الأوليّة، وقد جاء النص بها وحياً، قال النبي ﷺ «...اللَّهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ...»⁽²⁾، وهذا لا يقال في القديم؛ لأنّ القديم هناك من هو أقدم منه.

الفرع الثاني: أسماء الله غير محصورة بعدد معين، ويدلّ على ذلك قوله ﷺ: «ما أصاب أحداً قط همٌّ ولا حزنٌ، فقال: اللهمّ إني عبدك، و ابنُ عبدك، و ابنُ أمتك،

(1) صحيح مسلم (2246).

(2) أخرجه مسلم (2713).

ناصيتي بيدك، ماضٍ في حكمك، عدلٌ في قضاؤك، أسألك بكلِّ اسمٍ هو لك سميت به نفسك، أو علمته أحداً من خلقك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيعاً قلبي، ونورَ صدري، و جلاءَ حزني، و ذهابَ همي، إلا أذهب الله همَّه و حزنه، وأبدله مكانه فرحاً قال: فقيل: يا رسول الله ألا نتعلّمها ؟ فقال بلى، ينبغي لمن سمعها أن يتعلّمها»⁽¹⁾، وجه الشاهد من الحديث: قال: «أو استأثرت به في علم الغيب عندك»، والدلالة فيه واضحة.

الفرع الثالث: أسماء الله لا تثبت بالعقل، إنَّما تثبت بالشرع، والعلماء يقولون: أسماء الله وصفاته توقيفية، أي: يوقف فيها على النص، فلا يجوز أن يُسمَّى الله بأسماء ليست موجودة في الكتاب والسنة، فالنصارى مثلاً يسمّون الله بالأب، وبعض الجهال يسمي الله بأبي خيمة زرقاء، وهذا ليس من أسماء الله، ولم ينزل الله به من سلطان لا في التوراة، ولا في الإنجيل، ولا في القرآن، والحق أنَّ تسمية الله بغير ما أنزل إلحاد في أسمائه جل في علاه.

فإذا قلت: أسماء الله توقيفية، معنى ذلك: أنَّا لا نقول أنَّ هذا الاسم من أسماء الله إلا إذا أتينا بالدليل عليه من الكتاب والسنة، لهذا اختلف العلماء في اسم النور؛ لعدم ورود الدليل الصحيح الذي يثبته، وأما الحديث الذي ذكر فيه أسماء الله التسعة والتسعين اسماً، وذكر فيه اسم النور فهو حديث ضعيف لا يرقى إلى درجة الاستدلال.

الفرع الرابع: كل اسم من أسماء الله يدل على ذاته، ويتضمن صفة كمال، والصفات صفات متعدية، وصفات لازمة، واللازمة هي التي لا تتعدى كاسم الله العظيم، فالعظيم اسم من أسماء الله يتضمن صفة كمال، هي العظمة، وهي لازمة، وليست متعدية، أيضاً اسم الله العزيز لازم غير متعدٍ.

أما الأسماء التي لها صفات متعدية فهي الأسماء التي تتضمن صفات الفعل، كقول الله تعالى: الرحيم، فالرحيم من أسماء الله وهو غاية في الحسن؛ لأنَّه يتضمن صفة كمال هي الرحمة، والرحمة متعدية؛ والله متصف بها قبل أن يخلق الخلق.

القاعدة الثالثة: في صفات الله، وتحتها فروع:

الأول: صفات الله كلها كمال من كل وجه، قال: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ [النحل: 60]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝﴾ [الإخلاص: ١]، وقال تعالى: ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤٣﴾ [الإسراء: 43]، فالله جل وعلا له العلو المطلق، وصفاته لها الكمال المطلق من كل وجه كالعزة، والرحمة، والكرم، والجود، والبر، والمن، والعطاء، والإحسان، والعطف، والرفقة.

وهناك كمال لكنَّه ليس من كل وجه، إنَّما كمال من وجه، ونقص من وجه، مثل: المكر، والاستهزاء، والخداع، فنثبت لله الصفة حين تكون كمالاً، وننفى عنها حين تكون نقصاً، ولتوضيح ذلك نقول: المكر ليس من كل وجه صفة كمال، فالعبد الماكر

(1) السلسلة الصحيحة (199)، أخرجه أحمد (3712) واللفظ له، وابن حبان (972)، والطبراني (210/10) (10352).

- على إطلاقه - منبوذ، لكنَّ العبد الذي يمكر بالماكرين محمود، والله المثل الأعلى، فالله حينما يقابل الماكرين بالمكر فيستدرجهم ليعلموا قوته وعزته وكبريائه، ففي هذه الحالة تكون كملاً، نقول: يمكر بالماكرين، ويستهزئ بالمستهزئين، ويخادع المخادعين، ويسخر بمن يسخر بالمؤمنين، لكن لا يصح أن نسمي الله فنقول: الله ماهر، الله مخادع، حاشا لله! هذا تنقيص من قدر الله. إذاً، الصفات التي فيها كمال من وجه، ونقص من وجه نصف الله بها حين تكون كملاً، ونفيتها عن الله حين تكون نقصاً.

الفرع الثاني: صفات الله تنقسم إلى: ثبوتية وسلبية:

١- الصفات الثبوتية هي التي أثبتها الله لنفسه، وأثبتها له رسوله ﷺ في سنته، كالعزة، والكبرياء، والكلام، والساق، والوجه، وغيرها، قال: «أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق»^(١)، وقال في حديث الشفاعة: «يكتشف ربنا عن ساقه»^(٢).
٢- الصفات السلبية: هي التي نفاها الله عن نفسه في الكتاب، أو نفاها عنه رسوله ﷺ، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ٤٤﴾ [يونس: 44]، وقال: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ٤٦﴾ [فصلت: 46]، وقال: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ٣٨﴾ [ق: 38]، وقال: ﴿لَا تَأْخُذْهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: 255]، وقال النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنَامُ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، وَلَكِنْ يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ، لَوْ كَشَفَهَا لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»^(٣) فالنوم صفة منفية، نفاها الله عن نفسه، ونفاها عنه رسوله؛ لأنها صفة نقص، وكل صفة نقص ننفيها عن الله، لكن لا بد من أن نثبت كمال ضدها، لأنَّ النفي المحض ليس كملاً، فالواجب نحو الصفات السلبية: تنزيه الله عنها، وذكرها على سبيل الإجمال إلا ما يكون في المناظرة والمحااجة، وإثبات كمال ضدها، فننفي عن الله النوم والسنة لكمال حياته وقيوميته، وننفي عنه الظلم لكمال عدله، وننفي عنه العجز والنسيان لكمال قدرته وعلمه، وهكذا.

الفرع الثالث: الصفات الثبوتية، تنقسم إلى قسمين: ذاتية وفعلية، ويزاد على ذلك الخبرية؛ وبعضهم يرى أنَّ الخبرية تنزل منزلة الذاتية.

١- الصفة الذاتية: هي التي لا تنفك عن الله بحال من الأحوال مثل الحياة والعزة والعظمة، فالحياة صفة ذاتية؛ لأنها لا تنفك عن الله، فهي أزلية أبدية، أي: أنَّ الله متصف بها أزلاً وأبداً.

٢- وأما الصفات الفعلية: فهي الصفة المتجددة، التي يتصف الله بها في وقت دون وقت، كأن يتصف بها اليوم ولا يتصف بها غداً، كصفة الكلام، فالله تكلم مع موسى حين جاء موسى للشجرة، فهو يتكلم متى شاء، وكصفة النزول، فالله ينزل الله ثلث

(١) جزء من حديث رواه مسلم برقم (2708).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه مسلم (179).

الليل، ولا ينزل في النهار.

فالصفات الفعلية تتجدد، وهي متعلقة بمشيئة الله، إن شاء فعل، وإن شاء لم يفعل، إن شاء استوى، وإن شاء لم يستو، إن شاء تكلم، وإن شاء لم يتكلم، إن شاء أعطى، وإن شاء لم يعط.

٣- الصفات الخبرية: هي التي مسمّاها عندنا أجزاء وأبعاد، كاليد، والعين، والساق، والوجه، فهذه أجزاء مني، لكنّها جميعها صفات لله.

الخلاصة: الصفات الثبوتية ثلاثة: ذاتية، وفعلية، وخبرية.

الفرع الرابع: كل صفة من صفات الله يتوجه عليها بثلاثة أسئلة:

السؤال الأول: هل هي حقيقة أم مجاز؟

السؤال الثاني: هل للصفة كيفية معلومة أم مجهولة؟

السؤال الثالث: هل الصفة تماثل صفات المخلوقين أم لا؟

الجواب على ذلك، نقول: الصفات المثبتة نثبتها لله على الحقيقة بمعنى معلوم، وبكيفية مجهولة، على التقعيد العام: ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، بنفي المماثلة والتشبيه، ونفي التكييف والتحريف.

ويقصد **بالمماثلة:** أي: المطابقة في الصفة، كأن يقول: يد الله مثل يد فلان - أعوذ بالله - وهذا قول المشبهة، لكننا أهل السنة والجماعة نثبت لله يدًا لا تماثل يد المخلوقين؛ لقول الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ١١﴾ [الشورى: 11].

ونثبتها بلا تشبيه، **والتشبيه** هو أن يقول: إن صفة الله تقارب صفة العبد. وبلا تكييف معلوم، **والتكييف** أن تقول: كيفية يد الله كذا، فتأتي لها بمماثل، وتكيف صفة الله - جل وعلا - وتصورها في الذهن، وهذا غير جائز، قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ١١٠﴾ [طه: 110]، والإنسان لا يكيف الصفة إلا إذا رأى صاحب الصفة، وهو لم ير الله، أو أخبره من يبلغ عن الله بكيفية الصفة، ولم يخبرنا النبي ﷺ بكيفية صفات الله، أو وجد مثيلاً لصاحب الصفة فينظر إليه فيقول: كيفية صفته ككيفية صفة المثل، والله يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ١١﴾ [الشورى: 11]. إذا التقعيد الكلي: نثبت الصفة لله بلا تمثيل، ولا تشبيه، ولا تكييف، ولا تأويل، ونمرر اللفظ على ظاهره.

القاعدة الرابعة: بم نرد على المعطلة؟

المعطلة قسمان: معطلة تعطيلًا كاملاً محضاً، ومعطلة تعطيلًا ناقصاً. فالمعطلة تعطيلًا كاملاً هم الجهمية، وهم الذين عطلوا عن الله الاسم والصفة، يقولون: لا سميع ولا سمع، ولا بصير ولا بصر، ولا كريم ولا كرم، ولا قدير ولا قدرة، وحقيقة تعطيلهم يساوي النفي، فهم يعبدون عدماً! أما المعطلة تعطيلًا ناقصاً هم المعتزلة، فهم يثبتون لله الأسماء، وينفون عنه الصفات، فيقولون: عزيز بلا عزة، حاشا لله! ويقولون: سميع بلا سمع، وهذا ليس فيه كمال لله بحال، فأنت لو قلت: محمد سميع، فالسميع يقتضي أنّه يسمع الكلام، فإن كان

هذا في حق المخلوق فمن باب أولى في حق الخالق، والله المثل الأعلى، وهذا الذي أثبتته عائشة ~ بقولها: سبحان الذي وسع سمعه الأصوات كلها، المرأة تشتكي زوجها للرسول ﷺ وأنا في ناحية البيت يخفى عليَّ بعض حديثها، فأنزل الله: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَدِّلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ۝﴾ [المجادلة:1].

فإن قلت: ما الفرق بين المعطلة تعطيلًا كاملاً - وهم الجهمية - وبين المعطلة تعطيلًا ناقصاً وهم المعتزلة؟
الجواب: الفرق أنَّ الجهمية نفوا الاسم والصفة، فقالوا: لا سميع ولا سمع، والمعتزلة نفوا الصفة دون الاسم فقالوا: سميع لكنه بلا سمع.
وهناك أيضاً معطلة تعطيلًا جزئياً، وهم الذين أولوا اللفظ عن ظاهره إلى معنى مؤول، فعطلوا الصفة عن معناها الحقيقي، فكل هؤلاء نقول: خالفتم ظاهر النصوص، ويلزم من قولكم التتقيص من قدر الله، كما سنبين إن شاء الله-

فصل

قال الشيخ العلامة موفق الدين عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي عليه رحمة الله: [بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله المحمود بكل لسان، المعبود في كل زمان، الذي لا يخلو من علمه مكان، ولا يشغله شأن عن شأن، جل عن الأشباه والأنداد، وتنزه عن الصاحبة والأولاد، ونفذ حكمه في جميع العباد، لا تمثله العقول بالتفكير، ولا تتوهمه القلوب بالتبصير، قال تعالى: ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝﴾ [الشورى:11]].

معنى البسملة:

بدأ الإمام العلامة بالبسملة، والعلماء يقولون: البدء بالبسملة من روائع البيان، وأيضاً، اقتداء بكتاب الله؛ لأنَّ أول آية في كتاب الله هي: بسم الله الرحمن الرحيم، وهي آية من الفاتحة على الراجح، وآية تفصل بين كل سورة وسورة، وأيضاً اقتداء برسول الله؛ لأنَّ النبي ﷺ كان يبعث بالكتب إلى الملوك ككسرى وقيصر، فيبدأها بقوله: (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله).

الباء في بسم: هناك من قال: إنها للاستعانة، ومنهم من قال: إنها للمصاحبة، ومن الذين قالوا أنها للمصاحبة الزمخشري صاحب كتاب الكشاف، مع أنَّ الظاهر أنَّها للاستعانة، لكنه رجَّح ذلك؛ لأنَّ المعتزلة يرون أنَّ الإنسان مستقلٌ بعمله فإذا كان مستقلاً بعمله فإنه لا يحتاج للاستعانة.

والحق أنَّ المراد بالباء هو: الاستعانة التي تصاحب كل الفعل، فهي في الأصل للاستعانة وهي مصاحبة للإنسان من أول الفعل إلى آخره، وقد تفيد معنى آخرًا وهو

التبرك، ومتعلقها محذوف تقديره: أبتدئ باسم الله، أو أصتف باسم الله، أو أستعين باسم الله، وقد بدأ بها ولم يبدأ بالفعل تبركاً باسم الله، ومن المعلوم أن تقديم الأهم على المهم واجب، وتقديم الأشرف على الشريف واجب، وأشرف ما يبتدأ به هو اسم الله، ولذلك لم يبدأ بالفعل.

والاسم: مشتق من السمة، أي: العلامة، وهذا في حق الله حق؛ لأن الاسم علامة على ذات الله - جل في علاه - وأيضاً هو مشتق من السمو أي: العلو، والعلو المطلق لله يشمل علو القهر، وعلو القدر، وعلو الذات، فالله عليّ على عباده بذاته، بائن من خلقه جل في علاه.

الله: علم على ذات الله، وهو المألوه، أي: المعبود محبة وتعظيماً، وهو اسم الله الأعظم على الراجح؛ لأنه أكثر الأسماء وروداً في القرآن، وكل أسماء الله تضاف إليه، فاسم الله لا يصح أن يضاف لاسم من أسمائه، فلا يصح أن تقول: الرحمن الله، وتجعل الله صفة للرحمن، لكن يصح أن تقول: الله الرحمن، فنقول: الرحمن صفة لله، الله الكريم، فيكون الكريم صفة لله، وهكذا.. فالراجح أن الله هو الاسم الأعظم الذي إذا سئل به أعطى، وإذا دعي به أجاب.

الرحمن الرحيم: اسمان من أسماء الله الحسنى، يتضمن كل اسم منهما صفة كمال، وهي صفة الرحمة، والفرق بينهما: أن الرحمن اسم من أسماء الله يتضمن صفة ذات، فهي عامة في المؤمن والكافر، ويتصف الله بها أولاً وأبداً، ولذلك نرى أنهم يسبون الله ومع ذلك يرحمهم، ويعطيهم، ويشفيهم، قال النبي ﷺ: «لَا أَحَدٌ أَصْبَرَ عَلَى أَدَى يَسْمَعُهُ مِنْ اللَّهِ، إِنَّهُ يُشْرِكُ بِهِ، وَيُجْعَلُ لَهُ الْوَلَدُ، ثُمَّ هُوَ يُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ»⁽¹⁾ فالله جل وعلا يرحمهم بالصفة الذاتية؛ وقد جاء اسم الرحمن على وزن فعلاق كناية عن سعة رحمته. أما الرحيم فيتضمن صفة فعل، متعلقة بمشيئته، فيرحم من يشاء، ويعذب من يشاء، وهي خاصة بالمؤمنين، قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ٤٣﴾ [الأحزاب: 43]، ولم يقل رحماناً، وهذان الاسمان إذا اجتمعا في الذكر افترقا في المعنى، وإذا افترقا في الذكر اجتمعا في المعنى.

معنى الحمد والشكر

قوله: [الحمد لله الم محمود بكل لسان].
الحمد: هو الثناء الجميل الحسن على الم محمود فيما هو أهل له من صفات الكمال والجلال والبهاء والعظمة، فهو ثناء باللسان، وإقرار بالقلب.
والفرق بين الحمد والشكر: أن الحمد لا يستلزم وجود النعمة عند الحامد، بخلاف

(1) صحيح مسلم (2804).

الشكر، فالحمد يمدح ربه بصفات الكمال، والجلال. أما الشاكر فيمدح ربه على نعمة أسداها إليه، فبينهما عموم وخصوص؛ فالحمد أعم من الشكر من حيث المتعلق به، إذ تعلق بصفات الكمال والجلال والبهاء والعظمة لله، وبأسماء الله وأفعاله التي لا تنتهي، والشكر أخص من ناحية المتعلق به؛ إذ الشكر لا يكون حمداً أو مدحاً إلا على نعمة أسداها الرب جل في علاه. والحمد أخص من ناحية الآلة، فالحمد يكون باللسان والقلب، إذ بالقلب يقر بصفات الكمال لله، فيقر بجماله وبهائه وعظمته.

أما الشكر فيكون باللسان والقلب والجوارح، فيكون باللسان بشكر الله على النعمة التي أسداها إليه، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾ [الضحى: 11]، ويكون بالقلب بالإقرار أن المنعم هو الله، ويكون بالجوارح بالعمل الصالح، قال الله تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ [سبأ: 13].

فإذا أنعم الله على العبد بنعمة البصر، فعليه أن يشكر الله عليها باستخدامها في الطاعة، فينظر لآيات الله الكونية والشرعية نظرة اتعاظ وتدبر، فيزداد بهذه النعمة قرباً من الله، وعليه من تمام شكره لله أن لا يطلق بصره فيما حرم الله، وكذلك إذا أسدى الله إليه بنعمة الصحة فيشكر الله بأن يستخدمها في الطاعة، كنصرة المظلوم، والسعي لقضاء الحوائج، والعمل الدؤوب في نشر السنة، وإعانة كل من يحتاج لمعونة، وهكذا في كل نعمة من نعم الله عليه التي لا تعد ولا تحصى.

ومن شكر النعم أن تعلم أن الذي أسدى إليك النعمة في الأصل هو الله، فلا تلتفت بقلبك لأحد سواه، وإن كان الله قد جعل البشر سبباً في نِعَمِ أنتك فعليك أن تشكر السبب؛ لأنَّ شكر السبب من شكر المنعم، لكن من غير التفات قلب، كما يفعل الجاهل الذين تميل قلوبهم للسبب والواسطة فينسبون بذلك الأصل وهو الله الذي أسدى إليهم النعم وابتدأهم بها.

والحمد والشكر إذا افترقا اجتماعاً، وإذا اجتمعا افترقا، أي: إذا اجتمعا في الذكر افترقا في المعنى، فمن قال: أحمد الله، وأشكره فقد جمع بين الحمد والشكر في الذكر، فيفترقان حينئذ في المعنى، فيكون الحمد خاصاً باللسان فقط، والشكر يكون باللسان والقلب والجوارح.

وإذا افترقا في الذكر اجتمعا في المعنى، فالحمد يدخل تحته الشكر، فالحمد لله يكون باللسان والقلب والجوارح، والشكر يدخل تحته الحمد فيكون بالثناء الجميل على الله بصفات كماله، ويكون بإقرار القلب على أن المنعم هو الله، ويكون بعمل الجوارح.

الحمد والشكر فوائد كثيرة، أهمها:

الفائدة الأولى: حب الله، فالعبد الذي يحمد الله على النعم التي أسداها إليه يكون محبوباً عنده، ففي الحديث الصحيح: «إِنَّ اللَّهَ لَيَرْضَى مِنَ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا، وَيَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا»⁽¹⁾ ففي هذا الحديث دلالة صريحة على أن الله يحب من العبد الحمد، وإذا حمد العبدُ الله أحبه، والله يحب المدح، ويحب من يمدحه،

(1) صحيح مسلم (2734).

قال النبي ﷺ: «ما من أحدٍ غيّر من الله، من أجل ذلك حرّم الفواحش، وما أحدٌ أحبّ إليه المدح من الله»⁽¹⁾

ثم إذا أحب الله العبد جعل له القبول في الأرض، كما في الصحيحين: (إنَّ الله إذا أحبَّ عبداً دعا جبريلَ فقال: إني أحبُّ فلاناً فأحبُّه، قال: فيحبه جبريلُ، ثم يُنادي في السماء فيقول: إنَّ الله يحبُّ فلاناً فأحبُّوه، فيحبه أهلُ السماء، قال ثم يوضع له القبولُ في الأرض، وإذا أبغضَ عبداً دعا جبريلَ فيقول: إني أبغضُ فلاناً فأبغضوه، قال فيبغضوه جبريلُ، ثم يُنادي في أهلِ السماء إنَّ الله يبغضُ فلاناً فأبغضوه، قال: فيبغضونه، ثم يوضع له البغضاء في الأرض)⁽²⁾.

وإذا أحبه نقله من درجة المحبة إلى درجة المحبوبة، فيفتح له أبواب الطاعات، ويعصمه من السيئات، فإن أساء ألهمه التوبة، وأيضاً سهل له أموره، وفتح له أبواب العلم، وبصره بالطريق الذي يسير فيه إلى الله، وجعله يرتقي إلى المعالي والدرجات العلى عند الله مع الأنبياء والمرسلين، وإذا أحبه ابتلاه، وألهمه الصبر عند البلاء والشدائد، فمحبة الله تحققت من كثرة الحمد والشكر، وقد مدح الله عبده نوحاً بأسمى ما فيه، فقال: إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿3﴾ [الإسراء:3]، واختار ربنا لنبيه الذي هو أكرم الخلق عليه، وأحبهم إليه، أفضل الأسماء، فهو محمد وأحمد، أي: كثير الحمد، وكثير المحامد.

ودرجات المحبة عند الله درجتان: درجة المحبة، ودرجة المحبوبة، فدرجة المحبة: هي أول درجات المحبة عند الله، ويرتقي إليها المرء بفعل الواجبات كالصلوات الخمس، والانتفاء عن المحرمات، ولا يزال العبد يرتقي ويأتي بالنوافل حتى يصل إلى درجة المحبوبة، ويحظى بمعية الله الخاصة وعونه وتأييده.

الفائدة الثانية: تثبيت النعم، فالنعم -التي أسداها الله للعبد- لا تثبت إلا بالشكر، قال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُعَيِّرًا نِعَمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٥٣﴾ [الأنفال:53] أي: يغيروا ما في قلوبهم.

الفائدة الثالثة: زيادة النعم، فإن النعم بالشكر يولد بعضها بعضاً، والدليل على ذلك قول الله تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم:7]، ويروى عن علي بن أبي طالب: الدين قسمان: قسم صبر، وقسم شكر، فمن أتى بالصبر فقد أتى بنصف الدين، ومن أتى بالشكر فقد أتى بالكمال، فإذا حققهما يكون قد حقق العبودية بأعلى مراتبها.

قوله: [المعبود بكل مكان]، والمعنى: أن الله يُعبد في المشرق والمغرب، وفي البحار وأعالي السماء، وفي كل حين، وفي كل مكان، فلن تجد شمساً تشرق على أرض إلا وفيها ذاكر لله، ولن تجد سماءً إلا وفيها عابد لله، قال النبي ﷺ: «أَطْلُتُ السَّمَاءَ وَحَقَّ لَهَا أَنْ تَنْطِقَ: ما فيها موضعُ أربعِ أصابعٍ إلا ومَلَكٌ واضِعٌ جبهتهُ لله ساجداً...»⁽³⁾ فكثير

(1) صحيح البخاري (4637)، أخرجه مسلم (2760).

(2) صحيح البخاري (3209)، صحيح مسلم (2637).

(3) سنن الترمذي (2312)، حسن غريب، أخرجه ابن ماجه (4190)، وأحمد (21516).

من الملائكة مسخرون للتسبيح كحملة العرش، ومنهم من يحج إلى البيت المعمور، ويطوفه كل يوم سبعون ألف ملك لا يرجعون إليه إلى يوم القيامة، فالملائكة يعبدون الله في كل طبقة من طبقات السماوات السبع، قال تعالى: ﴿إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَايَ الرَّحْمَنُ عَبْدًا ۚ ٩٣﴾ [مريم: 93]، وقال جل في علاه: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْعُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [آل عمران: 83]، فكل من في السماوات والأرض يعبدون الله، وما من شيء إلا ويسبح بحمد ربه، قال تعالى: ﴿تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ خَلِيمًا غَفُورًا ۚ ٤٤﴾ [الإسراء: 44]، وجاء بسند صحيح عن ابن مسعود قال: «لقد كنّا نأكل الطَّعامَ مع النَّبيِّ ﷺ ونحنُ نسمعُ تسبيحَ الطَّعامِ» (1) فكل ما خلق الله من حجر وشجر ونهر وبحر وأسماك وغيرها كلها تعبد الله، بل إنَّ أخذًا يحب رسول الله، ويحب صحابته، قال: «أخذُ جَبَلٍ يُحِبُّنا وَنُحِبُّهُ» (2) والحب في الله عبادة، قال ابن عباس عن النبي ﷺ: «من أحبَّ الله، وأبغضَ الله، وأعطى الله، ومنع الله فقد استكمل الإيمان» (3) أي: فقد استكمل الإيمان، ونال ولاية الله بالحب في الله، والبغض في الله، فالجبل متعبد الله بحب رسول الله، وحب صحابته.

علم الله الشمولي:

قال المصنف - تعالى: [الذي لا يخلو من علمه مكان، ولا يشغله شأن عن شأن، هو الذي يعلم ما كان، وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف سيكون]

معنى قوله: [يعلم ما كان]، كإخباره بما حدث في الأمم السابقة، [وما يكون]، أي: بما سيكون ويؤول إليه الأمر، كقوله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرُّهم من خذلهم، حتَّى يَأْتِيَ أمرُ الله» وفي رواية: «وهم كذلك» (4) وأيضًا كقوله ﷺ: «سيأتي على الناس سنواتٌ خداعاتٌ يصدق فيها الكاذبُ ويكذب فيها الصادقُ ويؤتمن فيها الخائنُ ويخون فيها الأمينُ وينطق فيها الرُّويضةُ قيلَ وما الرُّويضةُ قالَ الرَّجُلُ التَّافَةُ في أمرِ العامَّةِ» (5).

وما أكثر الروبيضات الذين يتصدرون في أمر العامة وهم ليسوا بأهل في زماننا هذا!! فتجد الرجل الصادق أصبح مهائنًا، والرجل المزور الذي يزيّف الأقوال أصبح صادقًا ومبجلًا، فيناصره الناس، ويزعمون أنهم يناصرون بذلك الحق! فهؤلاء حسابهم عند ربهم في ذلك، وعند الله تجتمع الخصوم، الغرض المقصود: أنَّ هذا كله مما أخبر عنه النبي ﷺ وحيًا من عند علام الغيوب.

(1) صحيح الترمذي (3633).

(2) صحيح البخاري (1481).

(3) أخرجه أبو داود (4681)، والطبراني (159/8) (7613) || السلسلة الصحيحة (380).

(4) صحيح مسلم (1920).

(5) صحيح ابن ماجه (3277)، واللفظ له، وأحمد (7912).

[ويعلم ما لم يكن لو كان كيف سيكون]، أي: في علم الغيب، والذي لم يقع على ضربين: ممكن الوقوع، ولم يوقعه الله لحكمة بالغة، ومستحيل الوقوع، وفي كليهما أخبر الله ماذا سيكون لو وقع، وهذا من علمه الشمولي، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَعُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْتَنَّا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ٢٧﴾ بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ٢٨ ﴿[الأنعام: 27-28]

28]، فَرَدُّ الْكَفَارِ إِلَى الدُّنْيَا مَرَّةً ثَانِيَةً، وَبَعَثُ إِلَيْهِمُ الرِّسَالَ مِمَّا كَانُوا لَكَفَرِهِمْ لَمْ يَقَعِ، وَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ لَوْ وَقَعَ فَسَيَعُودُونَ إِلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالضَّلَالِ، أَمَّا الْمُسْتَحِيلُ فَمِثْلُهُ إِبْخَارُ اللَّهِ عَنْ مَا سَيَكُونُ فِي الْكَوْنِ لَوْ كَانَ فِيهِ آلِهَةٌ أُخْرَى، قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا أَذْهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ٩١﴾ [المؤمنون: 91]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَ اللَّهِ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَنَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يُصِفُونَ ٢٢﴾ [الأنبياء: 22]، أي: لفسدت السماء، والأرض، فرب الشمس - والعياذ بالله - لو اختلف مع رب القمر فسيحبس الشمس وهكذا، فكل إله سيذهب بما خلق، ويعلو بعضهم على بعض!

الغرض المقصود: علم الله يشمل كل شيء، علم ما كان، وما يكون، وما لم يكن

لو كان كيف سيكون، يعلم ما في السماء، وما في الأرض، ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ١٩﴾ [غافر: 19]، يرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في

الليلة الظلماء، لا توارى منه سماء سماء، ولا أرض أرضاً، ولا بحر ما في قعره، ولا جبل ما في وعره، سبحانه - جل في علاه - العليم الخبير، قال: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَةٍ إِلَّا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ٥٩﴾ [الأنعام: 59].

قال: **[جل عن الأشباه والأنداد]**، قال الله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ٦٥﴾

[مريم: 65]، فلا أحد يسامي أو يجاري الله - جل في علاه - في عظمته وكرمه وكماله وبهائه وقدرته سبحانه، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ١ اللَّهُ الصَّمَدُ ٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ٣ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ٤﴾ [1_4]، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ١٦٥﴾ [البقرة: 165]، وفي الصحيحين عن ابن

مسعود ؓ قال: «سألت رسول الله ﷺ: أي الذنب أعظم؟ قال: أن تجعل لله نداً وهو

خالقك»⁽¹⁾، فالندية في الربوبية، أن تجعل له شريكاً في خلقه وملكه وتدبيره، أو أن تعتقد في غيره ما لا يعتقد إلا به سبحانه، وهذا مناف لتوحيد الربوبية التي يلزم منها توحيد العبادة لله وحده لا شريك الله، فالله هو الخالق الرازق المدبر الأمر والناهي، المستحق للحمد والثناء.

ومعنى قول المصنف: **[وتنزه عن الصاحبة والأولاد]**، أي: ينفي عن الله أن يكون

(1) صحيح البخاري (4761).

شبيهاً بالخلق؛ لأنَّ المخلوق هو الذي يحتاج لغيره، فالرجل يحتاج إلى المرأة، والمرأة تحتاج إلى الرجل، ومن قال أنَّ الله صاحبة أو ولدًا فقد أنزل الخالق منزلة المخلوق، فالله أحد صمد، لم يلد ولم يولد، ولم تكن له صاحبة.

ومعنى قول المصنف **[ونفذ حكمه في جميع العباد]**، أي: أنَّ الله تعالى قهر العباد بالعبادة له - جل شأنه - فعبادة الربوبية لا يمكن لأحد أن يردها على الله؛ لأنَّ العبادة عبادتان: عبادة اختيارية، وعبادة قهرية، والعبادة القهرية: هي عبادة الربوبية، بقهر العباد بالمرض والموت وغيرهما، وقد نفذ حكمه فيها في كل الخلق، ولا رادَّ لحكمه، فمثلاً، عندما يأمر بالنفخة الأولى يموتون جميعاً إلا ما شاء الله، وفي النفخة الثانية يبعثون من قبورهم إلى ربهم، فلا يتخلف أحد عن ذلك، فهذا كله من عبادة القهر لله. وأما العبادة الاختيارية: فهي عبادته بامتنال ما أمر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، فالعباد مختارون لأفعالهم وعليها مجزيون ومحاسبون.

ومعنى قول المصنف: **[لا تمثله العقول بالتفكير، ولا تتوهمه القلوب بالتصوير، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ١١]**، روي بسند مختلف فيه لكنَّ المعنى صحيح: «تَفَكَّرُوا فِي آلاءِ اللَّهِ، وَلَا تَفَكَّرُوا فِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»، فالله لا يصله الفكر، وقد ورد عن بعض المتنطعين من كان يتكلم في صفات الله، فقيل له: صف لنا جبريل وأجنحته الثمانمائة أو الستمائة، فما استطاع! فقيل له: صف لنا ثلاثة أجنحة من أجنحة جبريل وتُعفى من باقي الأجنحة؟! فلم يستطع إلى ذلك سبيلاً! فقال: رجعت رجعت؛ فمن لم يستطع أن يتفكر في كيفية صفة المخلوق، فمن باب أولى ألا يتفكر في كيفية صفة الخالق الذي **﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ١١** [الشورى: 11].

فصل

وجوب إثبات صفات الله تعالى على الوجه اللائق به

قال المصنف - تعالى: **[لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَالصِّفَاتُ الْعُلَى، ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ ٥ لَهُ مَا فِي السَّمُوتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ٦ وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ٧]** طه: 5 - 7، وكل ما جاء في القرآن أو صح عن المصطفى ﷺ من صفات الرحمن وجب الإيمان به، وتلقيه بالتسليم والقبول، وترك التعرض له بالرد والتأويل والتشبيه والتمثيل.

وما أشكل من ذلك وجب إثباته لفظاً وترك التعرض لمعناه، ونرد علمه إلى قائله، ونجعل عهده على ناقله، إتباعاً لطريق الراسخين في العلم الذين أثبت الله عليهم في كتابه المبين بقوله: **﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ ٧** [آل عمران: 7].

الرحمن: اسم من أسماء الله، يتضمن صفة كمال وهي الرحمة، وفي قوله

تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ۝﴾ [طه:5]، إثبات صفة الاستواء وهي صفة من الصفات الفعلية، وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُ يَعْلَمُ الْسِرَّ وَخَفَى ۝٧﴾ [طه:7]، إثبات صفة العلم لله جل في علاه.

أراد المصنّف أن يبيّن أنّ على المسلم أن يعبد الله بالتسليم التام، فالعبد لا يمدح بالعبودية التي هي أرقى المقامات إلا إذا سلم تسليماً كاملاً لله، وهذا هو حال الأنبياء، فلقد مدح الله إبراهيم ؑ حيث قال: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٣١﴾

[البقرة:131]، فالحاصل أنّ على العبد أن يستسلم ويخضع ويؤمن لكل أمر وحكم من أوامر الله وأحكامه، دون أدنى معارضة، ومن ذلك أن يؤمن بآيات الصفات، فكل ما أثبتته الله لنفسه في كتابه، أو ما صح على لسان رسوله وجب إثباته، وما نفاه الله عن نفسه، أو نفاه عنه رسوله § وجب نفيه عنه، ويستفاد من قول المصنّف: **أو صح عن**

المصطفى: أنّه لا فرق بين المتواتر والآحاد، فما دام أنّه صح وجب الأخذ به في الاعتقاد والأحكام، قال الإمام الشافعي: (أمنت بالله، وبما جاء عن الله، وعلى مراد الله، وأمنت برسول الله، وبما جاء عن رسول الله، على مراد رسول الله §).

وقد ذكر المصنّف أيضاً، عدم التعرض لآيات الصفات أو أحاديثها بالتأويل، أو التشبيه، أو التمثيل.

ومعنى **التمثيل:** هو التشابه من كل وجه، أي: المطابقة. أما **التشبيه:** فهو التشابه في أغلب الصفة، كأن يقال: صفة اليد لله تشبه صفة المخلوق، حاشا لله عن ذلك!

فنحن نؤمن بقول الله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ۝﴾ [طه:5]، ونقول: استوى ربنا على العرش، ونؤمن بهذا الاستواء، ونعلم معناه، ولا نكتفه بكذا أو كذا، ولا نشبهه باستواء الخلق؛ لأنّ قولنا: استوى محمد على الكرسي بمعنى: جلس، وعلا عليه، لكنّ استواء الله بمعنى: علا، وارتفع، واستقر، ولا نقول: جلس؛ لأنّ الحديث الذي ورد فيه أنّ الله علا وقعد، أو علا وجلس، حديث باطل، لا تصح أي رواية من رواياته أن تنسب للنبي §، **فالحاصل:** استواء الله لا يماثل استواء المخلوق من أكثر من وجه:

الأول: أنّ استواء المخلوق على الكرسي يدل على أنّ المخلوق يحتاج للكرسي، فإذا سحبت منه وقع على الأرض، لكنّ العرش مفتقر محتاج إلى الله - جل في علاه - وهذا من المفارقات.

الثاني: استواء المخلوق على الكرسي دلالة على نقصه، أما استواء الله على العرش فهو دلالة على كماله؛ لأنّه يفعل ما يشاء، وقت ما شاء، فهذا يكون إثبات صفة الاستواء دون تمثيل أو تشبيه.

أما **التأويل** فله ثلاثة معان: الأول: ما يؤول إليه حقيقة الأمر، ومثال ذلك أنّ في الجنة عنب وموز وفاكهة، وقد ذكر ابن عباس أنّ فاكهة الجنة لا تشبه فاكهة الدنيا إلا في الاسم فقط، أي تتشابه

في الاسم وتختلف في المسمى، فعندما تدخل الجنة، وتأكل من فاكهتها يظهر لك تأويل ما قاله الله تعالى: ﴿وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ٥٧﴾ [النحل:57]، فتعرف حقيقتها عندما تأكلها وأنت في الجنة، فمعنى ما يؤول إليه الأمر أي: حقيقته الذي يراه المرء عين يقين، قال الله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شَفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ٥٣﴾ [الأعراف:53].

المعنى الثاني: هو التفسير، فمثلا تقول: معنى قوله تعالى: ﴿وَحَرِّمٌ عَلَىٰ قَرَبَةٍ أَهْلَكُهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ٩٥﴾ [الأنبياء:95]، أي: وجب على قرية، ومعنى التأويل هذا هو الذي عناه ابن عباس بقوله: وأنا من الراسخين في العلم الذين يعلمون تأويله، حينما قرأ قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ [آل عمران:7].

المعنى الثالث: التحريف، وهو صرف اللفظ عن ظاهره إلى معنى يخالف الظاهر لدليل يقتضيه، فلا بد أن يكون الدليل الذي يقتضي التأويل دليلا صحيحا حتى يكون التأويل ممدوحا، أما إن لم يكن هناك دليل يقتضيه فيكون من باب التأويل المذموم، والأولى تسميته تحريفا لا تأويلا، وهذا هو المقصود بقولهم في التعميد عند إثبات الصفات: من غير تأويل.

والأشاعرة -هدهم الله - وغيرهم يحرفون الكلم عن مواضعه باسم التأويل، فيقولون مثلا في قوله تعالى: ﴿يُدْأَبُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح:10]، أي: قدرة الله فوق قدرتهم، ويقولون في قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ٥﴾ [طه:5]، أي: استولى، ويؤولون قول النبي ﷺ: «عجب ربنا من صنيعكم»، فيقولون: عجب ملائكته، أو عبادته، فمثل هؤلاء لا يثبتون الصفة لله تعالى على ظاهرها.

معنى قول المصنف: **[وترك التعرض له بالرد]**، الرد هو التكذيب والإنكار، وله أنواع: منها:

الرد بالكلية كما فعلت المعطلة، والرد بالتأويل بقرينة حال، أو قرينة مقال. فالرد بالتأويل بقرينة الحال كالذين منعوا الزكاة في خلافة أبي بكر، فهؤلاء تأولوا قول الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٠٣﴾ [التوبة:103]، قالوا: أمرنا الله بإخراج الزكاة، لكن ذلك خاص بالنبي ﷺ وليس لغيره، فصلاة أبي بكر ليست كصلاة النبي ﷺ، وهؤلاء ليسوا كفارا عند أهل السنة والجماعة.

لكن لو جاء أحد في عصرنا هذا، وقال: الزكاة ليست واجبة علينا، فهي خاصة بزمان النبي ﷺ، ولو كان موجودا أعطيناه الزكاة، أما وهو غير موجود فلن نخرج الزكاة، فحكم هذا كافر مرتد؛ لأنه رد حكم الله بدون أدنى دليل، والفارق بينهم وبين من منعوا الزكاة في عصر أبي بكر ﷺ أن النبي ﷺ مات وهم كانوا حديثي عهد بإسلام؛ ولذلك لم يكفرهم الصحابة على تأويلهم.

وأما الرد بالتأويل بقريضة المقال سائغ إذا كان له وجه من اللغة، ففي هذه الحالة لا يكفر بها قائلها، كأن يقول في قوله تعالى: ﴿يُذِ اللَّهُ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: 10]، يعني: نعمة الله فوق نعمهم، وعنده قريضة من اللغة على ذلك فهذا لا يكفر، جاء في الصحيحين من حديث المسور بن مخرمة ؓ وهو حديث طويل في صلح الحديبية، وفيه: أَنَّ عروة بن مسعود الثقفي وكان إذ ذاك كافراً قد قال لقريش: (ألسْتُ منكم بمنزلة الولد؟ قالوا: بلى، قال: ألسْتُ مني بمنزلة الوالد؟ قالوا: بلى، قال: هل تتهمونني؟ قالوا: لا، قال: فدعوني آتة وقد عرض عليكم خطة رشد) يعني: يذهب ليفاوض النبي ٠%، وأنه أمين في المفاوضات، فذهب إلى النبي ٠%، ولما دخل عليه رأى أصحابه وقد عضَّهم الفقر بنابه، فقراء مساكين، لا يظهر عليهم ما يظهر على أهل الترف، فاخترقهم ببصره واحتقرهم - فيما بينه وبين نفسه - ثم قال: (يا محمد! والله ما أرى حولك إلا أوباشاً)، وفي الرواية الثانية: (أوشاباً) - وهي بنفس المعنى - يعني: لا يردون البصر، ولا يملئون العين، قال: (ما أرى حولك إلا أوباشاً خليفاً أن يفروا ويدعوك)، أي: ستواجه قريشاً بالقليل هؤلاء! والمعنى أن لا تطمع أن تدخل مع قريش في حرب؛ لأنَّهم بمجرد أن تقوم الحرب سيفرون كلهم فلا تتكل عليهم.

قال: (ما أرى حولك إلا أوباشاً خليفاً أن يفروا ويدعوك)، فقال أبو بكر: (أنحن نفر وندعه؟ امصص بظر اللات)، فسبَّ ألتههم وعابها، فقال عروة مغضباً: من هذا المتكلم؟ فتبسم النبي ﷺ وقال: (إنَّه ابن أبي قحافة) أي: أبو بكر، فقال له وكان كافراً: «لولا أنَّ لك عليّ يدًا لأجبتك»، منعه أن يرد عليه الوفاء، فلو لا أنَّ له عليه يدًا؛ لكان رد عليه، وبالرغم أنَّ أبا بكر سبَّ ألتههم، ولا يوجد شيء معظم بعد الإله، فسبَّ أحسن شيء عندهم، ومع ذلك رده الإحسان والوفاء أن يرد عليه، وفي رواية محمد بن إسحاق عن الزهري عن المسور في هذا الحديث قال: (ولكن هذه بتلك) بمعنى: أنَّك استوفيت يدك السابقة علي بهذه السبَّة، فلو قلت شيئاً آخر سأرد عليك.

الغرض المقصود: من رد ظاهر قول الله تعالى: ﴿يُذِ اللَّهُ﴾ [الفتح: 10] فقال: اليد بمعنى النعمة، فهذا له مسوغ من اللغة؛ فلا يكفر، لكن من يرد قول الله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ۝﴾ [طه: 5]، فيقول: معنى استوى: رحل، فهذا كفر، لأنَّه ليس له مسوغ من اللغة بحال من الأحوال.

وأئمة السلف يؤمنون ويعتقدون في صفات الله، ويمررونها على ظواهرها، وهذا مثبت من كلامهم، ولم يرد عن واحد من أئمة المذاهب، ومن قبلهم من التابعين، من تأوَّل الصفات، فالسلفي الحقيقي هو الذي يتعلم علم الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة: العلم قال الله قال رسول الله قال الصحابة ليس بالتمويه

ما العلم نصبك للخلاف سفاهة بين الرسول وبين قول فقيه

قول المصنف - تعالى: [وما أشكل من ذلك وجب إثباته لفظاً]، هذا الكلام من المصنف لا يصح، ويُردُّ عليه مع حسن الظن به، فالمصنف لا يقصد تفويض المعنى،

والتفويض تفويضان: تفويض الكيفية، وتفويض المعنى، أما أهل السنة والجماعة فيفوضون الكيفية، مع إثبات المعنى، فيقولون: لله يد، واليد في اللغة معلومة المعنى، لكن كيف مجهول، فهذا تفويض للكيفية مع إثبات للمعنى، أمّا تفويض المعنى والكيفية، فيقول: لا نعلم معنى اليد، فنفوض معناها لله، فبهذا دخل في قسم أهل البدع والضلال الذين يفوضون الكيفية والمعنى، ويقولون: لا نعلم عن اليد إلا تقارب الياء مع الدال، والمصنّف - من أهل السنة والجماعة، ولا يمكن أن يقصد ذلك، إنّما يقصد أنّ اللفظ المشكل الذي لا يُعرَف حقيقة معناه يفوض معناه؛ لأنّ اللفظ ينقسم إلى محكم ومتشابه، فيرد المتشابه للمحكم ليظهر المعنى.

مثال ذلك: قال الله تعالى: ﴿يَنْ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١﴾ [القلم:1]، وقال الله تعالى: ﴿الْم﴾ [البقرة:1]، وقال: ﴿كَهَيْعَصَ ۝١﴾ [مريم:1]، فالراجح في حروف أوائل السور عند أهل العلم أنّها من المتشابه الذي لا يعلم معناه إلا الله، فهنا تفويض المعنى لله؛ لأنّه هو الذي يعلم معناها.

فصل

قال المصنّف -: [قال الإمام أبو عبد الله أحمد بن حنبل في قول النبي ﷺ: (إن الله ينزل إلى سماء الدنيا)، و(إن الله يرى يوم القيامة)]، وما أشبه هذه الأحاديث نؤمن بها ونصدق بها بلا كيف ولا معنى، ولا نرد شيئا منها، ونعلم أن ما جاء به الرسول حق، ولا نرد على رسول الله ﷺ، ولا نصف الله بأكثر مما وصف به نفسه بلا حد ولا غاية ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝١١﴾ [الشورى: ١١] ونقول كما قال، ونصفه بما وصف به نفسه، لا نتعدى ذلك، ولا يبلغه وصف الواصفين، نؤمن بالقرآن كله محكمه ومتشابهه، ولا نزيل عنه صفة من صفاته لشناعة شنعت، ولا نتعدى القرآن والحديث، ولا نعلم كيف كنه ذلك إلا بتصديق الرسول ﷺ، وتثبيت القرآن.

قال الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي -: آمنت بالله وبما جاء عن الله، على مراد الله، وآمنت برسول الله، وبما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله. بين المصنّف مذهب الإمام أحمد وهو التسليم التام لصفات الله، منها: إثبات نزول الله نزولاً حقيقياً يليق بجلاله وكماله، بلا تشبيه ولا تمثيل ولا تكييف، وبلا تأويل ولا تعطيل، وكذلك الإيمان في رؤية المؤمنين لله يوم القيامة، ويقول: ولا نصف الله بأكثر مما وصف به نفسه، فعندما نقول: ينزل، لا نقول: ينزل ويخلو منه العرش، أو يبقى معه العرش، أو يكون فوق وهو نازل، أو السماء تقله، أو تظله حاشا لله! فالذي يقول مثل ذلك يكون قد كَيْفَ صفات الله، والحق هو ينزل بكيفية لا نعلمها، نزولاً يليق بجلاله وكماله، فإذا كان الكون كله في يد الرحمن كحبة خردل في يد أحدنا، فلك أن تعلم أنّ صفات الكمال لله لا يمكن للإنسان أن يصل إلى كیفيتها.

ثم نقل كلاماً نفيساً للإمام الشافعي يدل على تمام التسليم، قال: (آمنت بالله، وبما جاء عن الله، على مراد الله، وآمنت برسول الله، وبما جاء عن رسول الله، على مراد

رسول الله §).

الترغيب في السنة والتحذير من البدع

بحسن بنا قبل أن نبدأ بالحديث عن اعتقاد أهل السنة أن نبين - بشكل يسير - أهمية السنة والتحذير من البدعة وأصحابها، فبقدر ما يقع الإنسان من مخالفة لأصول الاعتقاد التي عليها الجماعة ومبناها الدليل بقدر ما يكون متلبسًا في البدعة مغموصًا فيها، ولا بد لأخي المسلم أن يعلم أننا نعتقد وفق الدليل الصحيح من الكتاب والسنة وإن لم تصله عقولنا، بمعنى أننا نستدل ثم نعتقد، أما أهل البدع بطوائفهم أجمع يعتقدون ثم يأتون على النصوص فيتعاملون معها وفق ما يناسب اعتقادهم، وهذا هو الهوى بعينه، فتجده تارةً يرد حديث الأحاد مدعيًا أنه ظني الثبوت فلا يبنني عليها اعتقادًا! وتارةً يجعل الفلسفة وعلم الكلام والمنطق الأساس والنقل تبع، فما وافق العقل والمنطق من النقل قبل، وما لم يوافقه يُردّ تصريحًا أو تحت غطاء التأويل، وكلاهما فاسد الاعتبار، وطريق مبتدع لم يكن في السلف الأول والقرون الثلاثة الأولى، ولا يخفى على كل ذي لب ما فيهما من هدم وهدر للسنة كل بقدره.

ولقد جاءت الآيات والأحاديث مستفيضة بالترغيب في السنة، والتحذير من البدع، وأمرنا باقتفاء أثر السلف الصالح، ونبذ المحدثات فإنها الضلالات، ومِمَّا يدل على ذلك ما رواه الإمام أحمد بن حنبل، قال: حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا ثور بن يزيد، قال: حدثني خالد بن معدان، قال: حدثني عبد الرحمن بن عمرو السلمي، وحجر بن حجر، قالوا: أتينا العرابض بن سارية، وهو ممن نزل فيه: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ فسلمنا، وقلنا: أتيناك؛ زائرين، وعاندين، ومقتبسين، فقال العرابض: صلى بنا رسول الله § ذات يوم، ثم أقبل علينا، فوعظنا موعظةً بليغة، ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقال قائل: يا رسول الله ! كأن هذه موعظةٌ مودّع، فماذا تعهد إلينا ؟ فقال: «أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن عبدًا حبشيًا، فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة»⁽¹⁾.

وقال النبي § محذراً أمته الابتداع: «إن بني إسرائيل افترقت على إحدى وسبعين فرقة، وإن أمتي ستفترق على اثنتين وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة وهي الجماعة، وفي رواية قال: قيل: من هي يا رسول الله؟ فقال §: من كان على مثل ما أنا عليه وأصحابي»⁽²⁾ فمن كان على ما كان عليه رسول الله § والسلف الصالح فهو على سنة، ومن خالفهم فهو على بدعة فلا بد أن يرجع عنها. أما اتباع السنة، والحث عليها، والترغيب فيها، والأمر بها فهو ركن؛ لأن التوحيد

(1) أخرجه أبو داود (4607)، والترمذي (2676)، وابن ماجه (42)، وأحمد (17145) واللفظ له.

(2) أخرجه الترمذي (2641) واللفظ له، والطبراني (53/14) (14646)، والحاكم (444).

توحيدان: توحيد عبادة، وتوحيد اتباع.

توحيد العبادة: أن تكون العبادة كلها خالصة لله جل في علاه.

وتوحيد الاتباع: أن يوحد اتباعه لرسول الله ﷺ، قال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر:7]، وقال جل في علاه: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء:80]، وقال: ﴿فَإِنْ تَنَزَّعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ٥٩﴾ [النساء:59]، فهنا قرن الرسول معه في الأحكام؛ ليبين أنه لازماً ووجوباً اتباع سنة النبي ﷺ.

وأشد من ذلك أن الله حذر أيما تحذير من لم يقبل حكم النبي ﷺ وسنته، قال الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ٦٥﴾ [النساء:65]، فإذا اختلف المسلم مع أخيه، فلا يتحاكمان إلى قول الشيخ الفلاني أو العلاني، وإنما يتحاكمان إلى ما قال الله وقال الرسول ﷺ، فلا يرد حكم الله وحكم النبي ﷺ بقول غيرهما كائناً من كان؛ لأن المسألة مناطها كلها على قول الله وقول رسوله ﷺ؛ قال الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء:65].

ونضرب مثلاً بسيطاً يوضح ذلك: سألت عائشة ~ النبي ﷺ: «أي الناس أعظم حقاً على المرأة؟ قال: زوجها، قلت: فعلى الرجل؟ قال: أمه»⁽¹⁾. ونحن نقول: أحق الناس بالزوج أمه، يعني: أن الأم مقدمة على الزوجة، فيذهب الزوج إلى أمه قبل أن يذهب إلى زوجته، ويقدم أمه على أولاده فلذات كبده، فهذا أمر النبي ﷺ، فلا بد أن تقول الزوجة: سمعت وأطعت، وترضى بسنة النبي ﷺ بدون مشاحة، ويجب على الزوجة أن ترضى زوجها بحبها لأمه ليرضى الله عنها، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلًّا مُّبِينًا ٣٦﴾ [الأحزاب:36]، فالحاصل أننا لا بد أن نرجع إلى كتاب الله ورسوله ﷺ، والرجوع إلى النبي ﷺ في حياته إلى شخصه، وبعد مماته إلى سنته ﷺ.

تعريف السنة والبدعة

السنة لغة: هي الطريقة.

اصطلاحاً: كل ما ورد عن النبي ﷺ من قول، أو فعل أو تقرير، بمعنى هي ما كان عليه النبي ﷺ، وأصحابه الكرام من عقيدة وعمل، وهذا مستقى ومستنبط من حديث النبي ﷺ: (وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة، كلهم في النار إلا ملة واحدة، قالوا: من

(1) أخرجه أحمد والنسائي، رواه البزار والحاكم، وإسناد البزار حسن.

هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ: مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي⁽¹⁾، وبتعريف أهل الاعتقاد: ما يقابل البدعة.

والبدعة لغة: الشيء المخترع، أو المستحدث، قال الله تعالى: ﴿بَدِيعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: 117]، أي: الذي خلقهن على غير مثال سابق.

اصطلاحًا: ما أحدث في الدين على خلاف ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه عقيدة وعملاً.

تعريف الشاطبي: هي طريقة في الدين مخترعة تضاهي بها الشرعية - أي: تشاكل بها الشرعية، كأن يأتي بصلاة مثل الصلاة يضاهي بها الصلاة الشرعية - يقصد بالسلوك عليها الاجتهاد في العبادة.

والسنة مرغب بها نقلاً وعقلاً؛ فالآيات التي فيها وجوب طاعة الرسول ﷺ كثيرة جداً، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ۝٢١﴾ [الأحزاب: 21]، أي: من كان يرجو الله، واليوم الآخر فلا بد أن يثبت حسن طريقته بالسير على طريقة النبي ﷺ، ومن ذلك أيضاً، قوله تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيفًا ۝٨٠﴾ [النساء: 80]، وقوله: ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلْغُ الْمُبِينُ ۝٩٢﴾ [المائدة: 92]، وما أبدع، وأحسن ما قاله الحسن: زعم أناس حب رسول الله ﷺ فامتحنهم باتباع طريقة رسوله ﷺ حيث قال جل في علاه: ﴿قُلْ إِن كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣١ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ۝٣٢﴾ [آل عمران: 31 - 32]، ثم قال: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ۝٣٢﴾ [آل عمران: 32]، معنى ذلك: أن الإنسان إذا تنكّب صراط النبي ﷺ ورجع القهقري فإنه على طريق الهلكة، فمعصية النبي ﷺ بريد الكفر، خاصة إن علم أن النبي ﷺ قال ذلك ثم عارضه بأقوال الناس، فليس لأحد أن يرد قول الله أو قول رسول الله لقول أحد كائناً من كان، قال مالك -: ما من أحد إلا ويؤخذ من قوله ويرد إلا صاحب هذا القبر، وكان أبو حنيفة - الذي قال فيه الشافعي: الفقهاء عيال على أبي حنيفة - يقول: إن وجدت قولاً عارض قول رسول الله ﷺ فاضربوا بقولي عرض الحائط، وخذوا بقول النبي ﷺ.

وقد حذر النبي ﷺ كل من يعصيه فقال «كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى، قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَنْ يَأْبَى؟ قَالَ: مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى»⁽²⁾، فما بالك بمن يضرب بقول النبي ﷺ عرض الحائط لقول أحد أو لفلسفة أو منطق !! فهذا من باب أولى يكون قد أبى.

(1) سبق تخريجه.

(2) صحيح البخاري (7280).

وقال محدِّراً من البدعة، أمراً بامتنال السنة وطريقته وهديه «...فعلیکم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين تمسکوا بها، وعَضُّوا عليها بالنواجذ، وإياکم ومحدثات الأمور فإنَّ كلَّ محدثة بدعة، وكلَّ بدعة ضلالة»⁽¹⁾، ووجه الدلالة: أنَّ كل نص في العموم، فكل ما خالف الكتاب والسنة فهو محدث وبدعة وضلالة، وما لم يكن يومئذ ديناً فلن يكون اليوم ديناً.

فإذا أرادت الأمة أن تكشف عنها الكرب، وأن تنهض مرة أخرى كالطود الشامخ، لا بد لها أن ترجع إلى الرعيل الأول، وكما قال الإمام مالك: لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح أولها، فلا بد من الرجوع إلى الرعيل الأول.

فالنجاة كل النجاة في التمسك بسنته ﷺ، وسنة خلفائه الراشدين، فعن النبي ﷺ قال: «تركْتُ فيكم أمرين لن تضلُّوا ما تمسَّكْتُم بهما: كتاب الله وسُنَّةُ نبيِّه ﷺ»⁽²⁾، لم يقل كتاب الله فقط حتى لا تكون قرآنيّاً، لكن قال: كتاب الله وسنتي.

والبدعة مذمومة شرعاً وعقلاً وفطرة، وهي من عمل المغضوب عليهم والضالين، ولا يخفى عليكم أنَّ المبتدع بلازم بدعته - علم ذلك أم جهل - مستدرك على ربه، جاعلاً نفسه مشرعاً مع الله، متهمّاً نبيّه بكتمان العلم، وعدم البلاغ، أو عدم العلم والبيان - سيأتي بيان ذلك أكثر -

ثم إنَّ خطورة البدعة تتمثل في أمور، منها:

١- البدعة مذمومة، مذموم صاحبها، قال تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَسِيقُونَ ٢٧﴾ [الحديد: 27]، فهم ما أرادوا إلا رضوان الله، والتعبد لله، والاجتهاد في عبادة الله، ومع ذلك ذمهم الله، فقال: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَسِيقُونَ ٢٧﴾ [الحديد: 27] ذمّاً لهم، فقال: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَسِيقُونَ ٢٧﴾ [الحديد: 27] ذمّاً لهم.

٢- البدعة يستحق صاحبها ومن آواه اللعن والطرده من رحمة الله، فقد «سُئِلَ عَلِيُّ: أَحَصَّكُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِشَيْءٍ؟ فَقَالَ: مَا حَصَّنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِشَيْءٍ لَمْ يَعْمْ بِهِ النَّاسُ كَافَّةً، إِلَّا مَا كَانَ فِي قَرَابِ سَيْفِي هَذَا، قَالَ: فَأُخْرِجَ صَحِيفَةً مَكْتُوبٌ فِيهَا: لَعَنَ اللَّهُ مَنْ دَبَحَ لِعَنِ اللَّهِ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ سَرَقَ مَنَارَ الْأَرْضِ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَهُ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ أَوَى مُحَدِّثًا»⁽³⁾، في قوله: (لعن الله من أوى محدثاً)، أين وجه الذم في هذا الحديث؟

الجواب: وجه الذم أنَّ المبتدع محدث في الدين، فاستحق من آواه أو رضي ببدعته اللعنة، ويؤخذ من هذا الحديث أيضاً أنَّه يجب على كل صاحب سنة أن يظهر المبتدع بين الناس ويحذر من بدعته، انظر كيف أنَّ من أوى المحدث استحق اللعن، فكيف

(1) سبق تخريجه.

(2) أخرجه مالك مرسلأ، والحاكم مسنداً وصححه.

(3) صحيح مسلم (1978).

بالذي أحدث البدعة!

٣- البدعة تحجب صاحبها عن التوبة، قال النبي ﷺ كما ورد في السنن بسند صحيح هو الصاعقة على كل مبتدع - قال: «حجب الله التوبة على كل مبتدع حتى يدع بدعته»⁽¹⁾ أو قال: «أبى الله أن يتوب على كل مبتدع»، فحجب الله التوبة على المبتدع لأنه أخ الشيطان.

٤- البدعة أحب للشيطان من المعصية، يقول سفيان الثوري أمير المؤمنين في الحديث: البدعة أحب إلى الشيطان من المعصية؛ لأنَّ المعصية يتوب منها صاحبها، أمَّا البدعة فإنَّ صاحبها ينافح عنها ويدافع ويقاقل من أجلها، كما نرى كثيرًا من المبتدعة في الفضائيات يناضلون من أجل بدعهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وقد جلست مع كبير لهم حاول التهرب من المناظرة، وادعى أنَّه يخشى على نفسه من الضلال والجهل، فلم يرض إكمال الجلسة، والآن يظهر في الفضائيات - كما أعلمت بذلك - على أنَّه رجل من أهل العلم، فيظهر في مجالس العلم ويدعو إلى البدعة المقيتة!!

فالحاصل: أنَّ الذي يبتدع ويأوي وينافح عن المبتدع، أحب إلى الشيطان من العاصي؛ لأنَّ العاصي قد يرجع ويثوب ويتوب، أما المبتدع فلا يرجع عن بدعته، بل يدافع عنها؛ ولذلك قال النبي ﷺ: «لعن الله من أوى محدثًا»، و «أبى أن يتوب الله على مبتدع».

والبدعة بدعتان: بدعة أصلية، وبدعة فرعية إضافية، والبدعة الإضافية لها أقسام كثيرة: بدعة زمانية، وبدعة مكانية، وبدعة في الهيئات، ولست بصدد التفصيل في هذه المسائل؛ لأنني أريد أن أدخل في صلب الكتاب، ولأنني لو فصلت فسيطول بنا المقام.

(1) صحيح، تخريج كتاب السنة (37)، أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» (4202)، وابن عدي في «الكامل في الضعفاء» (257/6)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (7238) باختلاف يسير.

إثبات صفة الوجه لله تعالى والرد على المخالفين

قال المصنف: [فما جاء من آيات الصفات قول الله: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾
[الرحمن: ٢٧]

صفة الوجه من صفات الله الثبوتية الخبرية، التي لا تنفك عن الله بحال من الأحوال، وضابطها: أن مسماها عندنا أجزاء وأبعاد، فإذا أضيفت إلى الله تكون إضافة الصفة للموصوف، على ما يليق به .

وقد عرفنا أنها صفة لله؛ لأنها ثبتت مضافة لله، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ٢٧﴾ [الرحمن: 27]، فإذا حتى تكون الآية من آيات إثبات الصفات لا بد أن تكون الصفة مضافة لله إضافة صفة لموصوف، لذا لا يشوش علينا أحد ويقول أن الساق في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ٤٢﴾ [القلم: 42]، قد فسرهما ابن عباس ؓ أنها شدة يوم القيامة، **فالجواب على هذا الإيراد:** أننا نثبت الصفة لله سبحانه إذا أضافها إليه، فمتى أضيفت الصفة إلى الموصوف فإننا نثبتها له.

فقوله: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾، ليست الآية هنا من آيات الصفات، لكن الساق صفة لله، ووجه ثبوتها من جهة الحديث، فقد ورد عن النبي ﷺ في الصحيحين أنه قال: «إن ربكم يأتي عباده يوم القيامة فيأتيهم في الصورة التي لا يعرفونها فيقول: ما تنتظرون؟ فيقولون: ننتظر ربنا، فيقول: تعرفونه؟ فيقولون: نعرفه، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: لست بربنا نعوذ بالله منك، فيأتيهم في الصورة التي يعرفونها» - وفي هذه دلالة على أن لله صفة اسمها: الصورة، قال: «فيأتيهم في الصورة التي يعرفونها فيكشف الله جل في علاه عن ساقه فيخرون سجداً»، فهذا صرح النبي ﷺ أن لله ساقاً، وسيكشف عنه يوم القيامة، **فالحاصل:** أننا لا يمكن أن تثبت لله صفة إلا إذا أضيفت إلى الله.

وصفة الوجه ثبتت لله بالكتاب والسنة وإجماع أهل السنة.
أما من الكتاب: قال الله تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ٢٧﴾ [الرحمن: 27]، وقال: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: 88]
وأما من السنة: كان النبي ﷺ يقول: «وأسألك لذة النظر إلى وجهك الكريم»⁽¹⁾ وقال النبي ﷺ: «لا يسأل بوجه الله إلا الجنة»⁽²⁾، فهذه كلها تصريحات لوجه الله جل في علاه.
وأما الإجماع: فقد أجمع أهل السنة والجماعة على أن لله وجهًا يليق بجلاله، وكماله، وبهائه، وعظمته .

(1) صحيح النسائي (1305).

(2) ضعيف أبي داود (1671).

أقول تأسيساً وتأسيساً: أعتقد أنّ لربي وجهًا يليق بجلاله، وكماله بلا تشبيه ولا تمثيل، وبلا تأويل، ولا تعطيل، فلا أقول: الوجه هو الثواب، ولا أعطل الوجه، ولا أشبهه بوجه أحد من خلقه حاشاه جل جلاله.

فإذا سمعني مبتدع ضال وأنا أقول: اللهم إني أسألك بوجهك الكريم، أن تجعلني مع النبي ﷺ في الجنة، فيقول المبتدع: كيف وجه الله؟ فأقول له: أنت مبتدع، فالوجه في اللغة معلوم، والكيف مجهول - فصفت الله لها كيفية لكنّا لا نعلمها قد أخفاها الله عنا - والإيمان بها واجب، والسؤال عن كيفيةها بدعة.

وإذا اعتقدت بهذه الصفة فأني أتعبد بها:

١- أن أدعوه أن يرزقني لذة النظر إلى وجهه، وللوجه صفات بيّنها النبي ﷺ جليّة، ففي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري ؓ قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات: قال: «إنّ الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، ولكن يخفض القسط ويرفعه، يُرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور، لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»⁽¹⁾.

قوله: (سبحات وجهه) أي أنوار وجهه، وهذا فيه دلالة على أنّه لا يُعلم عظم نور وجه الله إلا الله، اللهم ارزقنا لذة النظر إلى وجهك الكريم.

وقوله: (ما انتهى إليه بصره من خلقه)، وبصر الله ينتهي إلى كل خلقه، فقد وسع بصره كل الخلق، وكل الكائنات.

فأعظم ما ينعم به أهل الجنة هو النظر إلى وجه الله الكريم، فإذا اعتقد المسلم أنّ لربه وجهًا، وأنّه موصوف بالجلال والإكرام والبهاء والعظمة والأنوار تاقت نفسه إلى النظر إلى وجه الله الكريم، فالإنسان إذا سمع بجميل هوت نفسه إلى رؤيته، فما بالكم إذا سمع وعلم أنّ وجه ربه قد أشرقت به السماوات والأرض، فستعلو همته إلى أن ينظر إلى وجه الله الكريم، قال النبي ﷺ في تفسير قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْخُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: 26]، قال: الحسنى هي الجنة، والزيادة هي النظر إلى وجه الله الكريم.

٢- ومن صور التعبد لله بهذه الصفة أيضًا، المحافظة على الطاعة بأداء الفرائض، ثم اتباع الفرائض بالنوافل، والمحافظة على البصر؛ لأنّها تريد أن تنظر إلى وجه الله، ولا يرضى الله سبحانه لعين رأت المعاصي واستمرت ذلك أن تنظر إلى وجهه الكريم، فالله يغار، وغيره الله أن يحجب عن نور وجهه الكريم كل عاص وفاسق، وكل كافر ملحد.

وإن كانت الهمة عالية للرجال والنساء فإنّ الله يفضل من يشاء في رؤيته، فالرجال الذين يرتقون إلى درجة الإحسان يرون ربهم في الجنة بكرة وعشيًا، أمّا النساء فلا يرين ربهن في الجنة - على التحقيق - إلا في الأعياد وهذا استنباطًا من أنّ النساء لا يخرجن إلا في الأعياد كما قالت أم عطية: «...أمرنا أن نُخرج الحِيضَ يومَ العيدين،

(1) أخرجه مسلم (179).

وَدَوَاتِ الْخُدُورِ فَيَشْهَدْنَ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ، وَدَعَوَتُهُمْ وَيَعْتَزُّلُ الْخَيْضُ عَنْ مُصَلَّاهُنَّ، قَالَتْ امْرَأَةٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إْحْدَانَا لَيْسَ لَهَا جِلْبَابٌ؟ قَالَ: لَتُلْبِسُهَا صَاحِبَتُهَا مِنْ جِلْبَابِهَا»⁽¹⁾.
أما الجُمُع، فالأصل في المرأة أن تَقَرَّ في بيتها، ولها في الجنة بيت من لؤلؤة مجوفة، فيراها زوجها أفضل وأجمل وأنصع بياضاً وجمالاً من الحور العين، فهي تقر في لؤلؤتها، تتمتع برؤية زوجها، ويتمتع بها، وسوق الجنة يخرج إليه المؤمنون كل جمعة، فإذا رجع إليها من الزيارة - اللهم ارزقنا ذلك - وقد ازداد جمالاً وحسناً ووسامة، من زيارة الله، فنقول: والله لقد ازدادت جمالاً فما أرى أجمل منك في الجنة، وهذا لكل رجل مع كل امرأة.

٣- ومن صور التعبد لله بهذه الصفة: أن لا يسأل بوجه الله إلا الجنة كما جاء عن النبي ﷺ: «لا تسألوا بوجه الله إلا الجنة»⁽²⁾ فلا يمكن أن يرفع المسلم أو المسلمة يده أو يدها ويقول: اللهم إني أسألك بوجهك الكريم ثم يسأل حاجة دنيوية مباحة، وإن كانت هذه من جملة الأدعية التي يدعى بها، لكن لا يسألها بوجه الله، فمن الأدب مع الله أن لا تسأل بوجه الله إلا الفردوس الأعلى، وأن لا تسأل بوجه الله إلا رؤية وجهه الكريم، وأن لا تذكر اسم الله إلا وأنت مبجل، موقر، معظم لاسم الله، ووجهه الكريم.

الرد على الذين نفوا صفة الوجه لله تعالى:

جاء المعطلة وهم قسمان: قسم عطلوا الصفة كاملاً، وقسم عطلوها تعطيلاً ناقصاً، فالجهمية والمعتزلة اتفقوا على نفي صفة الوجه لله وسائر الصفات، وهم بهذا يردون كتاب الله، وسنة نبيه ﷺ.

أما الأشاعرة فأولوا الصفة عن ظاهرها، فقالوا: قول الله تعالى: ﴿وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ ٢٧﴾ [الرحمن:27]، أي: ويبقى ثواب ربك، فحرفوا، ولا أقول: أولوا، ولكن أقول حرفوا الكلم عن مواضعه، وكأن النبي ﷺ إذا دعا وقال: (اللهم إني أسألك لذة النظر إلى وجهك الكريم)، يريد: ارزقني لذة النظر إلى ثوابك الكريم، وهذا كلام بعيد وشديد البطلان.

فأقول: الرد على هؤلاء الذين حرفوا وجه الله إلى الثواب: خالفتم ظاهر القرآن، وما هو ظاهر القرآن؟ وهذه قاعدة مهمة، وسنرد بها عليهم في كل آية يؤولونها إلى غير معناها الصحيح، ظاهر قول الله تعالى: ﴿وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ﴾، أن الله وجهها، وأنتم خالفتم ظاهر القرآن، ونقول لهم: هل كلمنا الله بلغة أعجمية؟

الجواب: لا، بل كلمنا الله بلغة نعلمها ونفقهها، قال: ﴿يَلْسَانُ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ١٩٥﴾ [الشعراء:195]، ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ٢﴾ [يوسف:2]، فإذا قال الله: لي وجه؛ عقلنا أن له وجهاً يليق به، ومخالفة ظاهر القرآن قدح في حكمة الله؛ لأن الله جل وعلا ما أنزل هذا الكتاب إلا من أجل أن نعقل هذه الصفات ونتعبد بها له، فإن كان الله

(1) صحيح البخاري (980)، ومسلم (890).

(2) سبق تخريجه.

سينزل علينا كتابًا لا نعقل منه حرفًا فهذا خلاف حكمة الله جل في علاه.
أيضًا من الرد نقول: قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ٨٩﴾ [النحل: 89]، فإذا قلت: الوجه هو الثواب فهل هذا تبيان لكل شيء؟

الجواب: لا، بل هذا تعمية على كل شيء، فكأن الله يقول: ما أريد هذا اللفظ، ابحثوا عن لفظ آخر، وهل الله لا يستطيع أن يقول مثلاً: ويبقى ثواب ربك؟ بل هو الذي علمنا ذلك، وجعل اختلاف الألسن آية من الآيات، فلو كان الله يريد الثواب مكان الوجه لقال: ويبقى ثواب ربك.

وكذلك خالفوا ظاهر السنة، قال النبي ﷺ: «وأسألك لذة النظر إلى وجهك الكريم»، فإذا كان المراد بذلك الثواب ففيه قدح في النبوة من وجوه كثيرة:

الوجه الأول: أن النبي ﷺ قصر بالبيان، وقد قال الله تعالى له: ﴿وَنَزَّلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ٤٤﴾ [النحل: 44]، فلو كان الوجه يراد به الثواب لكان لزاماً على رسول الله الذي أمر بالتبيين أن يبين لنا ويقول: معنى الوجه الذي في آية سورة الرحمن، والذي دعوت الله أن أنظر إليه المراد به الثواب، ولكنه لم يفعل؛ فدل على أن الثواب ليس المراد.

الوجه الثاني: فيه اتهام النبي ﷺ بعدم البلاغ، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة: 67]، فلو كان المعنى المراد هو الثواب والنبي ﷺ يعلم ذلك ثم لم يبلغه للأمة فما بلغ رسالة ربه على ذلك! وهذا مردود، قال النبي ﷺ للصحابة في حجة الوداع: «وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي، فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟ قَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ، فَقَالَ بِإِصْبَعِهِ السَّيَّابَةَ، يَرْفَعُهَا إِلَى السَّمَاءِ وَيَنْكُتُهَا إِلَى النَّاسِ: اللَّهُمَّ اشْهَدْ، اللَّهُمَّ اشْهَدْ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ»⁽¹⁾. أما الاحتمال الثاني اللازم لتأويلهم: هو أن النبي ﷺ لم يكن يعلم بالمعنى المراد! وهذا أقبح القبح، أو أن يقول: بل يعلمه ولم يقصر في البلاغ والتبيين ولكن سكت خشيةً على أصحابه من الفتنة فهذا سوء أدب، وقلة علم وفهم، وزيف قلب، لأن به اتهام الصحابة الذين حملوا الشريعة على أكتافهم، والمزكون بوحي من السماء!

ومن وجوه الرد عليهم: أنتم أعلم بالله من الله؟ فإن قالوا: نعم، كفروا، وإن قالوا: لا، لسنا أعلم من الله بالله، قلنا: الذي هو أعلم بنفسه قال: إن له وجهًا، فعليكم أن تسلموا بقوله.

ونقول: أنتم أعلم بالله من رسول الله؟ فإن قالوا: لا، لسنا بأعلم بالله من رسول الله قلنا: فرسول الله الذي هو أعلم بالله قال: (أسألك لذة النظر إلى وجهك)، ولم يقل: ثوابك، فيسعكم ما وسع رسول الله، ولا وسع الله على من لم يسعه قول رسول الله ﷺ، وحينئذ تسلم لنا الأدلة.

(1) مسلم (1218).

إثبات صفة اليد لله تعالى

قال المصنف: [وقوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ (المائدة: ٦٤)]

الصفة الثانية التي ذكرها المصنف هي صفة اليد، واليد من الصفات الخبرية، والتي ضابطها: مسمّاها عندنا أجزاء وأبعاد، وبالنسبة لله صفة لموصوف، وقلنا صفة خبرية؛ لأنها ثبتت بالخبر.

ثبتت هذه الصفة لله بالكتاب والسنة وإجماع أهل السنة، أما بالكتاب: قال الله تعالى: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: 10]، وقال: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ﴾ [المائدة: 64]، وقال: ﴿مِمَّا عَمِلْتَ أَيْدِينَا أَنْعَمًا﴾ [يس: 71].

ومن السنة: ما ورد في الصحيحين عن النبي ﷺ قال: «يَدُ اللَّهِ مَلَأَى، لَا تَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، سَحَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ. وَقَالَ: أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ؟ فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَدِهِ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، وَبِيَدِهِ الْمِيزَانُ يَخْفِضُ وَيَرْفَعُ» (1).

وقال النبي ﷺ في رواية أخرى في السنن بسند صحيح: «...فَقَالَ اللَّهُ لَهُ وَيَدَاهُ مَقْبُوضَتَانِ: اخْتَرْتُ أَيُّهُمَا شِئْتُ، قَالَ: اخْتَرْتُ يَمِينَ رَبِّي وَكِلْتَا يَدَي رَبِّي مَبَارَكَةٌ ثُمَّ بَسَطَهَا فَإِذَا فِيهَا آدَمُ وَذُرِّيَّتُهُ...» (2).

وقال النبي ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: يَا آدَمُ، فَيَقُولُ: لَبَيْكَ وَسَعْدَيْكَ، وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ» (3)، وأيضاً في الصحيح من حديث احتجاج آدم وموسى، أَنَّ موسى يقول له: «أَنْتَ آدَمُ الَّذِي خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَسَجَدَ لَكَ مَلَائِكَتُهُ، وَأَسْكَنَكَ فِي جَنَّتِهِ، ثُمَّ أَهْبَطْتَ النَّاسَ بِخَطِيئَتِكَ إِلَى الْأَرْضِ، فَقَالَ آدَمُ: أَنْتَ مُوسَى الَّذِي اصْطَفَاكَ اللَّهُ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلَامِهِ» (4).

فهذه كلها أدلة تثبت أَنَّ لله يداً حقيقية لا تشبه يد المخلوق وإن حصل الاشتراك في الاسم، فالتساوي في الاسم لا يستلزم التساوي في المسمى. فإذا سأل مبتدع عن كيفية يد الله، قلنا له: اليد في اللغة معلومة، والكيف مجهول، والإيمان بها واجب، والسؤال عنها بدعة.

أما عظمة يد الله، يبينها قول الله تعالى منكرًا على الذين لا يعظمونه: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمُوتُ مَطْوِيَّتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ٦٧﴾ [الزمر: 67]، وفي الصحيحين: دخل حبر من أحبار اليهود على رسول الله ﷺ، فقال له: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّ اللَّهَ يَحْمِلُ الْجِبَالَ عَلَى ذَهَبٍ، وَالْبَحَارَ عَلَى

(1) البخاري (4684)، ومسلم (993).

(2) صحيح الترمذي (3368)، أخرجه البزار (8478)، وابن خزيمة في «التوحيد» (160/1).

(3) صحيح البخاري (3348)، أخرجه مسلم (222).

(4) أخرجه البخاري (3409)، ومسلم (2652).

ذه، والسموات على ذه، والأشجار على ذه، - يشير إلى الأصابع - ثم قبض بيده وهز يده هكذا - ونحن نفعل ذلك كما فعل الرجل - وقال: فيهزهن هكذا ويقول: «أنا الملك أين الجبارون؟ أنا الملك أين المتكبرون؟ فضحك النبي ﷺ» (1) والنبي ﷺ يضحك مقراً له بذلك.

فهذه هي عظمة يد الله، فلا بد أن نتدبر وأن تعلم أنه لن يصل أحد إلى الغنى إلا بالله سبحانه، فيد الله سحاًء، ويمينه ملأى، خزائن السموات والأرض في يده، يعطي من يشاء، ويمنع من يشاء، قال النبي ﷺ: «يَمِينُ اللَّهِ مَلَأَى، لَا يَغِيضُهَا نَفَقَةً، سَحَاءٌ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مِنْذُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، فَإِنَّهُ لَمْ يَغْنُصْ مَا فِي يَمِينِهِ» (2)، قال النبي ﷺ - في الحديث القدسي - قال الله: «يا عبادي ! إِنِّي حَرَمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا ...» إلى أن قال: «يا عبادي، لو أَنَّ أَوْلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْ سَكُمُ وَجَنَّتُمْ، قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ؛ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمَخِيطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ...» (3) فهذه يد الله المنفقة، وهذه الآيات والأحاديث ترد على اليهود قولهم: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعُدُوةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ كُلَّمَا أَوقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ٦٤﴾ [المائدة: 64].

والمسلم يتعبد لله بهذه الصفة بالاستسلام له، وإثباتها له على وجه الكمال، فليس كمثله شيء، ويعلم أن الله بطشاًء، وأن بطشه شديد، وأن الله: ﴿يَوْمَسِّكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [الحج: 65]، ويعلم أن الله عزيز ذو انتقام، فيخشى ربه ويعظمه ويوقره، ويسأل الله أن يعطيه من خيره ويغدق عليه من عطائه، وعطاء الله حسي ومعنوي، أما الحسي: فهو المادة التي يملأ الإنسان بها بطنه، وأما العطاء المعنوي: فهو نور القلوب، ونور الإيمان الذي قال فيه شيخ الإسلام: إِنَّ فِي الدُّنْيَا جَنَّةَ مَنْ دَخَلَهَا دَخَلَ جَنَّةَ الْآخِرَةِ أَوْ هِيَ جَنَّةُ الْإِيمَانِ، فما دام أنه يعتقد أن يد الله ملأى فيستكثر من السؤال، فلا يتعاضم مع الله شيء.

والله - يدان تليقان بجلاله وعظمته جاء ذكرها في القرآن على صور ثلاث: بلفظ المفرد المضاف إليه كما قوله تعالى: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: 10]، والاسم المفرد إذا أضيف يفيد العموم، قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: 34]، وجاءت بصيغة الجمع، قال: ﴿مِمَّا عَمِلْتَ آيِدِينَ﴾ [يس: 71]، وهنا الجمع إما يقال أنه للتعظيم، وإما أن أقل الجمع في اللغة - على الراجح - اثنان، وعلى كلا الاحتمالين فلا

(1) سبق تخريجه.

(2) سبق تخريجه.

(3) صحيح مسلم (2577).

تعارض بين ما جاء في صيغة المفرد المضاف، وصيغة الجمع. أما الصورة الثالثة جاءت بلفظ التثنية قال تعالى: ﴿لَمَّا خَلَقْتُ بَيْدَيَّ﴾ [ص:75]، ولا تعارض بينها وبين الصيغ السابقة؛ لأنَّ أقل الجمع اثنان، وهذا الوجه من الرد - وإن كان فيه ضعف - إلا أنَّ الأقوى منه أن نقول: ثبت لله يدان بقوله تعالى: ﴿لَمَّا خَلَقْتُ بَيْدَيَّ﴾ [ص:75]، وهذه محكمة، وأما ﴿مِمَّا عَمِلْتَ آيِدَيْنَا﴾ [يس:71]، فتؤول على التعظيم، فلا منافاة بينها وبين التثنية، ولا منافاة بينها وبين المفرد - كما تقدم - ويعضد أنهما يدان قول الله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:64].

الرد على المنكرين لصفة اليد

أما أهل البدعة قالوا: اليد في كل الآيات السابقة بمعنى النعمة، قالوا: وعندنا في ذلك دليل، جاء في الصحيحين من حديث المسور بن مخرمة ؓ، وهو حديث طويل في صلح الحديبية وفيه: أنَّ عروة بن مسعود الثقفي وكان إذ ذاك كافراً قال لأبي بكر ؓ: «لولا أن لك عليَّ يداً لأجبتك»⁽¹⁾، منعه أن يرد عليه الوفاء، فقالوا: اليد أي النعمة. وقالوا: اليد معناها أيضاً: القدرة، والدليل على ذلك أنك إذا قلت: ضرب على الأمة بيد من حديد، كان فيه دلالة على القدرة والقوة، فقالوا لنا: في اللغة مساع، فيد الله فوق أيديهم، أي: قدرة الله فوق أيديهم، أو نعمة الله فوق أيديهم!

الرد عليهم: خالفتم ظاهر القرآن، وظاهر السنة، وإجماع الصحابة، فالله يقول: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [فتح:10]، وأنتم تقولون: نعمة الله، فأنتم بذلك تقدحون في بيان الله، وقد قال: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل:89]، والتبيان يدل على أنَّ اليد يد حقيقية.

وأيضاً، قال النبي ﷺ: «يمين الله ملأى»، وقال: «كلنا يدي ربي يمين»، أثبت الله اليد وأنتم تنفونها، فلزم من نفيتكم وتأويلكم القدرح في بلاغ رسول الله وبيانه واتهامه بالتقصير أو التجهيل! ثم أنتم خالفتم الإجماع، ومخالف الإجماع مبتدع.

ومن وجوه الرد أيضاً: إذا أولنا اليد إلى النعمة أو القدرة لزم منه لوازم باطلة: **أولها:** أننا سنجزئ قدرة الله، وسنقول: ﴿بَيْدَيَّ﴾ أي: بقدرتي، وهذا لا يقوله عاقل فإنَّ قدرة الله عامة، وشاملة لكل شيء.

ثانيها: يلزم من ذلك أن نقول: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾، أي: نعمة الله فوق أيديهم، ويلزم من ذلك أن نقول: ﴿لَمَّا خَلَقْتُ بَيْدَيَّ﴾ أي: لما خلقت بنعمتي، وهل هما نعمتان فقط؟! أم أنَّ نعائم الله لا تعد ولا تحصى؟ فهذه من اللوازم الباطلة.

ثالثاً: ومن اللوازم الباطلة أنهم سيجعلون لإبليس على الله حجة، فقد أُمِرَ أن يسجد لآدم فاعترض على ربه، وقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف:12]، فأظهر الله له فضل آدم عليه بقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ

(1) سبق تخريجه.

بِيَدَيَّ [ص:75]، وكأنَّ الله يقول له: فضل آدم عليك أُنْتَي خلقته بيدي، ولو كان المراد باليد النعمة والقدرة لقال الشيطان لربه: يَا رَبِّ! أَنْتَ لَمْ تَخْلُقْ آدَمَ بِيَدِكَ، ولم تشرفه بمباشرة اليد، وإذا خلقته بنعمتك أو بقدرتك فقد خلقتني بقدرتك، وخلقت الكون كله بقدرتك، فلا فضل لآدم علي!

والله شرف بعض المخلوقات بأن خلقها بيده، فخلق آدم بيده، والدليل قوله: ﴿لَمَّا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:75]، وعرس جنة عدن بيده، والدليل: «...أُولَئِكَ الَّذِينَ أَرَدْتُ عَرَسْتُ كَرَامَتَهُمْ بِيَدِي...»⁽¹⁾، وخلق الله القلم بيده، والدليل أثر مروي عن ابن عمر ٢ موقوفاً عليه، قال: «خلق الله أربعة أشياء بيده: العرش، والقلم، وآدم، وجنة عدن، ثم قال لسائر الخلق: كن فكان»⁽²⁾.

وخط التوراة بيده، والدليل حديث: «أنت موسى الذي خط الله لك التوراة بيده»⁽³⁾، وقال النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ كِتَابًا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الْخَلْقَ: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي، فَهُوَ مَكْتُوبٌ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ»⁽⁴⁾، فقد كتبه الله بيده.

إثبات صفة النفس لله تعالى

قال المصنف: [وقوله تعالى إخباراً عن عيسى ٤ أنه قال: ﴿تَعَلَّمْ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمْ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦] وقوله سبحانه: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢] وقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢١٠] وقوله تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩]].

معرفة صفات الله تعالى لها أهميتها في حياة المسلم، ولها أثرها البالغ في عبادته لربه تعالى، ذلك أن إثبات الصفات يقوي عند المؤمن مراقبته لربه وخوفه وخشيته منه تعالى، فيعظمه التعظيم اللائق به، وقد زلّ في هذا الموضوع الخطير - وهو موضوع صفات الله - أقوام فضّلوا وأضلّوا، وهدى الله أهل السنة والجماعة إلى صراطه المستقيم، فأثبتوا لله ما أثبتته لنفسه، وردّوا على شبه المبطلين ودحضوها، ونفّوا عن الله ما نفاه عن نفسه، ومما أثبتوه لله تعالى كما أثبتته لنفسه، وكما أثبتته له رسوله: صفة النفس، والمجيء، والرضا.

الصفة الثالثة التي تحدث عنها المصنف هي صفة النفس، وهي صفة ثبوتية ذاتية خبرية، ثبتت لله بالكتاب، والسنة، وإجماع أهل السنة.

(1) مسلم (189).

(2) رواه الطبري في جامع البيان (145/20)، والأجري في الشريعة (رقم/750)، والحاكم في المستدرک (349/2).

(3) سبق تخريجه.

(4) صحيح البخاري (7554)، أخرجه مسلم (2751).

أما في الكتاب: قال الله تعالى لعيسى ؑ: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يُعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة:116]، فقال عيسى: ﴿قَالَ سُبْحَانِكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عِلْمُ الْغُيُوبِ ۝١١٦﴾ [المائدة:116].

ووجه الشاهد من الآية قوله: ﴿وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾، ووجه الدلالة من الآية من وجهين:

الأول: أَنَّ النفس هنا أضيفت إلى الله، ولا تثبت صفة لله إلا إذا أضيفت إلى الله، قال: ﴿نَفْسِكَ﴾، والمضاف لله نوعان: أعيان قائمة بذاتها، ومعان، أما الأعيان القائمة بذاتها كالكعبة، فالكعبة عين؛ لأنك تراها وتلمسها، فهذه تضاف لله تشريفاً وتعظيماً، وكإضافة عيسى (روح الله) لله، وإضافة الناقة لله.

وإضافة الأعيان لله على أنها جزء من الله خطأ فاحش وكفر مبين، وهذا كلام الصوفية أصحاب الاتحاد والحدوث الذين وافقوا به كلام النصارى. أما إضافة الصفة؛ كالكرم، والقدرة، والكبر، والعزة، فهي إضافة صفة إلى موصوف، ومثله: عزة الله، وقدرة الله، وعطاء الله، ورحمة الله، وضحك الله، ونزول الله، ونفس الله، فإضافة هذه الصفات لله إضافة صفة إلى موصوف، وهنا أضاف النفس له، قال: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة:116].

الوجه الثاني من الدلالة: أَنَّ الذي وصف الله بها هو عيسى ؑ، ولا يمكن أن يتجرأ عيسى ؑ فيصف الله بما ليس صفة له، ويدلُّ على ذلك إقرار الله له، فلو كانت صفة لا يتصف الله بها لأنكر الله عليه ذلك، والله لا يقر على الباطل- فلقد أنكر على اليهود مقولتهم الباطلة عندما قالوا: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة:64]، فقال: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [المائدة:64]، وأيضاً أنكر على نوح ؑ قوله: ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ [هود:45]، فقال له: ﴿فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ٤٦﴾ [هود:46].

ومن السنة: قال رسول الله ﷺ: «سبحان الله عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه»⁽¹⁾، وأجمعت الأمة على ثبوت النفس لله جل في علاه.

فثبتت لله النفس على التقعيد: بلا تمثيل، ولا تكيف، ولا تعطيل، ولا تأويل، فنثبتها بلا تشبيه، وننزله بلا تعطيل، أما الطوائف التي ضلت في هذا الباب فهي إما غلت في التعطيل فنفت أو أولت، وإما غلت في التشبيه فجعلت الخالق كالمخلوق، وكلا المسلكين فساد وضلال، والوسط هم العدول.

فالمعتزلة والجهمية عطلوا وقالوا: ليس لله نفس، وهؤلاء يقال لهم: أخطأتم، وخالفتم كتاب ربكم، ثم ماذا تفعلون بما سبق من الأدلة؟ فالله أثبت لها وأثبتها له رسوله، فوجب عليكم اتباع الدليل وعدم ردّها بعقولكم.

ثم إنكم تقولون على الله بغير علم، وقد علمتم أنَّ هذا من الظلم بمكان، قال ﴿وَمَنْ

(1) سنن أبي داود (1503)، صحيح الجامع (2624).

أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢١﴾ [الأنعام:21].
والله يثبت النفس، وأنتم تقولون: ليس له نفس، فهل أنتم أعلم بالله من الله؟! أم أنتم أعلم بالله من رسول الله ﷺ؟! فإن قلتم: نعم أعلم، كفرتم، وإن قلتم: لا، الله ورسوله أعلم، قلنا: إذا كذبتكم وخسأتكم، ولا يقال بقولكم.
ثم جاء آخرون فغلوا في التشبيه كما غلا أولئك في التعطيل، فقالوا: نحن لسنا مثلهم، نحن نثبت لله النفس كنفس المخلوق، فنقول لهم أيضًا: كذبتكم، وأخطأتم، وخالفتم كتاب ربكم، فالله يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:11]، فنفى عن نفسه المثلية، فلا ندّ، ولا سمي، ولا شبيه له .

ثم جاء آخرون فقالوا: نحن نثبت النفس، لكن ليس على ما تعتقدون، إنما صفة النفس لله مؤولة، فهي الذات، فهو لا يقال لهم: خالفتم ظاهر الكتاب، وظاهر السنة، والإجماع فالله أثبت لنفسه صفة النفس، والأصل أن يحمل الكلام على حقيقته فعلام التأويل؟!
ختامًا، إذا علم العبد أنّ لربه نفسًا، فسيعلم أنّ هذه النفس المقدسة تعلم ما في نفسه، فلن يستتر إلا بما يرضي الله -جل في علاه-

إثبات صفة المجيء لله تعالى

صفة المجيء: صفة ثبوتية فعلية، وضابطها: أنها تتعلق بالمشيئة، أي: تتجدد، فيتصف الله بها حينًا، ولا يتصف بها حينًا، وهذه لتعلمها ضع قبل الصفة: إن شاء، فإن شاء فعل، وإن شاء لم يفعل، فهو سبحانه إن شاء جاء، وإن شاء لا يجي، وإن شاء استوى، وإن شاء لم يستو، وإن شاء ضحك، وإن شاء لم يضحك، وإن شاء أعطى، وإن شاء لم يعط، وإن شاء نزل، وإن شاء لم ينزل، وهكذا.
وقد ثبتت لله بالكتاب، والسنة، وإجماع أهل السنة والجماعة، أما من الكتاب: قال الله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر:22]، وقال تعالى: ﴿وَجَاءِيَّ يَوْمَئِذٍ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامِنْتَ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلْ أَنْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ١٥٨﴾ [الأنعام:158]، وقال: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَفُضِي الْأَمْرُ إِلَى اللَّهِ نُزْجَ الْأُمُورُ ٢١٠﴾ [البقرة:210]، فالله يأتي، والملائكة تأتي وتكون صفاً صفاً، ولا يلزم من الإثبات التشبيه بين الخالق والمخلوق، فنحن نثبت لله الإتيان ولكن ليس كإتيان المخلوقين، فالصفة معلومة المعنى، مجهولة الكيف، ولو كان

ظاهر الآية يورث إشكالاً لكان البيان واجباً على النبي ﷺ أن نضل.

وثبتت هذه الصفة أيضاً في السنة، ففي الصحيحين قال النبي ﷺ في حديث الشفاعة الطويل: (ثم يأتيهم الله⁽¹⁾)، أي: أن الله يأتي فيقول - كما ثبت - من كان يعبد شيئاً فليذهب خلفه، فمن عبد الشمس فستكور وترمى في جهنم، وهو خلفها - والعياذ بالله - ومن كان يعبد القمر يسقط خلفه في النار، جزاء وفاقا، ومن كان يعبد عيسى نفس الأمر، فقد جاء أنه يبقى بقايا من أهل الكتاب، والمؤمنون والمنافقون من هذه الأمة، فيأتي الله إلى بقايا من أهل الكتاب فيقول: «من تنتظرون؟ فيقولون: ننتظر عيسى ابن الله، فيقول: خستتم أو كذبتم إن الله لم يتخذ ولداً، ثم يلقون في النار»، وكذلك اليهود عندما يقولون هذه المقولة على عزير يلقون في النار، ثم يأتي الله إلى المؤمنين والمنافقين الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ﴾ [النساء: 142]، فيقول: «من تنتظرون؟»، قالوا: ننتظر ربنا، قال: هل بينكم وبينه علامة؟ قالوا: نعم، قال: «أنا ربكم»، وفي الحديث قال: «فيأتيهم الله على الصورة التي لا يعرفونها». الشاهد أنه قال: (يأتيهم)، فهذا من المجيء، وسيأتيهم على صورة لا يعرفونها، فيقولون: نعوذ بالله منك لست بربنا، فيقول: «هل بينكم وبينه علامة؟» فيقولون: نعم، فيأتيهم في الصورة التي يعرفونها، ثم يكشف عن ساقه فيخبر كل مؤمن كان يسجد صدقاً، أما المنافق فيرجع ظهره طبقاً لا يستطيع أن يسجد فينقلب على قفاه فيخدعه الله كما خادعه في هذه الدنيا، الغرض المقصود أنه قال: (يأتيهم).

فإذا قيل: إن أثبتتم صفة المجيء فقد شبهتم الخالق بال مخلوق، فالجواب: التساوي في الاسم لا يستلزم التساوي في المسمى، فالله يجيء، ومحمد يجيء، والملائكة تجيء، والأمر يجيء، والشمس تأتي، فهل كلها تساوت في المسمى؟! **الجواب:** لا، فإذا التساوي في الاسم لا يستلزم التساوي في المسمى، ودونك الواقع

المشاهد انظر وتأمل لتدرك، وستجد أن المخلوقات وإن اشتركوا في الاسم لكن المسمى لا يتساوى، فمن باب أولى التباين بين كيفية صفات الخالق وصفات المخلوق وإن اشتركوا في معنى الصفة، لذلك نقول: الله يجيء مجيئاً يليق بجلاله وعظمته وكرمه وقدرته وبهائه، والمخلوق يجيء مجيئاً يليق بعجزه ونقصه وفقره.

فإن قيل: كيف مجيء الله؟ نقول: المجيء في اللغة معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة.

والمرء إذا تدبر علم أنه راحل، وأنه إلى ربه راجع، وأن الله سيجيء يوم القيامة، وتشرق الأرض التي سنحشر عليها بنور ربها، ويأتي الله ليفصل بين العباد، عندها يشتد الخطب ويدلهم على الناس، وتحيط الكروب بهم من جميع الجوانب، والشمس تدنو من الرؤوس قدر شبر أو ميل، وكل امرئ في عرقه بحسب حاله، فمنهم من يصل عرقه إلى كعبيه أو إلى ركبتيه، أو إلى حقويه، أو إلى صدره، بل إن منهم من يلجمه العرق إجماء، جاء في الحديث: (فَيَقُولُ النَّاسُ: أَلَا تَرَوْنَ مَا قَدْ بَلَغَكُمْ، أَلَا تَنْتَظِرُونَ مَنْ

(1) سبق تخريجه.

يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ؟ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: عَلَيْكُمْ بَادَمَ، فَيَأْتُونَ آدَمَ ۖ فَيَقُولُونَ لَهُ: أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ، خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا قَدْ بَلَّغْنَا؟ فَيَقُولُ آدَمُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، يُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ سَلِّ ثُعْطَهُ، وَاشْفَعْ تَشْفَعْ فَأَرْفَعْ رَأْسِي، فَأَقُولُ: أَمْتِي يَا رَبِّ، أَمْتِي يَا رَبِّ، أَمْتِي يَا رَبِّ، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ أَنْجِلْ مِنْ أَمَّتِكَ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْبَابِ الْأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ ..(1).

فيشفع النبي ﷺ في القضاء فيقضي الله بين عباده أجمعين في آن واحد، الخلائق من لدن آدم إلى آخر خليفة في آن واحد! والحق لا عجب فكما يرزقهم في آن واحد، سيحاسبهم في آن واحد، والله على كل شيء قدير.

فإذا استحضرنا مجيء الله فلا بد أن نحرص على عمل الحسنات والطاعات، ولا بد أن نقدم الخيرات، وإن أسأنا نثوب ونتوب إلى الله، ولسان حال كل امرئ منا: وعجلت إليك ربي لترضى، فالله يرخي كنفه على عباده، فلا يسمع أحد مناجاة وكلام الله مع أحد، يقول الله: عبدي! ألم تعمل ذنب كذا يوم كذا؟! ويستحضر العبد ذنوبه، ومن منا لم يتجرأ على حدود الله؟ ومن منا لم يعص الله جل في علاه؟ فينظر أيمن منه فلا يجد إلا ما قد قدم، وينظر أشأم منه فلا يجد إلا ما قد قدم، وينظر أمامه فلا يجد إلا النار، فيقول: هذه مهلكتي هذه مهلكتي، فيقول الله تعالى - ونسأل الله أن يقول لنا جميعاً هذا- عبدي! قد سترتها في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم.

صفة الرضا لله تعالى

صفة الرضا صفة ثبوتية فعلية، ثبتت بالكتاب، والسنة، والإجماع.

أما في الكتاب: قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح: 18]، وقال الله تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ١١٩﴾ [المائدة: 119].

وفي السنة: قال النبي ﷺ كما في سنن الترمذي بسند صحيح: (إذا أحب الله قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فعليه السخط)(2). فالحديث يدل على الصفة بالقرائن الأخرى، أي: فله الرضا من الله، وقال في الحديث الذي هو أصرح من ذلك - وهو نص في المسألة- (إِنَّ اللَّهَ لَيَرْضَى مِنَ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا وَيَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا)(3).

وأجمع أهل السنة والجماعة أن الله متصف بصفة الرضا.

(1) حديث الشفاعة سبق تخريجه.

(2) صحيح الترمذي (2396)، أخرجه ابن ماجه (4031).

(3) سبق تخريجه.

ونحن نثبت هذه الصفة على ما سبق من تقعيد: بلا تمثيل ولا تشبيه ولا تكيف ولا تعطيل ولا تأويل، ونثبتها بكيف يعلمه الله، فالله يرضى، ورضا الله يليق بجلاله وكماله وبهائه وعظمته، وهذا الرضا رضا حقيقي.

وإذا علم المرء أنَّ ربه يرضى فسيسارع في مرضاته، قال تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ۚ﴾ [المطففين: 26]، وإذا علم أنَّ ربه يرضى ويسخط فسيجنب السخط، ويتلمس ويأخذ بكل أسباب الرضا، والأخت المسلمة سترضى زوجها، وتطيع بعلمها، وتؤدي فرضها، وتحسن إلى الأخريات لترضى ربها، ولا تعصي ربها؛ لأنها تخشى من سخطه.

وأهل السنة مع إثباتهم للصفة يثبتون لازمها، فالله إذا رضي كافاً وأثاب، وإذا رضي الله عن عبد أحبه، فينادي في السماء: «أَنْ يَا جَبْرِيلُ! إِنِّي قَدْ رَضِيتَ عَنْ فُلَانٍ وَأَحْبَبْتُ فُلَانًا فَأَحْبِبْهُ، فَيَحِبُّهُ جَبْرِيلُ، وَيُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ فَيَحِبُّوهُ، وَيَكْتُبُ لَهُ الْقَبُولَ فِي الْأَرْضِ»⁽¹⁾.

أما أهل البدعة والضلالة من الجهمية والمعتزلة الذين قالوا: لا رضا، والله لا يرضى، ونفوا الصفة عن الله، تجدهم لا تشاق قلوبهم إلى رضا الله، فيعيشون حيارى؛ لأنهم نفوا الصفة عن الله.

ثم جاء الأشاعرة، فقالوا: نثبت الصفة، لكن معناه: الثواب، كما حرفوا مجيء الله إلى مجيء أمره، أو مجيء ملائكته، فالرد على هؤلاء: خالفتهم ظاهر القرآن والسنة، فالله كلمنا بما نعلم من اللغة، والنبي ﷺ عربي فصيح، فتأويلكم قدح في حكمة الله أنه كلمنا بما لا نعلم، وقدح في رسالة النبي ﷺ وتبيينه وبلاغه.

ثم هل أنتم أعلم بالله من الله؟ إذ لو كان معنى الرضا هو الثواب لقاله الله تعالى، أو لبيّنه النبي ﷺ وهو أعلم بربه منكم.

ثم أنتم أثبتتم لازم الصفة، ونحن نوافقكم على إثبات اللازم، لكننا نثبت مع لازم الصفة الصفة، وبهذا أعملنا الأدلة كلها.

(1) سبق تخريجه.

إثبات صفة المحبة لله تعالى

قال المصنف: [وقوله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾] [المائدة: ٥٤] وقوله تعالى في الكفار: ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾] [الفتح: ٦] وقوله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ﴾] [محمد: ٢٨] وقوله تعالى: ﴿كَرِهَ اللَّهُ أَنْبِعَاثَهُمْ﴾] [التوبة: ٤٦]]

نحن الآن - إن شاء الله - على موعد مع صفة أخرى من صفات الله هي صفة المحبة، وهذه الصفة هي من الصفات الثبوتية، الفعلية، التي ضابطها: أنها تتعلق بالأسباب، فالله يحب المؤمنين، ويحب من الناس المخلصين الصادقين، فالله لا يحب كل البشر، بل يحب بعضاً من البشر وهم الذين أتوا بأسباب هذه المحبة.

والمحبة من الصفات الفعلية التي تتجدد، بمعنى: إن شاء الله أحب، وإن شاء لا يحب، ولا يقول أحد: أن الله يحب موسى منذ خلق آدم، بل الله يحب موسى حين خلقه وبعثه إلى بني إسرائيل، ويحب محمداً حين خلقه، وحين بعثه نبياً مرسلًا، فالمحبة تتعلق بالأسباب، والمشائية، وهذه الصفة صفة كمال، وجلال، وبهاء، وعظمة لله، ثبتت بالكتاب والسنة والإجماع.

أما من الكتاب: قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةً لَئِيمَةً ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ٥٤﴾

[المائدة: 54]، فهذا تصريح من الله، قال: (يحبهم) فاثبت لنفسه صفة المحبة.

وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ٢٢٢﴾ [البقرة: 222]، والآيات في ذلك كثيرة.

وأما في السنة: جاء في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال يوم خيبر: «لأعطين الراية غداً رجلاً يحبه الله ورسوله»، فاثبت لربه المحبة، وقال: «ويحب الله ورسوله»⁽¹⁾، يعني: وهو أيضاً يحب الله ورسوله.

وقال النبي ﷺ كما في المسند بسند صحيح: (قال الله تعالى: حقت محبتي للمتحابين في)⁽²⁾ أو قال: (في جلالتي)، فقله: حقت محبتي، دلالة بالتصريح على إثبات محبة الله كصفة له سبحانه.

وقال النبي ﷺ: «إذا أحب الله عبداً نادى في السماء»⁽³⁾، قال: أحب الله عبداً، فأضيفت لله، إضافة معنى.

وأجمع أهل السنة على ثبوت هذه الصفة لله جل في علاه.

(1) صحيح البخاري (4210)، أخرجه مسلم (2406).

(2) أخرجه أحمد (22030) واللفظ له، ومالك (953/2)، والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (3890).

(3) سبق تخريجه.

والعبد الذي اعتقد الاعتقاد الجازم في الله، وتعلم العقيدة السليمة السديدة يتعبد لله بإثبات هذه الصفة على ما يليق بجلاله وكماله وبهائه وعظمته، من غير تمثيل ولا تكيف، ولا تعطيل، ولا تأويل؛ ولا يلزم من الإثبات المماثلة والنشبية، وأيضاً لا نكفّ الصفة بعقولنا، وأهل السنة يثبتون المعنى، ويقوضون الكيفية.

والعبد إذا علم أنّ ربه يُحب، ويُحب فسيسارع إلى أسباب المحبة سيما إذا علم ثواب هذه المحبة ولازمها.

ومن هذه الأسباب التي يستجلب العبد بها محبة الله:

١- المسارعة في التوبة والأوبة، فليس ممّا أحد لا يخطئ، ولا يتعدى على حدود الله، وليس ممّا أحد لم يتجرأ على الله، بل كل ممّا يخطئ ليل نهار، وكل ممّا يتجرأ على حدود الله، فيعصي ويذنب، إلا أنّ خير البشر الذين يؤوبون ويتوبون إلى الله، والله يحب التوابين، فإذا علم العبد أنّ استجلاب محبة الله بالتوبة، فلن تمر عليه ليلة إلا وهو تائب إلى الله من كل صغيرة وكبيرة، ومن كل غفلة، ومن كل عبادة لم يأت بها على الوجه الذي أمر الله به، فيتوب إلى الله مستحضراً في توبته ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: 222].

٣- ومنها: أن يكون من المحسنين ومن المتقين، ومن المعلوم أنّ مراتب الدين: إسلام ثم إيمان ثم إحسان، فنترقى من الإسلام إلى الإيمان، فنتبع الفرض بالنفل، ولا يزال العبد يستزيد من النوافل المطلقة حتى ترتقي به إلى مرتبة الإحسان: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: 134]، فيفوز بمحبة الله.

٤- ومنها: المحبة في الله، قال الله جل في علاه في الحديث القدسي: «حققت محبتي للمتحابين في»⁽¹⁾، فإذا علم العبد ذلك فسيجتهد أن يعمّق الأخوة في الله بينه وبين أخيه؛ ليفوز بمحبة الله تعالى لك، والأخوة نوعان: أخوة عامة، وأخوة خاصة.

أما الأخوة العامة: فهي التي نراها الآن بين أدينا: الأخ الملتحي يسلم على الأخ الملتحي، والأخت المحجبة تسلم على الأخت المحجبة، تراها في المسجد فتش وتبش لها، والرجل يفعل ذلك مع أخيه، ولعل البعض يخفي في قلبه ما يضر أخاه ولا يعلمه إلا الله، فهذه هي الأخوة العامة: أن يربط بين الأخ وأخيه سلام، أو إن كانا في منفعة مشتركة.

أما الأخوة الخاصة: فأكاد أجزم أنّها عزّت في هذا الزمان، وحقيقتها أن تقدم أخاك على نفسك، وهذه بعيدة! وتعلم أنّك وإياه تتسارعان إلى الله، فتتنافسان على الخير بعد أن تدلّه عليه، ولا تحقده ولا تحسده، ولا تكتم فضله عن الناس بل تنشر ذلك بينهم، ومن الأخوة أنّه لو أدخل يده في جيبك فأخذ ما فيه لا تسله كم أخذ وكم ترك، بل ما أخذ أحب إليك مما ترك، وهذه كما قلت: عزيمة جدّاً في هذا الزمان.

الحاصل أنّ الأخوة الخاصة تحرك القلوب والأبدان، ويرتقي بها إلى الفردوس الأعلى مع النبي ﷺ، كما كان يفعل خيار الصحابة ؓ جميعاً.

(1) سبق تخريجه.

والعبد إذا تأمل ثواب محبة الله يعجب كل العجب، قال ابن القيم: ليس العجب أن يحب العبد ربه؛ فالسبيل كلها مفتوحة لمحبة الله، فالعبد يحب ربه لنعائمه وفضله وما اتصف بها من صفات الجمال والبهاء والجبروت والعظمة، فليس من العجب أن تحب ربك، إنما العجب أن يحبك ربك وهو الغني عنك، فالعبد فقير مخلوق لله، والله يدبر عبده، ويكيفه كيف شاء، فإذا أراد له شيئاً قال له كن فيكون.

ومن أحبه الله وضع له القبول في الأرض، فكما في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَقَالَ: إِنِّي أُحِبُّ فُلَانًا فَأُحِبُّهُ، قَالَ: فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي السَّمَاءِ يَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأُحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، قَالَ ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ»⁽¹⁾، فالله إذا أحب عبداً حبَّبه إلى جبريل ؑ، وإلى الملائكة، ثم كتب له القبول في الأرض.

وهناك إشكال عظيم لا بد من حله، فالنبي ﷺ في الصحيحين قال: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيَّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ»⁽²⁾ فأين القبول لهؤلاء الأنبياء، والمتفق عليه أنهم كلهم محبوبون لله؟ **الجواب:** هذا القبول الذي في الحديث مقيد بأهل الصلاح، أي: يكتب له القبول في الأرض عند أهل الصلاح، وليس في كل الأرض، وإلا فإن من الرويضة في هذه الأزمنة من يحبه كثير من الناس، لكن يحبه من على شاكلته في فسقه.

ثم لك أن تتخيل عظمة أن يذكرك الله باسمك: «إني أحب فلاناً»، وهذا الأمر هو الذي أبكى أبا المنذر أبي بن كعب «فرحاً عندما قرأ النبي ﷺ سورة البينة فقال: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ الْقُرْآنَ. قَالَ: اللَّهُ سَمَّانِي لَكَ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَجَعَلَ يَبْكِي»⁽³⁾. انظروا إلى فقه الصحابة الذين يعلمون أن المكانة العظمى حقاً عند الله، وأن المحبة بحق هي ما عند الله، فقال: اللَّهُ سَمَّانِي لَكَ؟ أي: هل تكلم الله باسمي؟! قال: «نعم».

وأنت أخي الكريم إن علمت أن معظماً تحدث باسمك في المجالس كيف ستكون فرحتك وسعادتك في قلبك؟ وكذلك المرأة إن علمت أن زوجها يحبها ويتحدث باسمها عند أهلها، كم هي الفرحة والسرور التي تدخل عليها! فكيف بك إذا كان الله رب السماوات والأرض هو الذي أحبك وذكرك باسمك لجبريل ؑ، وقال إني أحبه، ويأمره أن يحبه ثم يكتب له القبول في الأرض؟! فهنيئاً للذين أحبههم الله الذين ساروا على نهجه. والعبد إذا أحبه ربه فهو في جواره في الآخرة، فالمرء مع من أحب، قال رسول الله ﷺ: «المرء مع من أحب»⁽⁴⁾، قال أنس: ما سعدنا بحديث كما سعدنا بهذا الحديث، فإني أحب النبي ﷺ، وأحب أبا بكر وأحب عمر.

ثم اعلم أن محبة الله للعبد سبب في سداد العبد وتوفيقه، وأعظم بها من بشرى في

(1) سبق تخريجه.

(2) البخاري (5705)، وأخرجه مسلم (220).

(3) البخاري (4960)، ومسلم (799)، وأحمد (13442) واللفظ له.

(4) صحيح البخاري (6170).

الدنيا قبل الآخرة! فإذا أحبك الله ستكون مسدداً موفقاً منصوراً لا مغلوباً، ومصدق هذا ما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة ؓ وأرضاه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ، كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لِأَعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لِأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ؛ يَكْرَهُ الْمَوْتَ، وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ»⁽¹⁾.

انظر إلى الفضل في الدنيا والآخرة، «فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها»، وفي رواية المسند قال: «فبي يسمع وببي يبصر وببي يبطش»، وهذه الرواية مفسرة لقوله: «كنت سمعه وبصره»، فلا حلول ولا اتحاد، فقوله: (فبي) أي: بتوفيقي وتسديدي ونصرتي، فلا يسمع إلا ما أحب، ولا يبصر إلا ما أحب، ولا يتكلم إلا بما أحب، ويده لا تبطش إلا فيما أحب، وهذا قد تحقق في وصف دقيق من عائشة للنبي ﷺ، عندما قالت: وما غضب رسول الله ﷺ لنفسه قط ولكن إذا انتهكت محارم الله فكان يغضب الله جل في علاه فيسدد من قبل الله.

ومنازل المحبة منزلتان: منزلة المحبة، هي للعبد الذي أتى بالفرائض كما أمره الله، وأما من أتبع الفرائض بالنوافل، واجتهد في النوافل وكررها، وثبت عليها فهذا بلغ منزلة المحبوبة، وهذه الدرجة إذا بلغها عبد لا ينزل عنها - إن شاء الله - وإن عصي وزل يوشك الله أن يدرکه برحمته، فيلهمه التوبة، ويتوب عليه ليتوب، فيرتقي بتوبته منزلة أعلى عند ربه.

الرد على المخالفين في إثبات صفة المحبة لله

هناك قوم أعمى الله أبصارهم وبصيرتهم عن هذا الحق فلا يتعبدون لله بهذه الصفات، ولم يعرفوا طعماً للإيمان بصفات الله، فقايل منهم: لا نعلم من المحبة إلا ميل القلب، فهل لله قلب يميل؟! فلأجل هذه المقدمة الباطلة أبطلوا الصفة.

فهؤلاء يجاب عليهم: قولكم هل لربنا قلب هذا خطأ فادح أصالة؛ لأنه لم يرد في الشرع، فالذي ورد أن الله يحب، فنثبت معنى الصفة من غير كيفية معلومة، أما القلب فلم يرد في الشرع فيه إثبات ولا نفي، والقاعدة: الصفات التي لم يرد فيها نص بإثبات ولا نفي نتوقف فيها؛ لأننا لو أثبتناها وهي منفية عن الله نكون قد نقولنا على الله بغير علم، ولو نفيناها فربما تكون مثبتة لله ونحن لا نعلم.

ثانياً: بسؤالك هذا أنت شبهت الخالق بال مخلوق والله يقول: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ١١) [الشورى: 11]، فصفة الله لا تشبه صفة المخلوق.

ثالثاً: الاشتراك في الاسم لا يستلزم التساوي في المسمى، فالله يحب، وزيد يحب، وحب الله لا يماثل حب زيد، فالله يحب وهذه صفة كمال وجلال وبهاء وعظمة، وأما

(1) صحيح البخاري (6502).

حب زيد فيلبق بعجزه ونقصه وفقره.
 أما الأشاعرة، قالوا: نحن نثبتها لكن ليس على معناها الحقيقي بل بمعنى مؤول،
 وادّعوا أنهم بذلك راموا تنزيها! فقالوا: معنى قول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ
 الْمُتَطَهِّرِينَ ٢٢٢﴾ [البقرة: 222]، أي: يريد أن يثيب التوابين، ففسروا المحبة بالإثابة.
 يرد عليهم: خالفتم ظاهر القرآن، وظاهره إثبات المحبة لله، وكذلك ظاهر السنة،
 وخالفتم الإجماع أيضاً.
 لو قلنا بقولكم ترتب عليه لوازم باطلة، منها: أنَّ الله خاطبنا بما لا نعقل، وهذا
 حرام فالله قال: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ١٩٥﴾ [الشعراء: 195]، وهذا اتهام صريح للنبي
 ﷺ بعدم البلاغ والبيان؛ إذ لو كانت المحبة معناها إرادة الثواب لقالها للصحابه معلما كي
 لا يضلوا بأشرف باب من أبواب العلم.
 ثم نسألهم: ما الذي دعاكم للتأويل؟! قالوا: لا نعلم من المحبة إلا ميل القلب وهيجان
 الشعور والله منزّه عن ذلك.
 قلنا لهم: ونحن بإثباتنا الصفة ننزه الله عن مشابهة المخلوقين، فنثبتها من غير
 تشبيه، ولا يلزم من التنزيه التعطيل أو التأويل، بل كما أثبتنا لله إرادة لا تشبه إرادة
 المخلوق فنثبت له محبة لا تشبه محبة المخلوق، فالقول في الإرادة كالقول في المحبة،
 ولا فرق.

إثبات صفة الغضب لله تعالى

صفة الغضب ثابتة لله بالكتاب والسنة وإجماع أهل السنة.
 قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خُلْدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ
 وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ٩٣﴾ [النساء: 93]، أي: الذي قتل مؤمناً متعمداً.
 وقال جل في علاه: ﴿وَالْخُمُسَ أَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ٩﴾
 [النور: 9].
 وثبتت صفة الغضب لله في السنة: جاء عن النبي ﷺ أنه كان يدعو ويقول: «اللَّهُمَّ
 أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ لَا أَحْصِي ثَنَاءً
 عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَتَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ» (1).
 ومنها، قول النبي ﷺ: «...لما قضى الله الخلق، كتب في كتابه، فهو عنده فوق العرش:
 إِنَّ رَحْمَتِي غَلِبَتْ غَضَبِي» (2)، ووجه إثباتها إضافتها لله جل في علاه إضافة معنى.
 وصفة الغضب تتجدد، ومتعلقة بالمشيئة، والدليل على ذلك ما جاء في الصحيحين

(1) رواه مسلم (486).

(2) سبق تخريجه.

عن النبي ﷺ كان يقول: «... فيقول آدم: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ»⁽¹⁾، فهذا فيه دلالة على أَنَّ الله يغضب يوم القيامة، وأنَّه يغضب على الكافرين، وعلى الفسقة والفجرة، فالله قد يغضب ثم يرضى، يغضب على من فعل المعصية، ثم يرضى عنه إذا تاب. والعبد المتعبد لله المعتقد في الله اعتقادًا صحيحًا، ويعلم أَنَّ ربه يغضب، فسيتجنب الأسباب التي تستجلب غضبه، فإذا وقع في الأسباب التي تستلزم غضب الله رجع وتاب.

ومن الأسباب التي تستجلب غضب الله: الشرك والمعاصي وظلم العباد، فالؤمن ينأى بنفسه عن الشرك والمعاصي وظلم العباد، فالظلم ظلمات يوم القيامة، كما ينأى بنفسه عن التسخط على أقدار الله، والنبي ﷺ بيّن أَنَّ من ابتلاه الله بلاءً فرضي فله الرضا، ومن لم يرض فعليه السخط والغضب. والله إذا غضب انتقم، وإذا انتقم من عبد فانتقامه لا رادَّ له، وإنَّ الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته.

الرد على المخالفين في صفة الغضب

لا بد أخي أن تعلم أَنَّ المعتزلة تنفي عن الله الصفات بأسرها، والصفات عندهم كلها مخلوقة، أما الأشاعرة فهم ينفون أغلب الصفات خاصة الفعلية منها والخبرية، لكنهم لا ينفونها كنفى المعتزلة، بل يدعون الإثبات مع تعطيل عن المعنى الحقيقي إلى معان أخرى، فهم عند التأمل معطلة كما أسلفنا سابقًا. وهؤلاء الأشاعرة حينما أتوا إلى مثل هذه الصفات: المحبة والغضب والكره، وغيرها فهموا منها أَنَّها كصفات المخلوق، فبدلاً من أن يثبتوا المعنى مع التنزيه عن التشبيه والمماثلة، ويفوضوا كيف، حرفوا المعنى بالكلية إلى معان لم يأت بها النبي ﷺ ولا فهمه أهل الفصاحة من القرون الثلاث الأولى فوقعوا فيما فروا منه، فمثلاً: هم يقولون معنى غضب الله أي: انتقام الله، والله يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ [إبراهيم: 47]، أو إرادة الانتقام.

نقول لهم: هل ورد هذا التفسير عن النبي ﷺ؟!!

ثم أنتم بتأويلكم هذا خالفتم ظاهر الكتاب، قال الله: ﴿وَوَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 93] وَم يَقُل: انتقم منه، فخالفتم ظاهر القرآن، والسنة، كما وخالفتم إجماع الصحابة.

وأنتم بتأويلكم تقدحون في بيان النبي وتبليغه.

ثم إِنَّ الله تعالى غاير بين الغضب والانتقام في كتابه، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا اٰنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ٥٥﴾ [الزخرف: 55]، ومعنى: ﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا﴾، أغضبونا، فيكون المعنى: فلما أغضبونا انتقمنا منهم، لكن على قولكم: ماذا سيكون

(1) البخاري (3340) واللفظ له، ومسلم (194).

التفسير؟!

ثم أنتم أولتموه لإرادة الانتقام، ونحن نسألكم: أليس للإنسان إرادة؟!، الجواب: بلى، إذا لم أثبتموها مع أن الداعي الذي من أجله فررتن من إثبات الصفات الفعلية موجود أيضاً في الإرادة؟! الحق، كما تقولون في الصفات التي أثبتموها قولوه في سائر الصفات!

والانتقام لازم للغضب، فالله إذا غضب على عبد انتقم منه، فأنتم أولتم الصفة بلازمها، ونحن أثبتنا الصفة ولازمها.

صفة السخط لله تعالى

صفة السخط لله تعالى من الصفات الفعلية التي تتعلق بالمشيئة، وتتجدد وتتعلق بالأسباب، فيتصف الله بها حيناً، ولا يتصف بها أحياناً أخرى. وهي ثابتة لله تعالى بالكتاب، والسنة، وإجماع أهل السنة، فأما في الكتاب: قال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرَهُوا رِضْوَنَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ ۚ﴾ [محمد: 28]، ووجه الدلالة أنه أضاف السخط.

وأما في السنة: فقد جاء في سنن الترمذي عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فعليه السخط»⁽¹⁾ وجاء عن معاوية - وإن كان الرفع في روايته ضعف - أنه بعث لعائشة ~ فطلب منها أن تكتب له فقالت: أما بعد: فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «مَنْ التَّمَسَّ رِضَاَ اللَّهِ بِسَخَطِ النَّاسِ كَفَّاهُ اللَّهُ مُؤَنَّةَ النَّاسِ، وَمَنْ التَّمَسَّ رِضَاَ النَّاسِ بِسَخَطِ اللَّهِ وَكَلَّهُ اللَّهُ إِلَى النَّاسِ»، وكل هذه معان أضيفت لله إضافة صفة إلى الموصوف. فنحن نؤمن بصفة السخط، وأنها صفة من صفات الله الفعلية، ونثبتها بلا تشبيه ولا تمثيل، ولا تحريف ولا تكييف، والسخط في اللغة معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة.

صفة الكره لله تعالى

ومن صفات الله تعالى: صفة الكره، وهي صفة من صفات الله الفعلية، التي تتعلق بالمشيئة وتتجدد، وتتعلق بالأسباب، فالله يكره ويمقت العصاة والكفار والفجرة. قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاتَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ

(1) سبق تخريجه.

وَقِيلَ أَقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ٤٦ ﴿ [التوبة: 46]، أي: كره انبعاث المنافقين فخذلهم؛ لأنهم في الصف المسلم يخذلون أهل الإسلام، قال الله تعالى: ﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ٤٦﴾ [التوبة: 46].

ومن الأدلة ما جاء في الصحيحين عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ كَرِهَ لَكُمْ ثَلَاثًا: قِيلَ وَقَالَ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ»⁽¹⁾ فالكره صفة من صفات الله الفعلية، ولا تشبه صفات المخلوقين، وليس الأمر على أَنَّ الله يكره إذا يكون له قلب يميل لمن أحبه، ويبعد عن كرهه، فهذا كلام باطل، بل نقول: صفة الكره صفة كمال وجلال لله. وأهل التعطيل فسروا صفة الكراهة بالإبعاد، وهذا التفسير باطل مردود.

صفة النزول لله:

قال المصنف: [ومن السنة، قول النبي ﷺ: «ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى سماء الدنيا»]

لا زال المصنف يتحدث عن الصفات الفعلية، فقال: [ومن السنة]، وهذا بيان منه أَنَّ ثبوت الصفات لا يكون إلا بوحى؛ والوحي: كتاب وسنة، ثم شرع بذكر ما أخبر به النبي ﷺ من الصفات، فساق عن النبي ﷺ قوله: «ينزل ربنا تبارك وتعالى».

وصفة النزول صفة ثبوتية لله ثبتت بالكتاب والسنة وإجماع أهل السنة، وهي كما قدمنا صفة فعلية، نثبتها على التقعيد العام: ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، فالنزول في اللغة معلوم، والكيف مجهول، فلا يعلمه إلا الله، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة.

أما أدلة ثبوتها، فمن الكتاب: في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ٢١٠﴾ [البقرة: 210]،

فهذه تدل على نزول الله ولكن من باب الاستنباط، فالحساب سيكون على أرض غير الأرض، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمُوتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ٤٨﴾ [إبراهيم: 48]، فيأتي الله جل في علاه ليفصل بين العباد.

والدليل الصريح في النزول هو حديث الصحيحين عن أبي هريرة - ع - عن النبي ﷺ

ﷺ أنه قال: «يُنْزَلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ، يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي، فَأَسْتَجِيبُ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيهِ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟»⁽²⁾، وفي رواية «ينزل ربنا ثلث الليل الآخر»، وفي رواية: «ثلث الليل الأول» وفي رواية: «إلى الفجر»، الغرض المقصود أَنَّهُ صرح فقال: (ينزل ربنا)، والصفة

(1) صحيح مسلم (593)، أخرجه البخاري (1477).

(2) أخرجه البخاري (1145)، ومسلم (758).

مضافة إلى الله إضافة معنى.

والنزول أنواع: نزول عام، ونزول خاص.

فالنزول العام هو: نزول الله كل ليلة، وهذا نزول يُعْمُ أهل الإيمان والطاعات، وأهل الكفر والعصيان والفسق والفجور، فهو عام لكل الخليقة.

أما النزول الخاص:

١- نزول خاص بالحجيج، جاء في الحديث عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ يُبَاهِي بِأَهْلِ

عرفات ملائكة السماء، فيقول: انظروا إلى عبادي هؤلاء، جاءوني شُعْنًا غَيْرًا»، وقال: «مَا مِنْ يَوْمٍ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يُعْتَقَ اللَّهُ فِيهِ عَبْدًا مِنَ النَّارِ، مِنْ يَوْمِ عَرَفَةَ، وَإِنَّهُ لَيَذْنُو، ثُمَّ يُبَاهِي بِهِمُ الْمَلَائِكَةَ، فيقول: مَا أَرَادَ هَؤُلَاءِ؟»⁽¹⁾، فالحاصل: أَنَّ اللَّهَ يَنْزِلُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيُبَاهِي الْمَلَائِكَةَ بِأَهْلِ الْمَوْقِفِ.

٢- ومنها، نزول خاص من وجه، عام من وجه، وهو في ليلة النصف من شعبان، ووجه خصوصه أَنَّهُ في ليلة النصف من شعبان، ووجه عمومه أَنَّهُ يعم المسلمين جميعاً إلا ما استثنى منهم، وهم: المشرك، والمشاحن، فالله ينزل إلى السماء الدنيا ليلة النصف من شعبان، فيغفر لكل أحد، إلا الكافر والمشاحن، أي: الذي يحمل في قلبه الضغائن. وهذا فيه دلالة على أَنَّ المرء الذي في قلبه حقد على أخيه مبعوض عند الله، ومطرود من رحمة الله، وقد صح عن نبينا ﷺ أَنَّ الأعمال ترفع يوم الإثنين والخميس، فيغفر لكل عبد لا يشرك بالله شيئاً، إِلَّا رجلاً كان بينه وبين أخيه شحناء، فهذان يُنظران حتى يصطلحا، فلا تقبل صحائفهما وإن كان فيها من الأعمال الصالحة ما فيها، ما دام في قلبه شيء من الدغل على أخيه، فنقاء القلب يرفع صاحبه، ودغل القلب يخفضه، وكفانا قول الله تعالى: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوْبِينِ غَفُورًا ۝٢٥﴾ [الإسراء: 25]، وقول النبي ﷺ: «...أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ، صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ، فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ...»⁽²⁾.

فإن قيل: كيف نجمع بين ما جاء من روايات ظاهرها التعارض في وقت النزول، فقد جاء في حديث «ينزل ربنا ثلث الليل الأول»، وجاء عن أبي هريرة - ؓ - في رواية أخرى: «ينزل ثلث الليل الآخر»، وجاءت الآيات والأحاديث تثبت شهود قراءة الفجر، قال تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ۝٧٨﴾ [الإسراء: 78]، وجاء في رواية أبي سعيد الخدري - ؓ - أنه قال: «يمهل الله ، حتى إذا ذهب ثلث الليل نزل إلى السماء الدنيا»، وفي رواية أخرى قال: «لولا أن أشق على أمتي لأخرت العشاء الآخرة إلى ثلث الليل الأول، فإذا مضى ثلث الليل الأول هبط -يعني الله جل وعلا- إلى السماء الدنيا، فلم يزل بها حتى يطلع الفجر يقول: ألا سائل فأعطي»، ففي هذا دلالة على أَنَّ اللَّهَ يَنْزِلُ بَعْدَ ثَلَاثِ اللَّيْلِ الْأَوَّلِ، وجاء في حديث أبي الدرداء - ؓ - تحديد النزول في آخر ثلاث ساعات تبقى، قال رسول الله

(1) مسلم (1348).

(2) صحيح مسلم (1599)، أخرجه البخاري (52).

§: «ينزل الله في آخر ثلاث ساعات يبقين من الليل، ينظر في الساعة الأولى منهم الكتاب الذي لا ينظر فيه غيره» إلى آخر الحديث، فكيف نجمع بين هذه الروايات؟! **الجواب:** طرق الجمع بين هذه الروايات التي تبدو كأنها مختلفة متعارضة أن نقول: أن في رواية جاء أن وقت نزول الله حين يبقى الثلث الأخير، ونحن لا نعرف الثلث الأخير هل هو حين تبقى ثلاث ساعات أو أربع ساعات أو ساعتان؟ فجاء حديث أبي الدرداء وجعله ثلاث ساعات، فهذا ضابط لهذا، ويبقى قول النبي § في الحديث الآخر: «حتى إذا ذهب ثلث الليل الأول نزل إلى السماء الدنيا» ولم يبين هل ينزل بعد ثلث الليل الأول بدقة، أو بعده بساعة، أو ساعتين أو ثلاث، أو حين يبقى الثلث الأخير؟ فهذه مطلقة ومجملة، والروايات الأخرى بيّنت الوقت وهو: حين يبقى ثلاث ساعات. إذاً فأرجح الأقوال: أن الله ينزل حين يبقى الثلث الآخر، أي: قبل الفجر بثلاث ساعات.

وأما الذين قسموه إلى أول وأوسط فهو تقسيم ليس بجيد؛ لأنه يمكن الجمع بين الروايات، ولأن هذه الروايات كلها مطلقة قيدت بحديث: (ينزل حين يبقى ثلث الليل الآخر).

فإن قيل: هل يلزم من نزول الله خلو العرش منه؟!

الجواب: لا يستلزم من نزول الله إلى السماء الدنيا خلو العرش منه، ولا يستلزم أيضاً أن تقله السماوات، أو تظله، فكل المخلوقات أحوج ما تكون لربها، فهو الذي يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه. أما إذا نزل فهل يخلو منه العرش، أو لا يخلو منه؟

المسألة على ثلاثة أقوال عند أهل السنة: قيل: ينزل ويخلو منه العرش، وقيل: ينزل ولا يخلو منه العرش، وقيل: بالتوقف، والصحيح الراجح: التوقف، وإن كان القول بأنه ينزل ولا يخلو منه العرش قويا جداً؛ لأنه جمع بين الآيات والأحاديث، فأثبت استوائه على العرش لقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ۝﴾ [طه:5]، وأثبت نزوله لقوله §: «ينزل ربنا إلى السماء الدنيا»، فأعمل الدليلين، إلا أن الأسلم التوقف، والله أعلم.

وإذا اعتقد المرء بنزول ربه فعليه أن يتلمس هذه الأوقات الفاضلة؛ لأنها أوقات استجابة الدعاء، فمن كان له حاجة عند ربه فليبتذل له في هذه الأوقات اللطيفة العظيمة المقدسة، ويدعو وهو موقن بالإجابة، فقد ثبت أنه يقول: «هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من تائب فأتوب عليه؟ هل من سائل فأعطيه؟»⁽¹⁾، وفي رواية في مسند أحمد قال: «ألا سقيمٌ يَسْتَشْفِي فَيُشْفَى؟»، فالمرضى والمحتاج والذي يريد الرفعة عليهم جميعاً بوقت السحر، فالله ينزل نزولاً يليق بجلاله، ويستجيب الدعاء.

والعبد يتلمس وقت نزول الله فيكون قائماً لله أو ذاكراً تالياً للقرآن، خاضعاً راجياً متذللاً متضرعاً، والله حيي كريم يستحيي أن يرفع العبد يده إليه فيردهما خائبتين.

(1) سبق تخريجه.

موقف أهل البدع من صفة النزول والرد عليهم

كما هي عادتهم في باب الصفات إما التعطيل وإما التأويل، ولا ندري كيف لحلاوة الإيمان وبشاشته أن تدخل إلى هذه القلوب التي عطلت صفات ربها وأولتها، قالوا: معنى: (ينزل ربنا) أي: ينزل أمر ربنا، وتنزل رحمة ربنا، واستدلوا على تأويلهم بأدلة، منها:

أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ مِائَةَ رَحْمَةٍ، فَأَنْزَلَ وَاحِدَةً مِنْ هَذِهِ الرَّحِمَاتِ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ١﴾ [النحل:1].

الرد عليهم:

أولاً: خالفتم ظاهر الكتاب والسنة، وخالفتم إجماع الصحابة، وكفى بهذه المخالفات تضییع لكم، والدين هو ما جاء به الرسول وجاء به الصحابة رضوان الله عليهم. ثانياً: اتهمتم رسول الله بالتقصير في البيان، والله قد أمره بالتبيين، فلو كان النزول نزول الرحمة أو نزول الأمر، ولم يبينه النبي ﷺ فهذا يعني أنه قصر في البلاغ والنصح للأمة وهو أنصح الأمة للأمة .

ثالثاً: تأويل النزول بنزول الرحمة هذا لازم للصفة، ونحن نثبت النزول ونثبت لازمه؛ فلازم نزول الله أنه سيرحم، كما في الحديث قال: «هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من سائل فأعطيه؟ هل من مستشف فأشفيه؟». رابعاً: إن تنزلنا معكم وقلنا بقولكم، فهل رحمة الله ستقول: «هل من سائل فأعطيه؟ هل من سائل فأعطيه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟!!»

فالمتمفق عليه أن الذي يعفو ويمنح ويعطي ويشفي ويمرض هو الله، وليس ذلك للرحمة ولا لأمره ولا لأحد من ملائكته، قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرَضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ٨٠﴾ [الشعراء:80]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ١٧﴾ [الأنعام:17].

خامساً: ورد في رواية مسلم عن أبي هريرة: «ينزل الله إلى السماء الدنيا كل ليلة حين يمضي ثلث الليل الأول، فيقول: أنا الملك، أنا الملك...»، فهل أحد من خلق الله يتجرأ فيقول هذا؟!

صفة العجب والضحك لله:

قال المصنف: [وقوله: «يعجب ربك من الشاب ليست له صبوة» وقوله: «يضحك الله إلى رجلين قتل أحدهما الآخر ثم يدخلان الجنة» فهذا وما أشبهه مما صح سنده وعدلت روايته، نؤمن به، ولا نرده ولا نجده ولا نتأوله بتأويل يخالف ظاهره، ولا نشبهه بصفات المخلوقين، ولا بسمات المحدثين، ونعلم أن الله لا شبيه له ولا نظير

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ١١﴾ [الشورى: ١١] وكل ما تخيل في الذهن أو خطر بالبال فإن الله تعالى بخلافه].

صفة العجب والضحك لله من الصفات الثابتة لله، وهما من الصفات الفعلية، وقد أثبتها أهل السنة بلا تحريف ولا تعطيل، ولا تكييف ولا تمثيل، ولم يثبتها أهل البدع فحرفوها، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، وقد رد عليهم علماء أهل السنة وبيّنوا بطلان ما ذهبوا إليه.

فأما الأدلة من الكتاب على ثبوت صفة العجب لله: قال تعالى: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ١٢﴾ [الصافات: 12]، وهذه قراءة متواترة، والقراءة الأخرى ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ١٢﴾ [الصافات: 12]، فعلى الأولى يكون الله الذي عجب.

استدل المصنف على إثبات هذه الصفة بقوله §: «يعجب ربك من الشاب ليست له صبوة»، والحق أنّ هذا حديث ضعيف، لكن الصفة ثبتت في حديث البخاري من حديث الضيف الذي جاء النبي § «فقال: إني مجهود فأرسل إلى بعض نسائه فقالت: والذي بعثك بالحق نبياً ما عندي إلا ماء ثم أرسل إلى أخرى فقالت مثلاً ذلك حتى قلن كلهن مثلاً ذلك فقال: (مَنْ يُضَيِّفُ هَذَا اللَّيْلَةَ -)، فقام رجلٌ من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله فانطلق به إلى رَحْله فقال لامرأته: هل عندك شيء؟ قالت: لا إلا قوت صبياني قال: فعَلَّيْهم بشيءٍ فإذا دَخَلَ ضَيْفُنَا فَأُضِيئِي السِّرَاجَ وأريه أنا نأكل فإذا أهوى لِيَأْكُلَ قومي إلى السِّرَاجِ حَتَّى تُطْفِئِيه قال: فَفَعَدُوا وأَكَلَ الضَّيْفُ فَلَمَّا أَصْبَحَ غدا على النَّبِيِّ § فقال: (لقد عجب الله من صنيعكما اللَّيْلَةَ»⁽¹⁾.

والعجب نوعان: عجب للذهول عن السبب، أي: أنّ الإنسان يعجب من أمر لا يعرف أسبابه، وهذا العجب ناشئ عن جهل، وهذا يستحيل على الله؛ لأنّ الله يعلم كل شيء، يعلم ما كان، وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف سيكون. أمّا النوع الثاني من العجب: فعجب ينشأ عن تمام علم، لخروج الشيء عن نظيره، كأن يعيش رجل في أرض كل أهلها ليس عندهم همة، وهو ليل نهار، صباح مساء، يذاكر أو يطلب العلم أو يجتهد في العبادة أو يتصدق، فهذا يعجب الله منه؛ لأنّه خرج عن نظرائه.

صفة الضحك لله تعالى

الضحك صفة من صفات الله، وهي من الصفات الثبوتية الفعلية التي ثبتت لله بالكتاب، والسنة، وإجماع أهل السنة. قال تعالى: ﴿يَوْمَآءَ أَتَيْنَكُمُ الرُّسُولَ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَكُمُ عَنْهُ فَأَنْتَهُوْا وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ

(1) صحيح البخاري (3798).

شَدِيدُ الْعِقَابِ ٧ ﴿ [الحشر: 7].

أما من السنة: فقد جاءت هذه الصفة تصريحاً من النبي ﷺ حيث وصف ربه بالضحك، ففي الصحيحين عن أبي هريرة -«- عن النبي ﷺ أنه قال: «يُضْحَكُ اللَّهُ لِرَجُلَيْنِ يَقْتُلُ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ كِلَاهُمَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ، قالوا: كيف يا رسول الله؟ قال: يُقْتَلُ هَذَا فَيُلْجُ الْجَنَّةَ، ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَى الْآخَرِ، فَيَهْدِيهِ إِلَى الْإِسْلَامِ، ثُمَّ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَيُسْتَشْهِدُ»⁽¹⁾.

فهذا صريح في الدلالة على أَنَّ الله يضحك؛ لأنَّه أضاف الفعل لله، فالله يضحك، ولكن ليس كضحك المخلوق.

والضحك في اللغة معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عن الكيفية بدعة، وهذا هو الإيمان الصحيح الذي آمن به صحابة رسول الله ﷺ.

وإذا ضحك الله لعبده من عباده فقد أراد له الخير؛ فأنت إن رأيت عبداً من عباد الله يضحك لك إذا كلمته، أو إذا طلبت منه شيئاً ضحك لك؛ استبشرت خيراً أَنَّ مطلوبك سيتحقق، فما بالكم بالله؟!!

وللفائدة نقول: القياس ثلاثة أنواع: قياس علة، وقياس شبه، وقياس جلي، وكلُّ هذه القياسات باطلة بين الله والمخلوق إلا الجلي (الألوي)، فكل كمال يوصف به العبد فالله أولى أن يتصف به.

الغرض المقصود: إذا ضحك لي شخص فسأستبشر خيراً من ضحكه، فمن باب أولى أن نستبشر بضحك الله، نستبشر أنَّه سيثيب ويدخل الجنة، وقد روي في الحديث - وإن كان ضعيفاً -: «أَنَّ ابْنَ عَفْرَاءَ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ مَا يَضْحَكُ الرَّبُّ مِنْ عَبْدِهِ؟ قَالَ: غَمَسَ يَدَهُ فِي الْعَدُوِّ حَاسِراً، فَزَرَ دِرْعَا كَانَتْ عَلَيْهِ فَقَذَفَهَا ثُمَّ أَخَذَ سَيْفَهُ فَقَاتَلَ حَتَّى قَتَلَ»⁽²⁾.

فالحاصل أَنَّ المرء إذا اعتقد أَنَّ ربه يضحك فسيأخذ بأسباب ضحك الله، وأسباب ضحك الله هي الطاعة، والجهاد في سبيل الله بالتقدم نحو أعداء الله بشجاعة وبسالة دون تراخ وتقايس، والخروج عن النظائر.

تَأْوِيلُ أَهْلِ الْبِدْعِ لَصِفَةِ ضَحْكِ اللَّهِ تَعَالَى وَالرَّدُّ عَلَيْهِمْ

لا يعتقد أهل البدع بصفة الضحك، فالمعطلة عطلوها، أما الأشاعرة أولوا هذه الصفة، وقالوا: إذا قلنا أَنَّ الله يضحك فقد شبهنا الخالق بالمخلوق، والله يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ١١﴾ [الشورى: 11]، فنقول: لا يضحك، بل الضحك هنا بمعنى: الثواب، أو بمعنى: إرادة الثواب.

الرَّدُّ عَلَيْهِمْ:

أولاً: خالفتم ظاهر الكتاب، والسنة، وخالفتم إجماع الصحابة، حيث أنكّم أثبتتم لازم

(1) البخاري (2826)، ومسلم (1890).

(2) الحديث ضعفه الشيخ الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة.

الصفة، ولم تثبتوا الصفة، ونحن نثبت اللازم مع إثباتنا للصفة.
ثانيًا: اتهمتم النبي ﷺ بعدم التبليغ.

ثالثًا: أنتم أثبتتم صفة الحياة لله وللعبد حياة، فهل عندكم حياة الله كحياة العبد؟! المسلم به أنه لا تشابه، بل حياة الله حياة تليق بجلاله وكماله وحياة المخلوق على عجزه ونقصه فما الفارق بين الصفتين؟! الحق أنه لا فارق، فالقول في بعض الصفات كالقول في البعض الآخر، فكما قلتم في صفة الحياة قولوا كذلك في صفة الضحك، فالحق يضحك لا كضحك البشر، كما أن الله حياة لا كحياة البشر.

صفة الاستواء على العرش

قال المصنف: [ومن ذلك قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ۝﴾] طه: ٥، وقوله تعالى: ﴿عَٰمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ﴾ [المك: ١٦] وقول النبي ﷺ: «ربنا الله الذي في السماء تقدس اسمك»، «وقال للجارية: أين الله؟ قالت: في السماء. قال: أعتقها فإنها مؤمنة» رواه مسلم، ومالك بن أنس، وغيرهما من الأئمة. وقال النبي ﷺ لحصين: «كم إليها تعبد؟ قال سبعة، ستة في الأرض وواحد في السماء. قال من لرغبتك ورهبتك؟ قال الذي في السماء، قال فاترك الستة واعبد الذي في السماء، وأنا أعلمك دعوتين، فأسلم، وعلمه النبي ﷺ أن يقول: " اللهم ألهمني رشدي، وقتني شر نفسي»، وفيما نقل من علامات النبي ﷺ وأصحابه في الكتب المتقدمة: أنهم يسجدون بالأرض ويزعمون أن إلههم في السماء. وروى أبو داود في سننه أن النبي ﷺ قال: «إن ما بين سماء إلى سماء مسيرة كذا وكذا. . .». وذكر الخبر إلى قوله: «وفوق ذلك العرش، والله سبحانه فوق ذلك» فهذا وما أشبهه مما أجمع السلف + على نقله وقبوله، ولم يتعرضوا لرده ولا تأويله، ولا تشبيهه ولا تمثيله، سنل الإمام مالك بن أنس - فقيلاً: يا أبا عبد الله ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ۝﴾ [طه: ٥] كيف استوى؟ فقال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة. ثم أمر بالرجل فأخرج].

العلو علوان: علو مطلق، وعلو مقيد، فالعلو المقيد هو الاستواء على العرش، أما العلو المطلق فيشمل علو القهر والشأن والذات، وكلاهما جاء بهما الدليل.
والاستواء ثبت لله في الكتاب والسنة والإجماع، وهي صفة ثبوتية فعلية، وأما العلو المطلق فهي صفة ذاتية، مشتقة من اسم الله العلي، وقد أول المبتدعة صفة العلو لله - على تفصيل -، والرد عليهم ظاهر من الكتاب والسنة - كما سنبين إن شاء الله -
معنى الاستواء: العلو والاستقرار، فعندما نقول: الله استوى على العرش، يعني:

علا وارفع واستقر⁽¹⁾، قال: ﴿وَقِيلَ يَا رَاضُ أَبْلَعِي مَاءَكَ وَيَسْمَاءُ أَقْلَعِي وَغِيصَ أَلْمَاءُ وَفُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْثَا لِقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۝٤٤﴾ [هود:44]، أي: استقرت، فالاستواء في اللغة معناه: العلو والاستقرار.

أدلة ثبوت هذه الصفة، من الكتاب: قال الله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ۝٥﴾ [طه:5]، وقال جل في علاه: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٤﴾ [الحديد:4] والآيات في ذلك كثيرة.

وأما من السنة: فمن الحديث الذي في الصحيحين: «أن الله كتب كتاباً هو عنده فوق العرش»⁽²⁾ فأنبت العرش، وقول ابن مسعود الذي له حكم الرفع: «مَا بَيْنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ، ثُمَّ مَا بَيْنَ كُلِّ سَمَاءَيْنِ مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ، وَغِلْظُ كُلِّ سَمَاءٍ مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ، ثُمَّ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَبَيْنَ الْكُرْسِيِّ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ، وَمَا بَيْنَ الْكُرْسِيِّ وَبَيْنَ الْمَاءِ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ، وَالْكُرْسِيُّ فَوْقَ الْمَاءِ، وَاللَّهُ تَعَالَى فَوْقَ الْعَرْشِ، وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْءٌ»⁽³⁾ وهذا الأمر لا يدخله الاجتهاد، فلا بد أن يكون ابن مسعود قد سمعه من النبي ﷺ سيما وأنه لا يأخذ من الاسرائيليات.

أما الإجماع: فقد أجمع أهل السنة والجماعة على أن الله خلق العرش واستوى عليه، فازداد العرش تشريفاً وتعظيماً، والعرش أحوج ما يكون لله، فلا يضل امرؤ في هذه المسألة فيقول كما تقول المبتدعة: إذا كان الله استوى على العرش فهو محتاج إليه! بل نقول: الله استوى على العرش، والعرش مفقر محتاج إليه، وهي صفة من صفاته التي تدل على كماله.

وإذا علم العبد أن ربه استوى على العرش، ويعلم كل صغيرة وكبيرة، وكل دقيق وجليل، خشي ربه وسارع بالخيرات، وإذا خلا يوماً من الدهر لم يقل: خلوت، لكن قال: علي رقيب؛ لأنه يعلم أن الله فوق العرش مطلع عليه. وإذا علم أن الله فوق عرشه يدبر أمر خلقه؛ مال قلبه لربه، فاطمأن لتدبيره.

تأويل أهل البدع لصفة استواء الله على العرش والرد عليهم

خالفت المبتدعة في هذه الصفة الجليلية، العظيمة، فقالوا الاستواء في قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ۝٥﴾ [طه:5]، ليس على حقيقته؛ لأنه لو استوى عليه لاحتاج إليه، وكل شيء مفقر إلى الله، وقالوا: ولو استوى حقيقة نكون قد شبهنا الخالق بال مخلوق.

(1) (لا يقال: جلس، كما جاء في بعض الآثار الموضوعية التي لا تصح).

(2) سبق تخريجه.

(3) قال الذهبي: رواه عبد الله بن الإمام أحمد وابن المنذر والطبراني والبيهقي وابن عبد البر واللالكائي في تواليفهم وإسناده صحيح.

ثم بعد أن قدموا هذه المقدمة، بنوا عليها النتيجة، فأولوا الصفة عن معناها الحقيقي، وقالوا: استوى أي: استولى، وقالوا هذا من اللغة، قال الأخطل:
استوى بشر على العراق من غير سيف ولا دم مهراق

أي: ما أهرق دم في أخذه للعراق، فقالوا: استوى يعني: استولى، واللغة هي لغة العرب، والقرآن نزل بها.
الرد عليهم:

أولاً: المقدمة التي قدمتموها باطلة، فمن قال أن الله محتاج للعرش أو لغيره؟! بل الله من أسمائه الصمد، أي: يصمد إليه كل الخلائق -ومنها العرش- في حوائجهم.
ثانياً: بتأويلكم الاستواء بالاستيلاء خالفتم ظاهر الكتاب؛ فالله قال: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ۝﴾ [طه:5]، وأنتم قلتم: استولى، أنتم أعلم أم الله؟ وأيضاً، خالفتم ظاهر السنة، وخالفتم فهم الصحابي، قال ابن مسعود: «والله فوق العرش ويعلم ما نحن عليه»، وهل أنتم أعلم بالله من رسول الله ﷺ؟! وأيضاً خالفتم إجماع أهل السنة والجماعة.

ثالثاً: لزم من تأويلكم لوازم باطلة، فلو قلنا استوى بمعنى: استولى، فهل الله استولى على العرش ممن غلبه عليه؟! هل كان العرش لغيره ثم استولى عليه؟! هذا من أكفر الكفر، فالله مالك ورب كل شيء، فقولكم فيه قبح في الربوبية، ووصف الله بالضعف. ومن اللوازم الباطلة: أن الله يحدث عباده بما لا يفقهون، يقول: استوى، وأنتم تقولون: لا، استولى، فهل ظاهر القرآن كفر؟! حاشا لله من ذلك! يقول الله عن القرآن: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ۝﴾ [الشعراء:195]، فإذا يخاطبنا بما نعلمه ونفقهه.

رابعا: أما قولكم: عندنا من اللغة ما يثبت أن استوى بمعنى: استولى، واستدلتم ببيت شعري، فالرد عليه من وجوه:

الأول: القاعدة عند العلماء: المعنى إذا تردد بين أن يكون شرعياً أو أن يكون لغوياً قدمنا الشرع على اللغة، الدلالة على ذلك قول الله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ۝﴾ [البقرة:43]، فالصلاة في اللغة معناها: الدعاء، ومعناها الشرعي: أفعال وأقوال مخصوصة في أوقات مخصوصة تحريمها التكبير وتحليلها التسليم، فأَي المعنيين نقدم في فهم الآية؟!

نقول: المعنى الشرعي مقدم على اللغوي، فمعنى: ﴿أَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: الصلوات الخمس التي بينها رسول الله ﷺ على التوصيف الشرعي الذي أمر به.

وهنا تردد الأمر في معنى الاستواء بين الاستواء الذي بمعنى العلو والاستقرار وبين الاستيلاء فنقدم العلو والاستقرار.

الثاني: هذا البيت ليس بيتاً عربياً، وليس هذا الكلام من كلام أهل اللغة أصالة، بل هو بيت لشاعر نصراني، شعره ليس حجة في اللغة.

الثالث: عند علماء اللغة قاعدة لغوية تقول: الأصل بقاء اللفظ على ظاهره ما لم تأت قرينة تصرفه من الظاهر إلى المؤول، بمعنى: إذا قال النبي ﷺ مثلاً: صَلِّ فَأَنْتَ ستقول: أصلي أي: أقوم فأصلي ركعتين على التوصيف الشرعي، أما إذا جاءت من

السياق قرينة صارفة فستصرفها للمعنى اللغوي، كقوله: ﴿وَصَلَّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٠٣﴾ [التوبة: 103]، فمعنى صل هنا أي: ادع لهم.

وقوله: استوى بشر على العراق، الأصل أن معنى استوى: علا واستقر، إلا أن سياق البيت صرفها لمعنى استولى، فقوله: [من غير سيف] مفسر لقوله: استوى، بمعنى: استولى من غير أن يُعمل فيهم القتل، فأصبحت القرينة في نفس البيت أن استوى بمعنى: استولى، فأين هذه القرينة الصارفة في قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ٥﴾ [طه: 5]؟! ليس ثمة قرينة، فإن لم يكن هناك قرينة فلا بد أن يبقى اللفظ على ظاهره، وهو علا واستقر.

إثبات صفة العلو

سبق أن قلنا أن العلو علوان: علو مطلق، وعلو مقيد، والعلو المقيد: هو الاستواء على العرش وقد مضى ذكره

وأما العلو المطلق: فهي صفة ذاتية أزلية لا تنفك عن الله، وتشمل علو الذات والشأن والقهر، فالله عليٌّ بذاته بائن من خلقه، وعلو الشأن أي: علو العظمة والبهاء والكمال والقوة.

وعلو القهر أي: أنه القاهر فوق عباده، فكل الخلق مقهورون مربوبون لله، قال الله تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ٩٣ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ٩٤﴾ [مريم: 93 - 94]، فهذا خضوع العباد لربوبية الله يوم القيامة، وكل العباد لا يستطيعون رد قضاء الله وقدره، فلو أمرض الكافر أو أراد موته نفذ أمره فيه ولا رادَّ له، وهذا من باب علو القهر على عباده جل في علاه.

لم ينازع أحد من المبتدعة في علو الشأن والقهر، لكن الخلاف حدث في علو ذاته، والأدلة على أن الله عليٌّ بذاته كثيرة، أصرحها الاشتقاق من اسم الله العلي، قال تعالى: ﴿وَلَا يَتُودُّهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقوله: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [الشورى: ٤].

ومن الأدلة الأخرى في إثبات صفة العلو:

١- التصريح بالفوقية، قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ أَلْقَاهُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: 18].

٢- التصريح بالعندية، قال رسول الله ﷺ: «كتب كتاباً فهو عنده فوق العرش» (1).

٣- والنزول يدل على العلو، قال النبي ﷺ: «ينزل ربنا ثلث الليل الآخر» (2) فالنزول

(1) سبق تخريجه.

(2) سبق تخريجه.

(3) البخاري (555)، ومسلم (632).

(4) صحيح مسلم (1218)

لا يكون إلا من علو.

٤- والعروج والصعود يدلان على العلو؛ لأن الصعود لا يكون إلا إلى أعلى، قال الله تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج:4]، وفي الآية ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة:5]، وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةُ اللَّيْلِ وَمَلَائِكَةُ النَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ وَصَلَاةِ الْعَصْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ، فَيَسْأَلُهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ».

٥- الإشارة إلى أعلى؛ لأن النبي ﷺ عندما خطب فيهم خطبة الوداع قالوا: «نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ، فَقَالَ بِإِصْبَعِهِ السَّيَّابِيَّةَ، يَرْفَعُهَا إِلَى السَّمَاءِ وَيَنْكُثُهَا إِلَى النَّاسِ: اللَّهُمَّ اشْهَدْ، اللَّهُمَّ اشْهَدْ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ» أي يقول: اللهم إنك أنت في السماء فاشهد، على من يقول في الأرض هذا الكلام، فيشير بإصبعه ويقول: اللهم فاشهد، اللهم فاشهد، وينكسها عليهم.

٦- التصريح بأنه في السماء، قال تعالى: ﴿ءَأْمَنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ [الملك:16]، وقوله تعالى: ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ [الملك:17] فقوله تعالى: ﴿ءَأْمَنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ﴾ [الملك:16]، فيه دلالة واضحة على أن الله في السماء.

فإذا سأل سائل: هل حرف في يعني الظرفية بمعنى أن السماء تظله وتقله؟
الجواب: لا، وحاشا لله! فالله أحاط بكل شيء، ولا يحيطه شيء، ومعنى: في السماء، أي: على السماء، ففي اللغة قد يأتي حرف بمعنى حرف غيره، فحرف في قد يكون بمعنى على وهذا واقع في القرآن، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رَّرْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك:15]، ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾ يعني: امشوا على مناكبها، فليس هناك أحد حفر في الأرض ومشى فيها.
وفي قول فرعون: ﴿قَالَ ءَأْمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَادَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأَقْطِعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خَلْفٍ وَلَأَصْلَبَنَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّحْلِ وَلَتَعْلَمَنَّ أَيْنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ [طه:71]، ولم يرد في التاريخ أنه أخذ المنشار ثم أدخلهم داخل النخل، هو صلبهم على النخل.

فقوله تعالى: ﴿ءَأْمَنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ [الملك:16]، في السماء أي: على السماء.

وأيضاً، حديث معاوية بن الحكم السلمي في صحيح مسلم، قال: «...قَالَ: وَكَانَتْ لِي جَارِيَةٌ تَرْعَى غَنَمًا لِي قَبْلَ أُحُدٍ وَالْجَوَانِيَّةِ، فَاطْلَعَتْ ذَاتَ يَوْمٍ فَإِذَا الدِّيبُ قَدْ ذَهَبَ بِشَاةٍ مِنْ غَنَمِهَا، وَأَنَا رَجُلٌ مِنْ بَنِي آدَمَ، أَسَفُ كَمَا يَأْسِفُونَ، لِكَيْتِي صَكَّكْتُهَا صَكَّةً، فَأَتَيْتُ

رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَعَظَّمَ ذَلِكَ عَلَيَّ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا أُعْتَفُهَا؟ قَالَ: انْتَبِي بِهَا فَأَتَيْتُهُ بِهَا، فَقَالَ لَهَا: أَيْنَ اللَّهُ؟ قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ، قَالَ: مَنْ أَنَا؟ قَالَتْ: أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، قَالَ: أُعْتَفُهَا، فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ»⁽¹⁾.

وجه الدلالة من الحديث: أنه علق حكم العتق على إيمانها، وحكم عليها بالإيمان بجوابها، قالت: في السماء، وفي الحديث وجه ثان من الدلالة وهو: جواز السؤال بالآين عن الله، فالسائل هو رسول الله ﷺ، والحديث ناصع البياض في الصحة، وهذا قاصم ظهر كل من نفى عن الله العلو بحجج عقلية باهتة.

٧- دلالة الفطرة تشهد على ذلك، فكثير من النساء تأخذ طفلها فتسأله له: أين ربك؟ فيقول بفطرته: ربي في السماء، ولا تعلمه أن في السماء معناها: على السماء؛ لأن ذلك معتاد مفطور عليه، فهي لا تفصل له وتقول له: لا، بل قل: ربي فوق العرش أو فوق السماء، أو ربي على العرش أو على السماء! هو بفطرته يعلم أن قوله في السماء تعني ذلك.

٨- ومن الحس فكل مخلوق مفطور على أن يتجه عند السؤال نحو العلو.

ثمرات التعبد بصفة العلو:

أولاً: الاستسلام والخضوع لله فيعتقد في ربه ما أثبتته لنفسه، والعبد متى علم أن ربه متصف بكل علو، وأن له علو العظمة، والبهاء، والقدرة، والعزة، والجبروت، فلن يخشى أحداً في الله، ولن يخشى في الله لومة لائم، فمهما اجتمع عليه من اجتمع فلن يضره شيء إلا بشيء قد كتبه الله عليه.

ثانياً: اعتقاده بعلو الله على عرشه سيعلي همته، فالله يحب معالي الأمور، ويكره سفاسفها، ومعلوم أن معالي الأمور ترفع صاحبها عند الله، فيدعو الله بالفردوس الأعلى، وأن يكون مع النبيين والصديقين، وأن يرزقه الفهم والعلم ويكون من أعلم أهل زمانه، الغرض المقصود: أنك إذا تعبدت لله بمقتضى صفة العلو فلن ترضى بالدون، وسترتقي همتك فوق السحاب، وسبحان من لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

تأويل أهل البدع لصفة العلو لله - والرد عليه

عطلت أهل البدعة والضلالة هذه الصفة العظيمة الجليلة وقالوا: لا يتصف الله بالعلو، قلنا: لم تنكرون علينا ذلك وقد قال: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ۝﴾ [طه:5]؟

قالوا: عندنا من الكتاب ما يدل على أن العلو هنا ليس مقصوداً، قلنا: ما هو؟ قالوا: قال الله تعالى: ﴿لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ يُحِيطُ بِهِمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٧﴾ [المجادلة:7]، قال: ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة:7]، فهذه دلالة على أنه معنا

(1) صحيح مسلم (537).

في كل مكان.
وقالوا: قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمُوتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ۝٣﴾ [الأنعام:3]، وقال تعالى في آية أخرى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ۝٨٤﴾ [الزخرف:84]، فهذه دلالة على أن الله في كل مكان، وأنه في البيت معك، وفي البحر معك، وفي السماء معك، وفي الأرض معك.

الرد على هذه الشبهة:

أولاً: القاعدة عند العلماء تقول: السياق والسباق واللاحق من المفسرات والمقيدات، ففي السباق قال: ﴿يَعْلَمُ﴾، وفي اللاحق: ختمها بقوله: ﴿أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٢٣١﴾، فالله ختمها بالعلم، وابتدأها بالعلم؛ فالسياق هنا ذكر أنه يعلم أولاً وأخراً، إذاً: هو معكم بهذا الذي ابتدأه وختم به، أي: بعلمه، فالتقدير: ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ أي: بعلمه أينما كنتم، والذي يعضد ذلك قول الله تعالى بالجزم ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ۝٥﴾ [طه:5]، وقول النبي ﷺ: «ربنا الذي في السماء تقدست أسماءك»، فالنبي ﷺ يقر ويعضد ذلك ويثبت جزءاً دون تأويل أن الله في السماء.

ثم إن لغة العرب تحتل ذلك، أقول: سرت مع القمر، فهل رأيتم أحداً يسير بين الناس والقمر في يده؟ الجواب: لا، إنما أسير ومعى القمر، والقمر في السماء؛ والمعية معيتان: معية خلطة، ومعية مصاحبة، ومعية الخلطة منفية عن الله، ولا يقول بها إلا أهل الاتحاد والحلول، أما المعية الثانية: معية مصاحبة، كأن تقول: سرت والنيل، أي: سرت مع النيل، فهل النيل مشى مع الرجل؟ لا، فسرت والقمر، فالقمر لن ينزل من السماء، ولا يمشي مع الرجل، بل التقدير: سرت مع القمر، أي: كنت في الأرض وهو في السماء معي أينما أمشي فأنظر فوقى أجده.

فإنه فوق عرشه ويرى ما عليه عباده، وهو معهم بعلمه وسمعه وبصره، والذي يقرب لك الفهم أن تعلم أن الكون كله في يد الله كحبة خردل في يد أحدنا.

ثانياً: اسم الله يتضمن صفة الإلهية، فقوله: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمُوتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ۝٣﴾ [الأنعام:3]، أي: هو المألوه في السماوات، والمألوه في الأرض، والمألوه يعني: المعبود الذي تأله القلوب، أي: تحبه القلوب وتعظمه، وهذا التفسير الأول لهذه الآية.

ومن الممكن أن تفسر بالربوبية، فقوله: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمُوتِ﴾، أي: أمره في السماوات، ﴿وَفِي الْأَرْضِ﴾، أي: أمره في الأرض، والأوامر هذه من لوازم الرب: فهو السيد الأمر الناهي المطاع، فيكون أمره في السماء، وأمره في الأرض، فهذه الآية تفسر أيضاً بالربوبية.

ثالثاً: ومن الرد أيضاً، جاء في بعض القراءات أنهم يفتقون وفقاً لازماً عند قوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمُوتِ﴾، ثم يكمل: ﴿وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا

تَكْسِبُونَ ٣ ﴿[الأنعام:3]، فيكون: ﴿وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ٣﴾، جملة جديدة.

وأما الرد على استدلالهم بقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ٨٤﴾ [الزخرف:84]، فهو على نفس ما سبق، بمعنى: أَنَّهُ المألوه، أي: المعبود في السماء، وهو المعبود في الأرض، وَأَنَّ أمر الله في السماء، وأمره في الأرض سبحانه.

صفة الكلام لله .

قال المصنف: [كلام الله ومن صفات الله تعالى أَنَّهُ متكلم بكلام قديم يسمعه منه من شاء من خلقه، سمعه موسى ؑ منه من غير واسطة، وسمعه جبريل ؑ، ومن أذن له من ملائكته ورسله، وَأَنَّهُ سبحانه يكلم المؤمنين في الآخرة ويكلمونه، ويأذن لهم فيزورونه، قال الله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ١٦٤﴾ [النساء: ١٦٤] وقال سبحانه: ﴿يُمُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي﴾ [الأعراف: ١٤٤] وقال سبحانه: ﴿مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٥٣] وقال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مَنْ وَرَاءَ حِجَابٍ﴾ [الشورى: ٥١] وقال سبحانه: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يُمُوسَى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْأَمْقَدَسِ طَوْى ١٢﴾ [طه: ١١ - ١٢] وقال سبحانه: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ [طه: ١٤] وغير جائز أن يقول هذا أحد غير الله، وَقَالَ عبد الله بن مسعود ؓ: " إِذَا تَكَلَّمَ اللَّهُ بِالْوَحْيِ سَمِعَ صَوْتَهُ أَهْلُ السَّمَاءِ "، روى ذلك عن النبي ﷺ وروى عبد الله بن أنيس عن النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «يَحْشُرُ اللَّهُ الْخَلَائِقَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَرَاةَ حِفَاةٍ غُرُلًا بِهِمَا فَيَنَادِيهِمْ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مِنْ بَعْدِ كَمَا يَسْمَعُهُ مِنْ قَرَبٍ: أَنَا الْمَلِكُ أَنَا الدِّينُ»، رواه الأئمة واستشهد به البخاري وفي بعض الآثار أن موسى ؑ ليلة رأى النار فهالته ففرع منها فناداه ربه: يا موسى، فأجاب سريعا استئناسا بالصوت، فقال لبيك لبيك، أسمع صوتك ولا أرى مكانك، فأين].

الكلام صفة ثبوتية فعلية قديمة النوع، حادثة الأفراد، ثبتت لله بالكتاب والسنة وإجماع أهل السنة.

١- قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ ابْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ٦﴾ [التوبة:6]، وجه الدلالة: أضاف الكلام له سبحانه إضافة معنى وصفة لموصوف.

٢- ومنه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ٢﴾ [البقرة:30]، والقول كلام.

٣- ومنه، قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى﴾ [الشعراء:10]، والنداء كلام

وبصوت.

٤- وقوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ١٦٤﴾ [النساء:164]، وهذه أصرح ما تكون في الدلالة؛ لأن المصدر المؤكد للفعل ينفي المجاز، وهذه قاعدة في اللغة متفق عليها حتى عند المبتدعة.

٥- ومنها، قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ [الأعراف:143]، وهذه الآية قاصمة لظهر المعتزلة؛ إذ أن الضمير المتصل بالفعل (الهاء) يعود لأقرب مذكور وهو موسى ع، ولا يمكن للهاء - في اللغة - أن تكون إلا في محل نصب مفعول به، ويكون ربه هو الفاعل TM.

٦- ومن السنة: كان النبي ﷺ في خطبة الحاجة يقول: «خير الكلام كلام الله وخير الهدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة»⁽¹⁾، وقال: «...فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها...»⁽²⁾.

٧- ومن ذلك، قول النبي ﷺ: «مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا، ثُمَّ قَالَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ؛ لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْتَجَلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ»⁽³⁾، قال: «أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ»، وهذا فيه وجهان من الدلالة: أضافه الله إضافة معنى، وأيضاً: استعاذ النبي ﷺ بالله متوسلاً بصفته، ولا يمكن للنبي ﷺ وهو من علم الأمة التوحيد أن يستعيز بمخلوق!

والله يتكلم بصوت مسموع وبحرف، والأدلة على ذلك:

١- قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنْ أَنْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ١٠﴾ [الشعراء:10].

٢- قال تعالى: ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ٢٢﴾ [الأعراف:22]، والنداء على ما نعلمه من اللغة أنه بصوت مسموع.

٣- ومن السنة تصريحاً، عن النبي ﷺ أنه قال: «يَحْشُرُ اللَّهُ الْعِبَادَ، أَوْ قَالَ يَحْشُرُ اللَّهُ النَّاسَ، قَالَ: وَأَوْمَى بِيَدِهِ إِلَى الشَّامِ غُرَاءً غُرْلًا بُهْمًا قَالَ قُلْتُ مَا بُهْمًا قَالَ لَيْسَ مَعَهُمْ شَيْءٌ فَيَنَادِي بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مِنْ بَعْدِ كَمَا يَسْمَعُهُ مِنْ قَرَبٍ أَنَا الْمَلِكُ أَنَا الدِّيَانُ لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَنْ يَدْخَلَ الْجَنَّةَ وَاحِدٌ مِنْ أَهْلِ النَّارِ يُطَالِبُهُ بِمُظْلَمَةٍ وَلَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ أَنْ يَدْخَلَ النَّارَ وَاحِدٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ يُطَالِبُهُ بِمُظْلَمَةٍ قَالُوا وَكَيْفَ وَإِنَّا نَأْتِي غُرَاءً غُرْلًا بُهْمًا قَالَ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ»⁽⁴⁾.

والله يتكلم بحرف؛ لأن الكلمات تتكون من حروف، وقد بين الله ذلك في كتابه،

(1) مجموع الفتاوى (32124/).

(2) صحيح مسلم (867)..

(3) صحيح مسلم (2708).

(4) صححه الألباني تخريج كتاب السنة (514)، أخرجه البخاري معلقاً بصيغة التمريض مختصراً قبل حديث (7481)، وأخرجه موصولاً أحمد (16042) مطولاً.

قال: ﴿إِنَّ وَالْقَلَمَ وَمَا يَسْطُرُونَ ١﴾ [القلم:1]، وقال: ﴿حَم ١﴾ [غافر:1]، وقال تعالى: ﴿عَسَى ٢﴾ [الشورى:2]، وقال تعالى: ﴿كَهَيْعَص ١﴾ [مريم:1]، فكلمات القرآن تتكون من هذه الحروف .

والإجماع أنَّ الله يتكلم بصوت وحرف .
وصفة الكلام قديمة النوع حادثة الأفراد، بمعنى أنَّ الله لم يكتسبها بعد نقص، ولكنها في ذات الأمر متعلقة بالمشيئة، فالله يتكلم متى شاء، لمن شاء؛ لأننا لا نستطيع أن نقول أنَّ الله منذ الأزل يقول: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَأَخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْأَمْدَنِ طُوى ١٢﴾ [طه:12]، لم يقل ذلك إلا عندما جاء موسى ؑ عند الشجرة.

وقد ضرب بعض العلماء لذلك مثلاً، فقال: لو دخلت على رجل وكان ساكناً ثم تكلم، فلا تستطيع وصفه أنه لم يكن مستطيع الكلام أو أنه أخرس، بل تقول: كان ساكناً ثم تكلم حيث شاء، وإن كنا نعتبر ذلك في الإنسان كملاً فمن باب أولى أن يتصف الله به، والله ِ المثل الأعلى.

نفى بعض أهل البدعة والضلالة هذه الصفة، وقالوا: الله لا يتكلم، وأوردوا على ذلك شبهاً، فقالوا: لو قلنا: الله يتكلم فسيلزم من ذلك لوازم باطلة، منها: أنَّ الكلام لا يكون إلا من مخرج، وقالوا: هذا فيه تشبيه الخالق بالمخلوق، ففراراً من التشبيه نفوا الصفة عن الله.

الجواب عليهم:

أولاً: الأصل أنَّ الله تعالى قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ١١﴾ [الشورى:11]، فلا يستلزم من الكلام المخرج، ولم يرد في الشرع أنَّ الله فمٌ أو شفتين، وما سكنت عنه الشرع نسكت عنه، ولا نثبت من الصفات إلا ما أثبتته الله ورسوله وحياً. ثانياً: أمَّا لوازمكم الباطلة فكانت لأنكم كيفتم الصفة بعقولكم، أما نحن فنثبت الصفة لله بكيف مجهول.

ثم إنَّ من المخلوقات من يتكلم ولا نعرف كيف، قال تعالى للسماء والأرض: ﴿أَتَيْنَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ١١﴾ [فصلت:11]، فهل يستطيع أحد أن يصف لنا كيفية كلامهما، ثم هل يلزم من إثبات كلامهما أنَّ لهما مخرجاً؟!

والجنة والنار تكلمتا أيضاً، ولا نعلم كيفية كلامهما، ففي الحديث: «احتجَّت الجنة والنار فقالت الجنة ما لي لا يدخلني إلا فقراء الناس وقالت النار ما لي لا يدخلني إلا الجبارون والمتكبرون فقال للنار أنت عذابي أصيب بك من أشاء وقال للجنة أنت رحمتي أصيب بك من أشاء...»⁽¹⁾.

ثالثاً: ثم إنَّ بقولكم هذا خالفتم ظاهر القرآن والسنة والإجماع، وقد تقدم كثيراً ما لهذا من لوازم باطلة.

فالحق الذي لا محيد عنه: أنَّنا نثبت لله الصفة بلا تمثيل ولا تكييف، ولا تأويل ولا

(1) صحيح، أخرجه أحمد (7704)، والنسائي في «السنن الكبرى» (11522) واللفظ له.

تعطيل، ونقول: الكلام في اللغة معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة وما ادعيتوه من لوازم فهي باطلة.

القرآن كلام الله غير مخلوق

قال المصنف: [القرآن كلام الله ومن كلام الله سبحانه القرآن العظيم، وهو كتاب الله المبين وحبله المتين وصراطه المستقيم وتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلب سيد المرسلين بلسان عربي مبين، منزل غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود، وهو سور محكمات وآيات بينات وحروف وكلمات من قرأه فأعربه فله بكل حرف عشر حسنات، له أول وآخر وأجزاء وأبعاد، متلو بالأسنة محفوظ في الصدور، مسموع بالأذان مكتوب في المصاحف، فيه محكم ومتشابه، وناسخ ومنسوخ، وخاص وعام، وأمر ونهي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ تنزيل من حكيم حميد [٤٢: ٤٢] وقوله تعالى: ﴿قُلْ لَنْ أَجْتَمِعَ الْإِنْسَ وَالْجِنَّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨] القرآن هو الآيات التي تنلى عليهم. وقال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩] وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ٧٧ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ٧٨ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ٧٩﴾ [الواقعة: ٧٧ - ٧٩] بعد أن أقسم على ذلك، وقال تعالى: ﴿كَهَيْعَةٍ﴾ [مریم: ١] ﴿حَمَّ ١ عَسَى ٢﴾ [الشورى: ١ - ٢] وافتتح تسعا وعشرين سورة بالحروف المقطعة. وقال النبي ﷺ: «من قرأ القرآن فأعربه فله بكل حرف منه عشر حسنات، ومن قرأه ولحن فيه فله بكل حرف حسنة» حديث صحيح. وقال %: «اقرأوا القرآن قبل أن يأتي قوم يقيمون حروفه إقامة السهم لا يجاوز تراقيهم يتعجلون أجره ولا يتأجلونه» وقال أبو بكر وعمر ٢ إعراب القرآن أحب إلينا من حفظ بعض حروفه، وقال علي ؑ: من كفر بحرف منه فقد كفر به كله، واتفق المسلمون على عد سور القرآن وآياته وكلماته وحروفه.

ولا خلاف بين المسلمين في أن من جحد من القرآن سورة أو آية أو كلمة أو حرفا متفقا عليه أنه كافر، وفي هذا حجة قاطعة على أنه حروف]

والقرآن كلام الله ليس بمخلوق، وهو صفة من صفاته تكلم به، ثبت ذلك بالكتاب والسنة والإجماع، ولا يستهويئك ما سطره بعض الأدباء واصفاً القرآن أنه كبديع خلق السماء والأرض والشجر والحجر، فهذا من الأخطاء الفادحة التي وقع فيها، فهو عندما يشبه القرآن بالسماء فقد شبه صفة من صفات الله بمخلوق، فكأنه قال: القرآن مخلوق، فلا بد من التنبيه حتى لا يتكلم أحد بكلام المعتزلة من حيث لا يدري.

ومن الأدلة على أن القرآن كلام الله:

١- قال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ﴾ [الطلاق: ٥]، والأمر هو من قول الله تعالى.

٢- وقال الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَمَ اللَّهِ

ثُمَّ أَلْبَعَهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ [التوبة:6]، وهنا أضاف الكلام له إضافة صفة لموصوف.

٣- ومن الأدلة، قال الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:1].

٤- وقال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَنُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٥٢﴾ [الشورى:52]، وقال في الآية الأخرى: ﴿ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ﴾ [الطلاق:5].

٥- وقال تعالى: ﴿نُنَزِّلُ مِنَ رَبِّ الْعَلَمِينَ ٨٠﴾ [الواقعة:80]، وقال: ﴿نَزَّلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ١٩٣ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ١٩٥﴾ [الشعراء:193 - 195].

٥- ومن السنة: قال النبي ﷺ: «أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ»^(١)، والقرآن يدخل في عموم الكلام.

نازع في ذلك أهل البدع والضلالة، وقالوا: القرآن ليس من كلام الله؛ لأن الأصل عندهم أن الله لا يتكلم، واستدلوا على ذلك:

١- قال الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ٣﴾ [الزخرف:3]، والجعل أصله: الخلق، فيكون عندهم المعنى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾، أي: خلقناه قرءاناً عربياً.

الرد عليهم:

أولاً: فعل جعل لا يأتي دائماً بمعنى الخلق، فالله يقول: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف:189]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثَاءً﴾، وقال: ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾، فهل جعل في هذه الآيات تأتي وتستقيم لديكم بمعنى خلق؟!.

وهذا الفعل يأتي على معان متعددة، منها: صيره، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضَلُّلٍ ٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ٣ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ٥﴾ [الفيل:1 - 5]، فالله خلقهم بشراً، ثم صيرهم إلى عصف مأكول.

وعلى هذا يحمل معنى جعل في قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ٣﴾ [الزخرف:3]، أي: صيرناه قرءاناً عربياً لعلكم تعقلونه وتتدبرون معانيه، فالله تكلم

(١) سبق تخريجه.

مع كل نبي بلسان قومه ليبين لهم، فتكلم مع موسى بالعبرية، وتكلم مع عيسى بالسريانية، ولما تكلم بالقرآن تكلم باللغة العربية التي تفهمون.

ثانياً: قولكم ينافي ما ثبت في الكتاب والسنة وكلام الصحابة، قال تعالى: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝۱﴾ [الزمر:1]، وقال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَلَمِينَ نَذِيرًا ۝۱﴾ [الفرقان:1]، وقال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ ۝۱ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝۲ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝۳﴾ [الرحمن:1-3]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝۱﴾ [القدر:1]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۝۸۲﴾ [يس:82]، والأمر من قول الله، وقال النبي ﷺ: «مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا لَا أَقُولُ الْم حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ، وَلَا مٌ حَرْفٌ، وَمِمْ حَرْفٌ» (1).

وأورد اللالكائي في كتابه "عقيدة أهل السنة والجماعة" أسانيد عن الصحابة يصفون القرآن أنه كلام الله.

ثالثاً: ثم إن الله فرق بين الخلق والكلام، وأنتم جمعتهم بينهما، قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝۵۴﴾ [الأعراف:54]، فالله عطف بينهما، والأصل في العطف المغايرة، فعلمنا من ذلك أن الخلق غير الأمر، فالأمر صفته، والخلق فعله.

رابعاً: ومن الرد عليهم، قال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ ۝۱ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝۲ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝۳﴾ [الرحمن:1-3]، فغاير بين تعليم القرآن وخلق الإنسان، ولو كان القرآن مخلوقاً لقال: الرحمن خلق القرآن، وخلق الإنسان، ولكنه قال: ﴿الرَّحْمَنُ ۝۱ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝۲ خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ [الرحمن:1-3].

خامساً: وقولكم يلزم منه لوازم باطلة، فموسى ؑ عندما جاء لميقات ربه عند الشجرة المباركة، قال: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَأَخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ۝۱۲﴾ [طه:12]، فلو كان الكلام مخلوقاً على ما تدعون فهل المخلوق يتجرأ ويقول لموسى: إني أنا ربك؟ فهذا لازم باطل.

ثم هل المخلوق يحجب نفسه عن موسى الكليم حينما قال له: ﴿قَالَ لَنْ تَرْضَىٰ﴾؟! **بقي إشكال لا بد من حله وهو:** أن الله أضاف القرآن لجبريل ؑ، ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝۱۹ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ۝۲۰﴾ [التكوير:19-20]، وأضاف القرآن لمحمد ﷺ في بعض الآيات، فهل هذه الإضافة تعني أنهما من تكلما به؟! **الجواب:** قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝۴۰﴾ [الحاقة:40]، فأضاف القول هنا للرسول الملكي وهو جبريل ؑ، والآية تحتل أمرين، الأمر الأول: أن مبدأ الكلام منه، وتحتل أن يكون أضافه له إضافة تبليغ، كقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ بَلِّغْ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا

(1) صحيح الترمذي (2910)..

يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ٦٧ ﴿ [المائدة: 67].

والمحكم عندنا أن الله تكلم بالقرءان فمبدؤه منه، وعليه فتكون إضافته لجبريل ؑ، وللنبي ﷺ إضافة تبليغ.

رؤية الله عزوجل

قال المصنف: [رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة والمؤمنون يرون ربهم في الآخرة بأبصارهم ويزورونه، ويكلمهم ويكلمونه، قال الله تعالى: ﴿وَجُودَ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ٢٣﴾ [القيامة: ٢٢ - ٢٣] وقال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَّحْجُوبُونَ ١٥﴾ [المطففين: ١٥] فلما حجب أولئك في حال السخط دل على أن المؤمنين يرونه في حال الرضى، وإلا لم يكن بينهما فرق، وقال النبي ﷺ: «إنكم ترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته» حديث صحيح متفق عليه. وهذا تشبيه للرؤية بالرؤية، لا للمرئي بالمرئي، فإن الله تعالى لا شبيه له ولا نظير. [رؤية الله يوم القيامة من أشرف المسائل عند أهل السنة والجماعة، وهي التي اشترأبت أعناق المحسنين والمتقين لها، ومن أجلها شمر عن ساعد الجد المتقون والمجتهدون، ولا ينالها إلا المحسنون.

اعلم أخي - زادك الله إحساناً - أن رؤية الله في الدنيا بالعين البصرية لا يمكن وقوعها، ولم تحدث لأحد حتى لخير البشر محمد ﷺ، وموسى ؑ، والدلالة على ذلك قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن نَرِيكَ وَلَكِن نُنْظِرُ إِلَىٰ الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ نَرِيكَ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعْفًا فَلَمَّا آفَقَ قَالَ سُبْحَنَكَ ثَبَّتْ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ١٤٣﴾ [الأعراف: 143]، وقال النبي ﷺ: «...ولن تروا ربكم حتى تموتوا وإنه أعور وإن ربكم

ليس بأعور»⁽¹⁾.

أما الرؤية القلبية أي: في الرؤيا، فجائزة لسيدنا محمد ﷺ وغيره.

ولقد اختلف العلماء في رؤية النبي ﷺ في الدنيا ليلة الإسراء والمعراج، على أقوال: **الأول:** قول ابن عباس - ؓ - أن النبي ﷺ رأى ربه ليلة المعراج بعينه الباصرة، واستدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ١٣﴾ [النجم: ١٣]، وبقوله ﷺ: «نور إني أراه»، وقال: أتعجبون أن تكون الخلعة لإبراهيم ؑ، والرؤية لمحمد ﷺ، وهذا

(1) أخرجه ابن ماجه (4077)، وابن أبي عاصم في «السنة» (429) واللفظ له، وابن خزيمة في «التوحيد» (459/2).

لم يثبت عن ابن عباس - ع -

الثاني: الرواية الثانية عن ابن عباس قال: «مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ۖ» [النجم: ١١] [11] «وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَى ۖ» [النجم: 13]، قال: رَأَاهُ بِفُؤَادِهِ مَرَّتَيْنِ»⁽¹⁾ وهذا ما انتصر إليه الحافظ ابن حجر -، ومال إليه ابن تيمية -.

الثالث: لم يرَ النبي ﷺ ليلة المعراج، وهو قول عائشة ~، والجمهور، واستدلوا: أَنَّ النبي - ﷺ - لما سئل عن رؤية رَبِّهِ، قال: «نورٌ أَنَّى أَرَاهُ؟»، وفي رواية: «رَأَيْتُ نُورًا»؛ يعني: الحجاب؛ فإن الله نور، وحجابه نور - .

والصحيح الراجح: أَنَّهُ لم يره بعينه الباصرة، وفاصل النزاع قوله: «...ولن تَرَوْا رَبَّكُمْ حتى تموتوا وإنه أعورٌ وإنَّ رَبَّكُمْ ليس بِأَعْوَرَ»، وأصوليا: خطاب الأمة يدخل تحتها النبي ﷺ، فهذا قاطع في أَنَّهُ لن يرى أحد ربه حتى يموت.

أما الرؤية القلبية، فقد حصلت للنبي ﷺ وتحصل لأحاد الناس؛ لأنَّ الأحكام على العموم لا على الخصوص، ويدل على ذلك ما جاء في الترمذي بسند صحيح عن النبي ﷺ أَنَّهُ قال: «أَتَانِي اللَّيْلَةُ رَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي أَحْسَن صُورَةٍ، قَالَ أَحْسَبُهُ قَالَ فِي الْمَنَامِ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ هَلْ تَدْرِي فِيْمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى؟...»⁽²⁾.

وأما الرؤية في الآخرة فأدلتها متضافرة، والعبد المؤمن أسعد ما ينتعم به في الجنة برؤية وجه الله الكريم، فحينما يدخل الجنة ويرى ما فيها من نعيم ثم يكشف الله الحجاب فما ينتعم بنعمة مثل نعمة النظر إلى وجهه الكريم، والأدلة على ذلك:

١- قال الله تعالى: ﴿وَجُودَةٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ۖ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ۚ﴾ [القيامة: 22] -

[23]، وهذه النضرة في الوجوه؛ لأنها لربها ناظرة.

وفعل نظر، يأتي متعديا؛ إمَّا بنفسه أو بحرف الجر في، أو بآلى، فإذا تعدى بنفسه يكون بمعنى: الانتظار، قال تعالى: ﴿أَنْظُرُونَا نَقْتَسِبْ مِنْ ثَوْرِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ [الحديد: 13]، أَنْظُرُونَا أي: انظروا إلينا أو انتظرونا حتى نستتير بهذه الأنوار، وهذه غير مرادة هنا.

ويتعدى بحرف في، ويكون بمعنى: الرؤية القلبية، أو التدبر في مخلوقات الله، قال الله تعالى: ﴿وَأَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ۚ﴾ [الأعراف: 185].

ويتعدى بحرف إلى ويكون معناه: الرؤية بالعين الباصرة، فقوله تعالى: ﴿وَجُودَةٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ۖ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ۚ﴾ [القيامة: 22 - 23]، أي: تنظر إلى الله بهذه الأعين، كما قال تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ۚ﴾ [ق: 22].

(1) صحيح مسلم (176).

(2) صحيح الترمذي (3233)، وأحمد (3484).

٢- قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: 26]، والنبي ﷺ فسر الآية، قال: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، قَالَ: يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ، وَتُخْرِجَنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ». وفي رواية: وزاد ثم تلا هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: 26]»⁽¹⁾، وأحسن التفسير وأبينه ما فسره النبي ﷺ.

٣- ومن الأدلة، قوله تعالى: ﴿لَّهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ٣٥﴾ [ق: 35]، ففي تفسير قول الله تعالى: ﴿لَّهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا﴾، أي: من الحور العين والأنهار واللين والتمر والعسل، وقالوا في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ٣٥﴾، النظر إلى وجه الله الكريم.

٤- ومنها، قال الله تعالى: ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ٢٣ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهم نَضْرَةَ النَّعِيمِ ٢٤﴾ [المطففين: 23 - 24]، فنضرة النعيم حصلت لهم لأنهم ينظرون إلى وجه ربهم، والوجه الثاني من الدلالة: نفي المعمول يؤذن بالعموم، فحذف معمول ينظرون أشعرت بالعموم، أي: ينظرون إلى الحور العين، وإلى الجنات، وإلى أنهار الخمر واللين والعسل، وينظرون إلى وجوه بعضهم البعض، وينظرون أيضاً إلى وجه الله الكريم.

٥- ومنها، قال تعالى عن الكفار: ﴿كَلَّا إِنَّهم عَنْ رَبِّهم يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ١٥﴾ [المطففين: 15]، والاستدلال بالمفهوم، قال الإمام الشافعي -: لما حجب هؤلاء في الغضب، كان لهؤلاء في الرضا النظر إلى وجه الله الكريم، وهذا ظاهر جداً.

٦- ومن السنة، حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه يرفعه: «... وَجَنَّتَانِ مِنْ فَضَّةٍ؛ أُنِيَّتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ كَذَا؛ أُنِيَّتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلَّا رِداءَ الْكِبَرِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةٍ عَدْنٍ»⁽²⁾.

٧- وجاء في الصحيحين: «أَنَّ النَّاسَ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: هَلْ تُمَارُونَ فِي الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَيْسَ دُونَهُ سَحَابٌ قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: فَهَلْ تُمَارُونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ قَالُوا: لَا، قَالَ: فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ كَذَلِكَ...»⁽³⁾ وهذا صريح في الدلالة، وفيه تشبيه الرؤية بالرؤية، لا المرئي بالمرئي.

٨- وكان النبي ﷺ يجتهد في دعائه ويقول: «...وَأَسْأَلُكَ لَدَةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ الْكَرِيمِ، وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ»⁽⁴⁾. ووجه الدلالة: أن النبي ﷺ لا يمكن أن يكون متعدياً في الدعاء، والوجه الثاني: أن الله أقره على دعائه، والله لا يُقَرُّ على باطل.

(1) صحيح مسلم (181).

(2) صحيح البخاري (4879).

(3) صحيح البخاري (806).

(4) النسائي (1305)، وأحمد (18351).

٩- وأما من النظر: فسيدينا موسى ؑ عندما سمع صوت الله طمع فيما هو أكثر: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَنِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَنِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ [الأعراف:143]، وهذا فيه وجوه من الدلالة: أَنَّ موسى ؑ سأل ربه رؤيته، وسؤاله عن علم واعتقاد بإمكانيتها وأنه يُرى، وهو أعلم الخلق بالله، والله أقرّه على طلبه ولكن علّقها على ممكن وهو تجلي الله للجبل، فإن استقر الجبل فسيرى موسى عليه السلام ربه، والله لم ينكر على موسى عليه السلام سؤاله، فلو كان فيه تعدٍ لأنكر عليه ربه كما أنكر على نوح ؑ: ﴿قَالَ يُنوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [هود:46]، ثم قال: ﴿فَلَا تَسْلَنْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ٤٦﴾ [هود:46]، فلما لم ينكر عليه دلّ على إمكانية الرؤية في الدنيا مع عدم وقوعها لعدم تحميله لذلك، أما في الآخرة فسيزول المانع وسيُرى ربه.

والعبد متى ما اعتقد ذلك فسيستعد للقاء ربه بحفظ بصره وسائر جوارحه عن المحرمات، ومداومة مراقبة الله في السر والعلانية، والمحافظة على الصلوات سيما صلاة البردين، وتحقيق الإخلاص وحسن الاتباع، ودوام الدعاء حتى يفوز برؤية وجه الله الكريم في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة.

والعباد في نظرهم إلى وجه الله متفاوتون تفاوتهم في الطاعات والمنازل، فكلّ يعطى بحسب إيمانه ودرجته، فهناك من ينظر إلى وجه ربه في الفردوس بكرة وعشية، وأيضاً متعة من كان في المنازل العلية في النظر ليس كمن دونه، فكل إنسان يتمتع بقدر ما هو فيه من الطاعة، فإذا علم الإنسان ذلك ازدادت همته في أن يكون مع النبي ﷺ وخير صحبه في الفردوس الأعلى، وممن ينظر إلى وجه ربه بكرة وعشيّاً.

وقد مُنع من هذه المتعة قوم لا خلاق لهم، والله يكافئهم بما في قلوبهم من العطب بحرمانهم عبادة الشوق لها في الدنيا ومن تحقيقها في الآخرة جزاء وفاقاً، وأجرّاً طباقاً، وهؤلاء ادعوا أنّ لهم أدلة، وهي عند التحقيق أدلة عليهم لا لهم، فقالوا:

١- قال تعالى لموسى ؑ: ﴿لَنْ تَرَنِي﴾ [الأعراف:143]، ولن في اللغة للتأبيد.

٢- وقالوا: قال الله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [الأنعام:103]، وهذه صريحة أننا لن نراه، ولن ندركه.

الرد عليهم:

الحق أنّ ما من مبتدع إلا ويكن في أدلته ما يجاب فيه على ما استدل به، وذلك لأنّ نظره الأعور، ومقدمته الفاسدة التي مبناها الاعتقاد ثم الاستدلال تجعله لا يرى الأدلة بمجموعها، أو لا يوفق لفهم الدليل على مراد الله ورسوله، وسبحان المعطي الوهاب، الذي يعطي ويمنع، ويضل ويهدي عن علم وحكمة، أقول:

١- بالنسبة لما استدلوا به بأنّ لن تفيد التأبيد هذا غير صحيح، فالله أخبر عن اليهود

أَتَمُّ لَنْ يَتَمَنَوُا الْمَوْتَ، قَالَ: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ٩٥﴾ [البقرة: ٩٥]، وَمَعَ ذَلِكَ حِينَمَا يَدْخُلُونَ النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ سَيَتَمَنُونَهُ، قَالَ: ﴿وَنَادَوْا يُمْلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَكْثُونَ ٧٧﴾ [الزخرف: ٧٧]، وَقَالَ: ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ لَئِنِّي كُنْتُ تُرْبًا ٤٠﴾ [النبا: ٤٠]، ثُمَّ إِنَّ لَنْ لَا تَفِيدُ التَّأْيِيدَ أَصَالَةً، قَالَ ابْنُ مَالِكٍ - - - فِي الْكَافِيَةِ:

وَمَنْ رَأَى النَّفْيَ بِلَنْ مُؤَبِّدًا فَقَوْلُهُ ارْدَدَ وَسَوَاهُ فَاعْضُدَا

فَإِنْ قَالُوا: كَيْفَ تَجِيبُونَ عَنِ الْآيَةِ ﴿لَنْ تَرْنِي﴾؟ الْجَوَابُ: لَنْ تَرَانِي فِي هَذِهِ الدُّنْيَا، بِهَذِهِ الْهَيْئَةِ؛ لِأَنَّ قُوَّتَكَ الْبَشَرِيَّةَ لَا تَحْتَمِلُ.

٢- فِي اسْتِدْلَالِهِمْ بِنَفْيِ الْإِدْرَاكِ عَلَى نَفْيِ الرُّؤْيَا هَذَا غَيْرُ صَحِيحٍ، فَنَفْيُ الْإِدْرَاكِ وَهِيَ الْإِحَاطَةُ بِكُلِّ شَيْءٍ دَالٌّ عَلَى وَجُودِ الْأَصْلِ وَهِيَ الرُّؤْيَا، وَالْقَاعِدَةُ: نَفْيُ الْأَخْصِ - وَهِيَ الْإِدْرَاكِ - لَا يَقْتَضِي نَفْيَ الْأَعْمِ - وَهِيَ الرُّؤْيَا -، وَهَذَا وَاقِعٌ مُشَاهِدٌ أَمَامَكَ، فَأَنْتَ تَرَى السَّمَاءَ لَكِنْ هَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَدْرِكَهَا؟! الْجَوَابُ: لَا، وَكَذَلِكَ أَفْهَمُ الْأَمْرَ.

القضاء والقدر

قَالَ الْمَصْنَفُ: [الْقَضَاءُ وَالْقَدَرُ وَمِنْ صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى أَنَّهُ الْفَعَالُ لِمَا يَرِيدُ، لَا يَكُونُ شَيْءٌ إِلَّا بِإِرَادَتِهِ، وَلَا يَخْرُجُ شَيْءٌ عَنْ مَشِيئَتِهِ، وَلَيْسَ فِي الْعَالَمِ شَيْءٌ يَخْرُجُ عَنْ تَقْدِيرِهِ، وَلَا يَصْدُرُ إِلَّا عَنْ تَدْبِيرِهِ، وَلَا مُحِيدٌ عَنِ الْقَدَرِ الْمَقْدُورِ، وَلَا يَنْجَاوِزُ مَا خُطَّ فِي اللَّوْحِ الْمَسْطُورِ، أَرَادَ مَا الْعَالَمُ فَاعْلَوْهُ، وَلَوْ عَصَمَهُمْ لَمَا خَالَفُوهُ، وَلَوْ شَاءَ أَنْ يَطِيعُوهُ جَمِيعًا لِأَطَاعُوهُ، خَلَقَ الْخَلْقَ وَأَفْعَالَهُمْ وَقَدَرَ أَرْزَاقَهُمْ وَأَجَالَهُمْ، يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ بِرَحْمَتِهِ، وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ بِحُكْمَتِهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ٢٣﴾ [الأنبياء: ٢٣] قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ٤٩﴾ [القمر: ٤٩] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَوَخَّلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقْدَرَهُ تَقْدِيرًا ٢﴾ [الفرقان: ٢] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾ [الحديد: ٢٢] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥].

رَوَى ابْنُ عَمْرٍو أَنَّ جَبْرِيلَ ع قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: «مَا الْإِيمَانُ؟» قَالَ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكِتَابِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، فَقَالَ جَبْرِيلُ: صَدَقْتَ. رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَمَنْتُ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ وَحُلُوهِ وَمَرِّهِ» وَمِنْ دَعَاءِ النَّبِيِّ ﷺ الَّذِي عَلَّمَهُ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ يَدْعُو بِهِ فِي قُنُوتِ الْوُتْرِ: «وَقْتِي شَرِّ مَا قَضَيْتَ» وَلَا نَجْعَلُ قَضَاءَ اللَّهِ وَقَدَرَهُ حُجَّةً لَنَا فِي تَرْكِ أَوْامِرِهِ وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ، بَلْ يَجِبُ أَنْ نُؤْمِنَ، وَنَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَلَيْنَا الْحُجَّةَ بِإِزَالِ الْكُتُبِ وَبَعَثَةِ الرُّسُلِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَنَلَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى

اللَّهُ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ» [النساء: ١٦٥] ونعلم أن الله سبحانه ما أمر ونهى إلا المستطيع للفعل والترك، وأنه لم يجبر أحدا على معصية، ولا اضطره إلى ترك طاعة، قال الله تعالى: ﴿لَا يَكْفُرُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] وقال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦] وقال تعالى: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٧] فدل على أن للعبد فعلا وكسبا يجزى على حسنه بالثواب، وعلى سيئه بالعقاب، وهو واقع بقضاء الله وقدره.]

انتهينا بفضل الله - - من الكلام على الأسماء والصفات، وعلى مبحث الرؤية، وسنشرع في التكلم عن باب من الأهمية بمكان وهو الإيمان بالقدر.
 القدر: قدرة الله، وهو من لوازم ربوبية الله، ولا يستقيم إيمان عبد بحال من الأحوال إلا بالإيمان بالقدر، ولا يمكن أن نطلق الإيمان على رجل لا يعتقد الاعتقاد الصحيح بأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطاه لم يكن ليصيبه.

ثم إن مسائل القدر دحض مزلة، ضلت فيه أفهام كثيرة، فإذا أردت أخي الكريم أن تؤمن بالقدر فعليك أن تعلم أن الله قدر وكتب كل شيء قبل أن يخلق الخلق بخمسين ألف سنة، قال تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ٣٨﴾ [الأحزاب: 38]، وقال: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ٤٩﴾ [القمر: 49]، وقال: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾ [الحديد: 22]، ووجه الشاهد هو قوله: من قبل أن نبرأها، أي خلقها، وقال: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ٥٢ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ ٥٣﴾ [القمر: 52 - 53]، أي: مكتوب في اللوح المحفوظ، ومن ذلك أيضاً، قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَءَاتَاهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ١٢﴾ [يس: 12]، والإمام المبين: هو اللوح المحفوظ.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ١٠٥﴾ [الأنبياء: 105]، يعني: كتب في الذكر، والذكر هو اللوح المحفوظ، فكل شيء: الشقاء والسعادة وأسماء أهل الجنة وأسماء أهل النار، حتى الابتسامة والنوم والزواج والرزق كل ذلك كُتِبَ في اللوح المحفوظ قبل أن يخلق الله الخلق بخمسين ألف سنة.

وفي حديث احتجاج آدم وموسى ما يدل على ذلك، قال: «حَاجَّ مُوسَى آدَمَ، فَقَالَ لَهُ: أَنْتَ الَّذِي أَخْرَجْتَ النَّاسَ مِنَ الْجَنَّةِ بِذَنْبِكَ وَأَشَقَيْتَهُمْ، قَالَ: قَالَ آدَمُ: يَا مُوسَى، أَنْتَ الَّذِي اصْطَفَاكَ اللَّهُ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلَامِهِ، أَتُلَوِّمُنِي عَلَى أَمْرِ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي - أَوْ قَدَرَهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي - قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فَحَاجَّ آدَمُ مُوسَى»⁽¹⁾.

٢- ومن ذلك أيضاً، ما جاء عن عمرو بن العاص - ف - قال: «خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي يَدِهِ كِتَابَانِ فَقَالَ: هَلْ تَدْرُونَ مَا هَذَا الْكِتَابُ؟ قُلْنَا: لَا إِلَّا أَنْ تُخْبِرَنَا، فَقَالَ لِلَّذِي فِي يَمِينِهِ: هَذَا كِتَابٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ فِي أَسْمَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَسْمَاءِ آبَائِهِمْ وَقَبَائِلِهِمْ. ثُمَّ

(1) صحيح البخاري (4738).

أَجْمَلَ عَلَى آخِرِهِمْ فَلَا يَزِدَادُ فِيهِمْ وَلَا يَنْقُصُ أَبَدًا، وَقَالَ لِلَّذِي فِي يَسَارِهِ: هَذَا كِتَابٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ فِيهِ أَسْمَاءُ أَهْلِ النَّارِ وَأَسْمَاءُ آبَائِهِمْ وَقِبَائِلِهِمْ، ثُمَّ أَجْمَلَ عَلَى آخِرِهِمْ، فَلَا يَزِدَادُ فِيهِمْ وَلَا يَنْقُصُ فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ فَبَيَّ أَيْ شَيْءٍ نَعْمَلُ وَقَدْ فُرِغَ مِنَ الْأَمْرِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ سَدُّوا وَقَارِبُوا فَإِنَّ صَاحِبَ الْجَنَّةِ مَخْتَوِّمٌ لَهُ يَعْمَلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ وَإِنْ عَمِلَ أَيْ عَمِلَ، وَإِنَّ صَاحِبَ النَّارِ مَخْتَوِّمٌ لَهُ يَعْمَلُ أَهْلُ النَّارِ وَإِنْ عَمِلَ أَيْ عَمِلَ، ثُمَّ قَالَ بِيَدِهِ فَجَمَعَهَا فَقَالَ: فَرَّغَ رَبُّكُمْ مِنَ الْعَمَلِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ»⁽¹⁾.

ومعنى: (ثُمَّ أَجْمَلَ عَلَى آخِرِهِمْ) أي: لَا يَزَادُ فِيهِ وَلَا يَنْقُصُ، قَالَ: (فَرَّغَ رَبُّكُمْ مِنَ الْعَمَلِ)، أي: كَتَبَ أَهْلَ الْجَنَّةِ بِعَمَلِهِمْ، وَأَهْلَ النَّارِ بِأَعْمَالِهِمْ، وَهَذِهِ الْكِتَابَةُ لَا تَجْعَلُ الْمَرْءَ يَتَقَاعَسُ عَنِ الْعَمَلِ بَلْ تَزِيدُهُ هِمَّةً فِي الْعَمَلِ - كَمَا سَنَبِينِ -

والقدر ركن من أركان الإيمان، ودليل ذلك حديث عمر بن الخطاب - ؓ - عندما

دخل عليهم جبريل معلما على هيئة أعرابي: «قَالَ: فَأَخْبَرَنِي عَنِ الْإِيمَانِ، قَالَ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، قَالَ: صَدَقْتَ»،⁽²⁾ فذكر من أركان الإيمان: الإيمان بالقدر.

والذي لَا يُؤْمِنُ بِالْقَدَرِ كَافِرٌ خَارِجٌ مِنَ الْمِلَّةِ، وَهَذَا مَا قَالَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ - ؓ - فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ: «كَانَ أَوَّلَ مَنْ قَالَ فِي الْقَدَرِ بِالْبَصَرَةِ مَعْبُدُ الْجَهَنِّيِّ، فَاِنْطَلَقْتُ أَنَا وَحَمِيدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحِمَيْرِيُّ حَاجِّينَ، أَوْ مُعْتَمِرِينَ، فَقُلْنَا: لَوْ لَقِينَا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَسَأَلْنَاهُ عَمَّا يَقُولُ هَؤُلَاءِ فِي الْقَدَرِ، فَوَقَّفَ لَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ

بَنَ الْخَطَّابِ دَاخِلًا الْمَسْجِدَ، فَاسْتَفْتَانِي أَنَا وَصَاحِبِي أَحَدُنَا عَنْ يَمِينِهِ، وَالْآخَرُ عَنْ شِمَالِهِ، فَظَنَنْتُ أَنَّ صَاحِبِي سَيَكُلُ الْكَلَامَ إِلَيَّ، فَقُلْتُ: أَيَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ إِنَّهُ قَدْ ظَهَرَ قِبَلُنَا نَاسٌ يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ، وَيَتَفَقَّرُونَ الْعِلْمَ، وَذَكَرَ مِنْ شَأْنِهِمْ، وَأَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ لَا قَدَرَ، وَأَنَّ الْأَمْرَ أَتَفُّ، قَالَ: فَإِذَا لَقِيتَ أُولَئِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنِّي بَرِيءٌ مِنْهُمْ، وَأَنَّهُمْ بَرَاءٌ مِنِّي، وَالَّذِي يَخْلَفُ بِهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ مِثْلَ أَحَدِ ذَهَبًا، فَأَنْفَقَهُ مَا قَبِلَ اللَّهُ مِنْهُ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ...»⁽³⁾، فَحُكِمَ أَنَّ أَعْمَالَهُمْ مَرْدُودَةٌ؛ لِأَنَّهُمْ مَكْذِبُونَ لِلْقَدَرِ ثُمَّ سَأَلَ الْحَدِيثَ.

والذي يدل على ذلك أيضًا، حديث الصحابي الجليل ناصحًا ابنه: «يَا بُنَيَّ، إِنَّكَ لَنْ تَطْعَمَ طَعْمَ الْإِيمَانِ، وَلَنْ تَبْلُغَ حَقَّ حَقِيقَةِ الْعِلْمِ بِاللَّهِ حَتَّى تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، قَالَ: قُلْتُ: يَا أَبَتَاهُ، وَكَيْفَ لِي أَنْ أَعْلَمَ مَا خَيْرُ الْقَدَرِ مِنْ شَرِّهِ؟ قَالَ: تَعْلَمُ أَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَمَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، يَا بُنَيَّ، إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، ثُمَّ قَالَ: اكْتُبْ، فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، يَا بُنَيَّ، إِنَّ مِتَّ وَلَسْتُ عَلَى ذَلِكَ دَخَلْتَ النَّارَ»⁽⁴⁾ فهذه دلالة قوية على أن من مات ولم

(1) إسناده حسن، أخرجه: الترمذي (2141)، وأحمد (6563)، والنسائي في «السنن الكبرى» (11473) مختصراً، وابن أبي عاصم في «السنة» (348) واللفظ له..

(2) صحيح مسلم (8).

(3) سبق تخريجه.

(4) صحيح، أخرجه أبو داود (4700) مختصراً بنحوه، والترمذي (2155)، وأحمد (22705) واللفظ له.

يكن مؤمناً بالقدر كان من أصحاب النار خالداً فيها.

مراتب القدر

ومراتب القدر أربع: علم فكتابة فإرادة فخلق، أو نقول: علم فكتب فإراد فخلق، وهذه المراتب من لم يؤمن بها لا يستطيع الإيمان الكلي بالقدر، ولن يتقن مسأله.

المرتبة الاولى: العلم، أن تعتقد اعتقاداً جازماً أن الله علم كل شيء صغيراً أو كبيراً، سرّاً أو علانية، وأدلة ذلك:

١- قال: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً ١٢﴾ [الطلاق: 12].

٢- وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ ١١٠﴾ [طه: 110]، فالله يحيط بكل شيء علماً.

٣- وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ١٠٧﴾ [البقرة: 107].

٤- وقال جل في علاه: ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ النُّجُومِ سَاقِطًا فَلْيَحْذَرُوا الْيَوْمَ الَّذِي يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ لَئِنْ رَأَوْهُمُ الْخَسْفَ فَالْتَأَمُوا لَهُمْ يَوْمَئِذٍ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَآ يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ وَلَآ هُمْ يُنصَرُونَ ١٠١﴾ [الأنعام: 59]، يعني: علمها الله وكتبها.

٥- وقد ختم الله الكثير من الآيات بتسمية نفسه العليم الحكيم، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ٤ قَالَ يُبْنِيَ لَكَ تَقْصُصٌ رُّعْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ٥﴾ [يوسف: 4 - 5]، ثم قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٦﴾ [يوسف: 6]، فذكر العلم وذكر معه الحكمة.

والمعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف سيكون، فكله يعلمه الله قبل أن يقع، وقد كتبه في اللوح المحفوظ عن علمه -جل في علاه- وقد سبق بيان ذلك في

بداية الشرح فليرجع إليه..

وما دمنا تحدثنا عن مرتبة العلم فلا بد من التنبيه على خطأ يقع به البعض عند شرحهم لهذه المرتبة، فيضربون المثل بعلم المعلم بما سيكون من حال التلاميذ فيقول

مثلاً: فلان سيأتي بالعلامة كذا، وفلان بكذا، وهكذا، وحينما تخرج النتائج تأتي موافقة لما قال.

الحق أن ضرب هذا المثل فيه قصور ولا يخلو من اعتزال، لأن المعلم هذا لا يتحكم بإرادة تلامذته فيما هم فاعلون، وهذا فارق جوهري، لكن الله يعلم ما كان وما سيكون من عبادته، ويريد لهم ذلك أيضاً، وبذلك تبين لك أخي الكريم أن ضرب المثل المتقدم خطأ وكأنه اعتزال، لأن المعتزلة المتأخرين ينفون عن الله الإرادة، ويجعلون العباد خالقي أفعالهم، وأنها وقعت بغير إرادة منه.

والله يهدي المؤمن ويضل الكافر على علم وحكمة عنده، فيعلم أن هذا يستحق

الإيمان فيوقفه له، ويعلم أن هذا لا يستحق إلا الكفر فييسره له، قال تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَىٰ اللَّهُ﴾، بمحض فضل ونعمة منه، ثم قال: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ [النحل:36]، حقت عليه الضلالة؛ لأنه لا يريد الهداية، قال: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:5]، فهم الذين يريدون الزيف، فلما علم الله من قلوبهم الظلم والعتو يسر الله لهم أبواب الكفر، قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۖ ۙ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۙ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۙ﴾ [الليل: ٨ - 10]، وقال الله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ أَلْرَجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ۙ﴾ [الأنعام:125].

وهذا هو الفارق بينه وبين المدرس في المثال السابق، فالمدرس لا يقدّر شيئاً على الطالب، لكن الله يتحكم في إرادة الكافر ليكفر، فيسد عليه كل منافذ الخير، ويفتح عليه كل أبواب الشر؛ لأنه يعلم من يستحق الهداية ممن لا يستحقها.

المرتبة الثانية: الكتابة، وتعني: أن الله كتب كل شيء، قال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَةٍ إِلَّا رَظِيبٌ وَلَا يَاسِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ۙ﴾ [الأنعام:59]،

وهذا الكتاب هو اللوح المحفوظ، والأقدار كتبت في هذا الكتاب، وقال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ۙ﴾ [يس:12]، يعني: كتبناه في الإمام المبين، وهو اللوح المحفوظ، وقال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الْزُبُرِ ۙ﴾ ٥٢ وكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌّ ٥٣ [القمر: 52 - 53]، مستطر، يعني: مكتوب.

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمُ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ، قَالَ: رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ»⁽¹⁾. وهذا الحديث فيه أمور:

١- يستدل به على أن القلم يتكلم، وفائدة ذلك أنه لا يلزم من إثبات الكلام له أن يكون له فم أو لسان أو مخرج، فهذه دلالة على أن هناك مخلوقات تتكلم ولا نعلم كيفية كلامها، فمن باب أولى أن الله يتكلم، ولا نعلم كيفية كلامه.

٢- أن الله تعالى يتكلم بحرف وصوت مسموع؛ لأنه قال للقلم: اكتب.

٣- الجمد يتكلم على الحقيقة ولا مجاز، فالجمادات لها إرادة وتسبح، قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ۚ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء:44]، قال النبي ﷺ

عن جبل أحد أنه يُحب ويحب، وقد سمع النبي ﷺ أنين وحنين جذع النخلة، وكان يسمع حجراً يسلم عليه، وكانوا يسمعون تسبيح الطعام بين يديه ﷺ، فالراجح الصحيح: أن لا مجاز في القرآن، وقول الله تعالى: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْفَضَّ فَأَقَامَهُ﴾ [الكهف:77]، أن له إرادة على الحقيقة.

ولا بد أن نؤمن بأربع كتابات:

(1) صحيح أبو داود (4700) واللفظ له، والترمذي (3319)، وأحمد (22705) بنحوه.

الأولى: الكتابة الأزلية، وهي الكتابة في اللوح المحفوظ، وهذه لا تتبدل ولا تتغير.

الثانية: الكتابة العمرية، وهي التي تكتب في الرحم، وأصله حديث ابن مسعود -

«... ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ مَلَكًا فَيُؤَمِّرُ بَارِئَ كَلِمَاتٍ، وَيُقَالُ لَهُ: اكْتُبْ عَمَلَهُ، وَرِزْقَهُ، وَأَجَلَهُ، وَشَقِيَّ أَوْ سَعِيدٍ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ،...»⁽¹⁾، وورد عن ابن مسعود: (السعيد من سعد في بطن أمه، والشقي من شقي في بطن أمه).

الثالثة: الكتابة السنوية، وهذه تكون في ليلة القدر من كل سنة، ودليلها قوله تعالى:

﴿فِيهَا يُفَرَّقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۚ﴾ [الدخان:4]، قال ابن عباس: فيكتب فيها أهل الحجيح

ومن يموت ومن يولد، ويكتب الرزق، فكل شيء يكتب في هذه الليلة، وهذه الكتابة - على قول ابن عباس - اسمها: الكتابة العامة.

الرابعة: الكتابة اليومية، وهي على أقسام: كتابة الملكين اللذين لا يفارقان ابن آدم

بحال من الأحوال، قال تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۚ﴾ [ق:18]،

يعني: يكتب هذا الحسنات، ويكتب هذا السيئات، وهناك قسم آخر: وهم الملائكة الذين يكتبون الطاعات ويسبحون في الأرض بحثاً عن مجالس العلم، فيكتبون أسماء من يجلس فيها بأسمائهم وأسماء آبائهم ويصعدون إلى الله، فيقول الملك: يَا رَبِّ إِنَّ فُلَانًا هَذَا جَاءَ لَغَرَضٍ، وَلَمْ يَأْتِ لَطَلْبِ الْعِلْمِ، فيقال: هم القوم لا يشقى بهم جليسهم، قال النبي ﷺ كما في الصحيح: «يَتَعَاوَنُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ وَصَلَاةِ الْعَصْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ، فَيَسْأَلُهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ»⁽²⁾، فالملائكة يكتبون ما يفعل ابن آدم، فهذه الكتابة اليومية.

واعلم - رحمك الله - أنَّ الكتابة في اللوح المحفوظ لا تتغير ولا تتبدل، وأما ما كتب في غيره، فعلى الراجح أنه يتغير ويتبدل، وقد بين المؤلف الأدلة التي تدل على ذلك، وبهذا لا إشكال في القدر؛ فالناس يسألون الله تعالى ما يريدون، ولا يزال الدعاء والقدر يعتلجان^{*}، فأقواهما يرفع الآخر، ولكن كيف يرفع الدعاء القدر وقد قلنا أنَّ الله كتب كل شيء في اللوح المحفوظ؟ نقول: نعم، الدعاء يرفع القدر المكتوب في أيدي الملائكة، لا المكتوب في اللوح المحفوظ.

وهل يكتب أحد في بطن أمه شقياً ويكون سعيداً؟ الجواب: نعم، قد يكتب في بطن أمه شقياً، ويكون في اللوح المحفوظ من السعداء، فالذي يتغير هو ما في يد الملك فقط، وقد كان عمر بن الخطاب يطوف حول الكعبة يبكي ويقول: اللهم إن كنت قد كتبتني شقياً فامحها واكتبني عندك سعيداً، ثم يقرأ قول الله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُنْثِبُ ۚ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ۝٣٩﴾ [الرعد:39]، والمعنى: يمحو الله ما يشاء مما في يد الملك، وعنده (أُمُّ الْكِتَابِ)، يعني: اللوح المحفوظ، فهو لا يتبدل ولا يتغير، فالآية هنا ظاهرة جداً في أنَّ الذي يُمحى هو ما في يد الملائكة.

(1) صحيح البخاري (3208) أخرجه مسلم (2643).

(2) أخرجه البخاري (555)، ومسلم (632).

* ومعنى يعتلجان أي: يتعارضان.

المرتبة الثالثة: الإرادة بمعنى: أن تعتقد اعتقادًا جازمًا أنه لا شيء في هذا الكون إلا وهو تحت إرادة الله، فقد عمّت مشيئته وإرادته على الخلق أجمعين، ولن يستقيم إيمان عبد بالقدر حتى يعلم أن كل صغير وكبير، دقيق وجليل إلا هو بإرادة الله، فالزنا والسرقة والفواحش والبذاءة كلها مرادة لله؛ لكنها مرادة إرادة كونية، فما أَرَادَهُ اللهُ كان، وما لَمْ يَرِدْهُ لَمْ يَكُنْ، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ٤٠﴾ [النحل:40]، وقال تعالى: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل:1]، بمعنى: أن الله إذا أراد شيئًا فسيقع لا محالة، فلا مرد لقضاء الله، فكان الله يخبرنا أن أمره وإن لم يأت حتى الآن، لكنه متحقق الوقوع؛ لأن الله قضاه، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن. وعلى المؤمن أن يعلم أن الإرادة إرادتان: إرادة كونية، وإرادة شرعية؛ فالإرادة الكونية هي المشيئة، وأما الإرادة الشرعية هي المحبة وبينهما تفاوت، وإتقان هاتين الإرادتين، والفرق بينهما تجعل طالب العلم عند تعلمه مسائل القدر مطمئنًا غير مشوش ولا موسوس.

وضابط الإرادة الكونية أنها تقع لا محالة، فما أَرَادَهُ اللهُ كونا لا يمكن أن يرد، وتكون فيما يحبه الله وما لا يحبه، فالله أراد وجود الشيطان وأراد ووسوسته لابن آدم، فهذه إرادة كونية؛ لأنها وقعت، وفيما لا يحبه الله، وقال الله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام:125]، فهنا الإرادة أيضًا كونية؛ لأن الإضلال غير محبوب لله، ولأن الله إذا أراد إضلال أحد ضل لا محالة. أما الإرادة الشرعية فهي المحبة، وضابطها أنها غير حتمية الوقوع، ولا تكون إلا فيما يحبه الله تعالى فقط.

وأيضًا، الإذن قد يكون إذنًا كونيًا، وقد يكون شرعيًا، وكذلك القضاء فقد يكون قضاء كونيًا، وقد يكون شرعيًا، قال تعالى: ﴿فَقَضَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ [فصلت:1]، فهذا القضاء قضاء كوني؛ لأن السموات موجودة لا محالة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ١٦٧﴾ [الأعراف:167]، فالإذن هنا إذن كوني؛ لأنه وقع حقيقة، فقد بعث الله عليهم من سامهم سوء العذاب وهو بختنصر، وأيضًا، وقع فيما لا يحبه الله، فإن قلت: لم أوقعه وهو لا يحبه؟ قلنا: قدره لحكمة أَرَادَهَا وهي رد الظالم عن ظلمه.

أما قول الله تعالى: ﴿وَاقْضِ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء:23]، فالقضاء هنا قضاء شرعي؛ لأنه في محاب الله، ولا يشترط وقوعه، فهناك من يعبد الله، وهناك من يعبد غيره، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُنْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ١٦﴾ [الإسراء:16]، فالأمر في هذه الآية أمر شرعي، وعلى القراءة الثانية المتواترة {أَمَرْنَا} يكون أمرًا كونيًا.

ثم إن الإرادة الإلهية، وأقسام الموجودات أربع:

الأول: مرادٌ لله كونا وشرعًا.

الثاني: غير مراد لله كونًا ولا شرعًا.

الثالث: مراد لله كونًا، غير مراد شرعًا.

الرابع: مراد لله شرعًا، غير مراد كونًا.

أما الأول: كإيمان المؤمن، وإيمان المؤمن مراد لله شرعًا؛ لأن الله يحبه، وإيمان أبي بكر مراد لله شرعًا لأن الله يحبه، وأيضًا، مراد كونًا، من حيث أنه وقع لا محالة، فإله كتبه في اللوح المحفوظ مؤمنًا، وأودع في قلبه حب الإيمان.

أما الذي لا يراد كونًا ولا شرعًا فكفر المؤمن، فإنه غير مراد كونًا؛ لأنه لم ولن يقع، وغير مراد شرعًا؛ لأن الله لا يحب كفر المؤمن، ولا يحب كفر أهل الأرض، قال الله تعالى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر:7]، وجه الشاهد: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر:7]، أي: لا يحب لهم الكفر؛ فذلك أرسل الرسل ليهدوا الناس؛ فمنهم من هدى الله، ومنهم من حقت عليه الضلالة، وهؤلاء قال الله عنهم: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة:6].

وأما المراد كونًا، غير مراد شرعًا فهو كفر الكافر؛ فإله يبغض الكفر، لكنه أراد له حكمة علمها، فإله يعلم أن الكافر لا يريد الإيمان، وأجلى ما يكون مثالا لهذا الأمر قول الله تعالى: ﴿وَأَمَّا تَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صُعُقَةُ الْعَذَابِ الْهُونَ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت:17]، فكانت عاقبتهم الكفر، والعياذ بالله. وأما المراد شرعًا، غير مراد كونًا فهو إيمان الكافر، فإله لم يرده كونًا، لكنه مراد شرعًا؛ لأن الله أرسل الرسل لإيمان البشر، وإيمان أبي جهل مراد شرعًا؛ لأن الله يحب الإيمان، والرسول ذهب إليه، لكنه لم يؤمن، فإله أراد كfre كونًا.

ولا بد للعبد أن يؤمن أن له مشيئة يحاسب عليها ويعاقب، وأنها تابعة لمشيئة الله، وبذلك يحفظ اعتقاده من فرقتين ضالتين: الجبرية التي محضت النظر كونًا فجعلت المشيئة كلها لله، فالعبد في أقدار الله كحركة المرتعش، والقدرية التي محضت النظر شرعًا فنفت عن الله المشيئة وخلق فعل العبد، فجعلت مع الله خالقًا ومريدًا غيره.

المرتبة الرابعة: هي مرتبة الخلق، فإله خلق كل شيء، قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَّحْدُ الْقَهْرُ﴾ [الرعد:16]، ويندرج تحت هذا العموم جميع الخلق وأفعالهم.

والخلق خلقان: خلق إيجاد من عدم، وخلق تحويل من صورة إلى صورة، وبهذا نزيل شبهة المتكلمة عندما يقولون: أنتم تقولون: الله خالق كل شيء، يعني: لا خالق مع الله؟ فنقول: نعم، فيقولون: ماذا تقولون في قول الله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون:14]، فإن ظاهر الآية تدل على أن هناك مشاركة؟

الجواب عليهم: نقول الخلق قسمان: خلق إيجاد من عدم، وخلق تحويل من صورة إلى صورة، وبهذا التقسيم نخرج من هذه الشبهة؛ لأن خلق الإيجاد من عدم هو مما انفرد الله به، فلا يمكن لأحد أن يخلق من العدم إلا هو جل في علاه، وقد كنّا جميعًا عمدًا ثم خلقنا الله، قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾

﴿[الإنسان:1].﴾

أما الخلق المقيد: فهو التحويل من الصورة إلى صورة أخرى، فهذا قد يشترك فيه البشر، كما في تحويل الحديد إلى سيارة، أو تحويل الخشب إلى باب أو نافذة، فهذا التحويل يسمى خلقًا، فيقال: هذا الرجل خلق بابًا من الخشب أي: صنع بابًا من الخشب، ويكون محل الآية: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ ﴿١٤﴾ [المؤمنون:14]، إنما هو في خلق التحويل من صورة إلى صورة.

ومن المهم في مرتبة الخلق الرد على القدرية الذين يقولون أن العباد خلقوا فعل أنفسهم، والحق أن الله خلق أفعال العباد كلها، ومنها: فعل الزنا والسرقه والكفر وسائر المعاصي فكلها مخلوقة لله، لكنها تنسب إلى الله خلقًا وإيجادًا، وتنسب إلى العبد فعلًا وكسبًا، يعني: أن الزاني والسارق منسوب إليه الزنا والسرقه، ولكن العبد بإرادته مع فعله مخلوق لله جل في علاه.

والدليل على أن الأفعال مخلوقة لله، عموم قوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الرعد:16]، فأفعال العباد تدخل في هذا العموم، إلا أن القدرية - مجوس هذه الأمة - الذين أنكروا خلق أفعال العباد، جعلوا مع الله خالقًا آخر فقالوا: العبد خالق فعل نفسه! ولذلك قال النبي ﷺ عنهم: «الْقَدَرِيَّةُ مَجُوسٌ هَذِهِ الْأُمَّةُ، إِنْ مَرَضُوا فَلَا تُعَوِّذُهُمْ وَإِنْ مَاتُوا فَلَا تَنْشَهُوهُمْ»⁽¹⁾.

وجه الشبه بين قدرية هذه الأمة والمجوس:

وجه الشبه: أن المجوس تعتقد للكون خالقان: خالق للظلمة، وخالق للنور، وهم يفضلون خالق النور، أما القدرية فتعتقد أن البشر يخلقون أفعال أنفسهم، فشابهوا المجوس بهذا، حيث جعلوا مع الله خالقًا آخر.

الرد عليهم:

١- قوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الرعد:16]، ووجه الدلالة: العموم، فيدخل تحته فعل العبد.

٢- أما على الخصوص، قال الله جل في علاه: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات:96]، وهذه الآية فيها التصريح بأن الله خلق أفعال العباد، ووجه الدلالة من وجهين: على اعتبار أن "ما" مصدرية فيكون التقدير: والله خلقكم وعملكم، وهذا صريح في الدلالة، وإن كانت "ما" موصولة فيكون التقدير: والله خلقكم والذي تعملون، ووجه الدلالة منها من القياس الأولوي، أي: خلق الذي علمتموه فمن باب أولى أن يكون قد خلق العمل.

٣- وأيضًا، من أدلة السنة قوله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَصْنَعُ كُلَّ صَانِعٍ وَصَنَعَتُهُ»⁽²⁾ ووجه

(1) حسنه الألباني في صحيح أبي داود في (4691) وكذا رواه الحاكم (286) والبيهقي (21391) والطبراني في "الأوسط" (2494) والبخاري في "شرح السنة" (78/1) وابن عساکر في "تاريخ دمشق" (62/19) وابن أبي عاصم في "السنة" (268) وغيرهم.
(2) صحيح، فتح الباري لابن حجر (507/13).

الدلالة: عن طريق اللزوم، فإن كان خلق صنعته التي هي من فعله، فمن باب أولى أن يكون خلق فعله الذي صنع هذه الصنعة.

٤- ومن النظر نقول: فعل العبد ناشئ عن إرادة العبد، وإرادة العبد مخلوقة لله، فإن كانت الإرادة مخلوقة لله فالناتج عن الإرادة أيضاً يكون مخلوقاً لله .
قالت القدرية: الله لا يتحكم في أفعال العباد، بل إن الإنسان يدخل الجنة بعمله أجرة، فهم لا ينظرون إلى أولية فضل الله عليهم، ولا يعترفون بحديث النبي ﷺ: «سَدِّدُوا وقاربوا، وأبشروا، فإنه لن يُدْخَلَ الْجَنَّةَ أَحَدًا عَمَلُهُ قَالُوا: ولا أنت؟ يا رسول الله، قال: ولا أنا، إلا أن يتَّعَمَّديني الله منه برحمة، واعلموا أن أحبَّ العملِ إلى الله أدومُهُ وإنَّ قُلَّ»⁽¹⁾.

والرد عليهم:

مبدأ الخير كله من الله، والأفعال الحسنة كلها من الله، فمنهم من هدى الله، ومنهم من حقت عليه الضلالة، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ٦ فَسَنِّيْهِ لِلْإِسْرَى ٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ٩ فَسَنِّيْهِ لِلْإِسْرَى ١٠﴾ [الليل: 5 - 10]، والله يقول: ﴿فَمَنْ يُرِدْ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذْلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ١٢٥﴾ [الأنعام: 125]، فالله جعل دخول العبد للجنة برحمته، وجعل عملهم سبباً لنيلها، والتمايز بينهم في الدرجات.

مشروعية الاحتجاج بالقدر على المصائب

والله خالق الخير والشر، خلق الخير لذاته، ولم يخلق شراً محضاً، فالخير في قضائه وأفعاله، والشر في مفعولاته ومقضيياته ومآله إلى خير، فإذا قدر الله على العبد المصائب، أو المعائب فذلك لئال الخير، وعلى الإنسان عبودية في قدر المصائب، وعبودية في قدر المعائب.

والمصائب: فهي التي تنزل وتطرأ على العبد فيبتلى بها ولا يد له في دفعها، كمرض أو موت قريب أو حبس أو ضنك أو فقر، كل هذا قدر لا يستطيع الإنسان دفعه، وعليه فيها عبادة: أن يقر أنها بقدر الله، وأنها مكتوبة في اللوح المحفوظ، فيؤمن بذلك ويصبر ويسترجع، وله أن يحتج بالقدر على هذه المصيبة.

فإن رضي عن الله في هذه المصيبة فهذا أرقى منزلة من الصبر لكنه ليس بلازم، فالواجب هو الصبر وعدم التسخط، قال النبي ﷺ: «إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى»، وقال عند موت ابنه: «إِنَّ الْعَيْنَ لَتَدْمَعُ وَإِنَّ الْقَلْبَ لَيَحْزَنُ وَإِنَّا لَفَرَاكُ يَا إِبْرَاهِيمَ لَمَحْزُونُونَ»، وقال في رواية أخرى: «وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى رَبُّنَا»، أي: لا نقول ما يغضب ربنا.

وفعل السلف فيه كل العجب من الرضا بقضاء الله، نقل بسند صحيح عن عمر بن عبد العزيز قوله: (أصبحت ومالي سرورٌ إلا في مواضع القضاء والقدر)، يعني: أسعد

(1) صحيح مسلم (2818)، أخرجه البخاري (6464) ..

في صباحي أو مساءي؛ لأني تحت قدر الله يلقيني حيث يشاء، إن كان في السراء فله الشكر، وإن كان في الضراء فله الصبر، وهذا محض التسليم والتوكل على الله جل في علاه.

والرضا بالقدر لا ينافي الحزن والبكاء، فقد بكى النبي ﷺ عند موت ابنه، وهو أكمل الخلق عبادة لله، وحسن ظنّ به، ورضي عنه، وهذا الحال أكمل من حال من يتحامل على نفسه كما فعل الفضيل بن عياض -، فقد ورد أنّه ضحك في جنازة ابنه، فسأله عن ذلك، فقال: أَرْضَى بِقَدْرِ الرَّبِّ!

والحق أنّ أكمل الأحوال ما كان عليه النبي ﷺ، وبكاؤه عند موت ابنه دليل على أنّ الحزن لا ينافي الرضا إنما هي رحمة يرحم الله بها عباده.

أما قدر المعاييب: فهو ابتلاء الله العبد بالمعصية، ولنا فيه عبادتان:

العبادة الأولى: أن نعتقد أنّ الله قدر لنا ذلك بتقصيرنا وفعلنا، والدليل قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ [النساء: 79]، وقال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ٤١﴾ [الروم: 41]، وقال تعالى: ﴿وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: 30]، فأول التعبد لله بقدر المعائب أن نقر بأنّ هذا من قدر الله، وأنّ الله جعل للعاصي إرادة المعصية؛ فلما زاع أزاغ الله قلبه.

العبادة الثانية: أن يراجع العبد نفسه منكسراً متذللاً خاضعاً لله فيتوب ويثوب، ولسان حاله يقول: وعجلت إليك رب لترضى، وليس له أن يحتج بالقدر على المعصية، لكن إن تاب من المعصية جاز له ذلك، وليس لأحد أن يعيّرهُ على تلك المعصية، فما من أحد يعيّرُ أحداً بذنب إلا وسيبغله الله بهذا الذنب جزاءً وفاقاً.

فإن قيل: ما دليلكم على الاحتجاج بالقدر على المصائب، وعلى المعائب بعد التوبة منها؟

الجواب: حديث احتجاج موسى وآدم .، كما في الصحيحين عن النبي ﷺ قال: «اِحْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى؛ فَقَالَ لَهُ مُوسَى: أَنْتَ آدَمُ الَّذِي أَخْرَجَتْكَ حَاطِيْنُكَ مِنَ الْجَنَّةِ؟! فَقَالَ لَهُ آدَمُ: أَنْتَ مُوسَى الَّذِي اصْطَفَاكَ اللَّهُ بِرِسَالَاتِهِ وَبِكَلَامِهِ، ثُمَّ تَلَوْنِي عَلَى أَمْرِ قُدْرٍ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ؟! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى، مَرَّتَيْنِ»، فأدم ُ كانت معه الحجة، لكن أين هذه الحجة؟ الجواب: اختلف العلماء في الحجة، فقال بعضهم: أنّ موسى ُ عيّر آدم ُ بالذنب وقد تاب منه فكان له الحق أن يحتج بالقدر بعد التوبة منه، وهذا الكلام - وإن كان جيداً في مضمونه - لكنه خطأ فاحش في حق موسى ُ، لذا هذا التأويل لا نقبله؛ فموسى أعلم أهل الأرض في زمانه، وأتقى الناس لله، فلا يتصور منه أن يعيّر أحداً بذنب تاب منه، وهو يعلم أنّ التائب من الذنب كمن لا ذنب له، كما حدث واقعاً معه، فبنو إسرائيل لما تابوا تاب الله عليهم، بل وردّ عليهم أرواحهم، فإن قيل: وهل موسى يعلم أنّ آدم تاب من ذنبه؟

الجواب: نعم، موسى ؑ يعلم ذلك؛ لأنَّ توبة آدم موجودة في التوراة، فالله كتب أكله من الشجرة قبل أن يخلق الخلق بخمسين ألف سنة، فإن كان هذا مكتوباً فسيكتب معه التوبة، فلا يمكن أن يتصور بعد ذلك أنَّ موسى ؑ يغيّر آدم بذنب قد تاب منه، فلذا هذا القول لا نقبله.

أما التأويل الثاني وهو الصحيح الراجح-إن شاء الله-: أنَّ موسى ؑ عاتب آدم على المصيبة الواقعة بسبب الذنب، والدليل على ذلك، قال: «أخرجتنا ونفسك من الجنة»، فالمعاتب على المصيبة، وليس على الذنب. ويجوز أن نحتج بالقدر على المصائب، فالخروج من الجنة مصيبة نزلت على آدم ؑ، فعاتبه موسى ؑ على ذلك، قال: «نُتُّمُ تَلُومُنِي عَلَى أَمْرِ قُدِّرَ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ؟!»، وهذا هو التأويل الصحيح، ونخلص من ذلك إلى أنَّ الإنسان له أن يحتج بالقدر على المصائب، وعلى المعائب إن تاب منها، هذا هو المجمل في مسألة القدر.

الإيمان

قال المصنف: [الإيمان قول وعمل والإيمان قول باللسان وعمل بالأركان، وعقد بالجنان، يزيد بالطاعة وينقص بالعصيان، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُو إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ٥﴾] [البينة: ٥] فجعل عبادة الله تعالى وإخلاص القلب وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة كله من الدين، وقال رسول الله ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق». فجعل القول والعمل من الإيمان، وقال تعالى: ﴿فَرَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [التوبة: ١٢٤] وقال: ﴿لِيَزَادُوا إِيمَانًا﴾ [الفتح: ٤] وقال رسول الله ﷺ: «يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه مثقال برة أو خردلة أو ذرة من الإيمان» فجعله متفاضلاً.

الإيمان لغة معناه: التصديق، ودليل ذلك، قول الله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ١٧﴾ [يوسف: 17]، والسياق يفسر آخره أوله، فأوله قال: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ [يوسف: 17]، وآخره قال: ﴿وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ١٧﴾ [يوسف: 17]، فتبين لنا أنَّ الإيمان في اللغة معناه: التصديق.

والإيمان شرعاً هو: التصديق المقرون بالعمل، وهذه لفظة مهمة على كل طالب علم أن يحفظها حتى يفرّ من اعتقاد المرجئة، وهي أنَّ الإيمان قول وعمل. وللإيمان معان ثلاثة بحسب ما يتعدى به، فليس الإيمان محصوراً بالتصديق فقط؛ إذ أنَّ حصر معناه في التصديق هذا اعتقاد المرجئة، ولا يخفى على كل ذي لب ما لهذا الاعتقاد من آثار هدامة للدين.

قلت: الإيمان يتعدى بنفسه، ويكون معناه: التأمين من الخوف، قال تعالى: ﴿لَا يَلْفُ قُرَيْشٌ ۙ ۱ إِفْهَمَ رَحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصِّيفِ ۙ ۲ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۙ ۳ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ۙ ۴﴾ [قریش: 1 - 5].

ويتعدى بالباء، ويكون معناه: التصديق، قال الله تعالى: ﴿أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِ﴾ [الأحقاف: 31]، أي: آمنوا بالرسول، بمعنى: صدقوا برسالته، وهذا كقول الشافعي: آمنت بالله، وبما جاء عن الله، أي: صدقت بوجوده وربوبيته وإلهيته، قال: وآمنت بما جاء عن الله، أي: صدقت برسالاته السماوية، قال: وآمنت برسول الله، أي: صدقت أن محمداً مرسل من قبل ربه، المقصود أن الإيمان إذا تعدى بالباء يكون معناه: التصديق.

ويتعدى باللام، ويكون معناه: الاتباع والانقياد والإذعان، الدليل: قوله تعالى عن إبراهيم الخليل: ﴿فَأَمَّنَ لَهُ لُوطٌ﴾ [العنكبوت: 26] أي: اتبعه لوط، وهذا صريح بأن الإيمان إذا تعدى باللام كان بمعنى الانقياد والإذعان والاتباع، وهذا معنى الإيمان لغة. هذا المجمل إن أتقنته تعلمت أصول الإيمان الصحيحة، واستقر لديك أنه تصديق مقرون بعمل، فهو ليس محض تصديق كما تقول المرجئة، بل تصديق مقرون بعمل وانقياد وإذعان.

وأقول السلف في معنى الإيمان متوافرة، متضافرة بالأسانيد الصحيحة في أنه: قول وعمل ونية، جاء ذلك عن السفيانيين والشافعي وأحمد ووكيع - + -، وغيرهم، فلا نجد أحداً من السلف قال أن الإيمان قول فقط، أو قول وتصديق بلا عمل! فالإيمان اعتقاد بالقلب، وقول باللسان والجنان، وعمل بالأركان، أي: قول وعمل واعتقاد.

قول باللسان: فلا تدخل الإسلام إلا بقول لا إله إلا الله، وإذا كان الرجل كافراً، فلن يدخل الجنة إلا بقوله: لا إله إلا الله، والدليل على ذلك حديث الصحيحين: فعن أبي هريرة - ع - أن رسول الله ﷺ قال: «أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ...»⁽¹⁾ والشاهد: يقولوا، أي: أن القول باللسان، ودليل ذلك أيضاً، أن النبي ﷺ ذهب إلى عمه وهو يموت فقال: «فَقَالَ: أَيُّ عَمِّ قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، كَلِمَةً أَحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ»⁽²⁾.

وقول بالجنان، ومعناه: التصديق، وهذا هو التفسير لقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ [الحجرات: 15]، فالتصديق الجازم في القلب ركن من أركان الإيمان.

وعمل بالأركان، أي: عمل بالجوارح، وهذه جليّة في قول تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ۙ ٤٣﴾ [البقرة: 43]، وقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجْهَدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۙ ٣٥﴾ [المائدة: 35].

(1) صحيح ابن ماجه (3187).

(2) صحيح البخاري (3884).

وأما قول النبي ﷺ: «من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه به؛ مات على شعبة من نفاق»⁽¹⁾ وهذا دليل على أنّ الظاهر مرتبط بالباطن.

الغرض المقصود: أنّ العمل بالأركان، أي: العمل بالجوارح، كإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت لا تكون إلا بالجوارح، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: 97].

ويدخل في العمل أيضاً عمل القلب؛ فعمل القلب ركن ركين من هذا الدين، وهو الاستسلام والخضوع والانقياد لله، ويدخل في الإيمان كل أعمال القلب المشهورة كالთكل والرجاء والخوف وغير ذلك، إلا أنّ أصله هو: الاستسلام والانقياد والإذعان التام لله، وقد مدح الله إبراهيم بهذا الإذعان والاستسلام، قال: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِربِّ الْعَالَمِينَ ۝١٣١﴾ [البقرة: 131].

مسألة الإيمان يزيد وينقص

ومن المسائل التي تتعلق بالإيمان: الإيمان يزيد بالطاعات، وينقص بالمعاصي، وقد اختلف العلماء في ذلك على ثلاثة أقوال:

القول الأول: قول المرجئة الذين قالوا: لا يزيد ولا ينقص، وعندهم إيمان جبريل يستوي مع إيمان أبي بكر، وإيمان أبي بكر كإيمان أحاد الأمة! ندعو الله أن يهديهم إلى سواء السبيل؛ فهم من أضل الطوائف في الإيمان.

القول الثاني: قالوا: يزيد ولا ينقص، وهؤلاء هم الخوارج، وقد نسب هذا القول أيضاً للإمام مالك - - - ووجهه: أنّ كل الأدلة التي وردت في الكتاب تدل على الزيادة،

ولم يرد ما يدل على النقصان، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: 17]، والحق أنّ الذي ثبت عن الإمام مالك - - - هو الموافق لأهل السنة

والجماعة

القول الثالث: قالوا: يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية، وهؤلاء هم أهل السنة والجماعة، والدلالة على ذلك من الكتاب، والسنة، ومن النظر أيضاً، فمن الكتاب:

١- قول الله تعالى: ﴿لِيَزَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح: 4].

٢- وقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: 17].

٣- وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أَنزَلْنَا سُورَةً فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۝١٢٤ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كُفْرُونَ ۝١٢٥﴾ [التوبة: 124 - 125]، وهذه الآية فيها

دلالة على الزيادة، وعلى النقصان أيضاً، وذلك من قوله: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: 125]، يعني: نقصاً على النقص الذي هم فيه.

ومن السنة:

١- حديث النبي ﷺ في الصحيحين حيث قال: «يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ، تَصَدَّقْنَ وَأَكْثِرْنَ

(1) صحيح مسلم (1910).

الاستِغْفَارَ، فَإِنِّي رَأَيْتُكَ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ فَقَالَتْ امْرَأَةٌ مِنْهُمْ جَزَلَةٌ: وَمَا لَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ؟ قَالَ: تُكْثِرُنَ اللَّعْنَ، وَتَكْفُرُنَ الْعَشِيرَ، وَمَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلِ وَدِينٍ أَغْلَبَ لِيذِي لُبٍّ مِنْكُمْ قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا نُقْصَانُ الْعَقْلِ وَالْدِينِ؟ قَالَ: أَمَّا نُقْصَانُ الْعَقْلِ: فَشَهَادَةُ امْرَأَتَيْنِ تَعْدِلُ شَهَادَةَ رَجُلٍ فَهَذَا نُقْصَانُ الْعَقْلِ، وَتَمَكُّتُ اللَّيَالِي مَا تُصَلِّي، وَتُقْطِرُ فِي رَمَضَانَ فَهَذَا نُقْصَانُ الدِّينِ»⁽¹⁾ ووجه الشاهد: «وَمَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلِ وَدِينٍ»، فهذا تصريح بأن الدين ينقص عند عدم الصلاة والصوم - وإن كنَّ غير مطالبات في هذه الحالة بهما - لكنهنَّ أيضاً لا يزددن طاعة.

مسألة الاستثناء في الإيمان وقول العلماء في ذلك:

تبقى مسألة مهمة تتعلق بالإيمان، هي مسألة الاستثناء في الإيمان، ومعنى الاستثناء أن تقول: أنا مؤمن إن شاء الله، وهذه المسألة مختلف فيها، فبعض العلماء، قال: لا يجوز مطلقاً، وبعضهم قال: بالجواز، وبعضهم يرى التفصيل.

الفريق الأول: هم الأحناف، قالوا: لا يجوز مطلقاً، والذي يستثني في الإيمان مشرك؛ لأنه شاك، والله اشترط في الإيمان أن يكون إيماناً جازماً لا شك فيه، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ١٥﴾ [الحجرات: 15]، ووجه الشاهد: ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾، أي: لم يشكوا، وهذا شرط لقبول الإيمان عند الله، وأما قول الإنسان: أنا مؤمن إن شاء الله، دلالة على شكه.

الفريق الثاني: الشافعية، وهؤلاء قالوا: بالجواز مطلقاً، وعندهم للإنسان أن يقول: أنا مؤمن إن شاء الله، يقولها على ما يستقبل أو تبركاً أو على الحال كله سواء، واستدلوا بعموم الأمر بتقدمة المشيئة على كل فعل وقول، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ٢٣﴾ [الكهف: 23].

فلا تتعجب أخي الكريم إن سمعت حنفياً يصف شافعيًا بالشكافة، بل وصل الحال أن البعض كفروهم! وهناك فتوى مشهورة عن الأحناف بجواز زواج الحنفية من الشافعية قياساً على أهل الكتاب! مما سبق تبين أن القولين السابقين لا يخلوان من غلو وجفاء.

القول الثالث: القول بالتفصيل هو الصحيح - إن شاء الله - وهو قول جماهير أهل السنة والجماعة، وهؤلاء عندهم: يجب قول إن شاء الله في حالات، ولا يجب قولها في حالات: فيجب إن قالها للحال أو للمستقبل؛ لأنه لو قال أنا مؤمن حالاً ومستقبلاً فهذا يزكي نفسه، وكذلك يجب قولها عند نظره لما يختم به من الأعمال؛ لأنه لا يملك من أمره شيئاً، ولا يعلم إن كان سيختم عليه بالسينات أم لا، وأقوى ما يستدل به على ذلك ما جاء عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إصْبَعَيْنِ مِنَ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، كَقَلْبٍ وَاحِدٍ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ

(1) صحيح مسلم (79).

قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ»⁽¹⁾ ومن حديث النبي ﷺ: «بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فَنَآئِلًا كَقَطْعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُؤْمِسِي كَافِرًا، أَوْ يُؤْمِسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بَعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا»⁽²⁾، وثبت عن النبي ﷺ أنه قال: القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن إن شاء أقامها وإن شاء أزاغها.

فالتغيرات والتقلبات بيد الله، والعبد لا يملك من أمره شيئاً؛ فحتم الأعمال، والمستقبل بيد الله، وبذلك يتبين لك خطأ من يقول أنا مؤمن مركزياً نفسه، فمثل هذا واجب عليه قول إن شاء الله؛ فمن الممكن أن يأتي بالفرائض، وينتهي عن المحرمات، ويتقرب إلى الله بكل الطاعات، وكل أعماله تكون هباء منثوراً؛ لأنه لم يخلص عمله، فإن قال: أنا مؤمن، فهذا قد زكى نفسه، وتركية النفس لله، قال: ﴿فَلَا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ۖ﴾ [النجم:32]، ومدارها على ما في القلب، والقلب بيد الله. أما إن قالها في الوقت الحالي فعليه ألا يشكك في إيمانه، بل يقول: أنا مؤمن، دون أن يقول: إن شاء الله، لنفي الشك عن نفسه.

لوازم إقرار الإيمان في القلب:

من لوازم إقرار الإيمان في القلب: محض التسليم لأوامر الله، وأوامر رسوله ﷺ، ويدل على ذلك:

١- قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلًّا مُبِينًا﴾ [الأحزاب:36]، سواء كان خبراً أو إنشاءً، أو أمراً أو قضاءً.

٢- وأيضاً، من قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء:65].

٣- وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى، قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَنْ يَأْبَى؟ قَالَ: مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى»⁽³⁾.

ومن الأئمة الذين ضربوا لنا أروع الأمثلة في التسليم لله ورسوله، والنهي عن التعصب المقيت الإمام الشافعي حيث اشتهر عنه قوله: إذا صح الحديث فهو مذهبي، وهذا حجة على كل مقلد متعصب للشافعي تاركاً الدليل وراء ظهره، فمثل هذا يقال له: كن كالشافعي في تسليمه وتعظيمه لقول الله ورسوله، فهذا هو سبيل النجاة حقاً!

وما دمنّا تحدثنا عن إمام المذهب الإمام الشافعي المجدد، والذي له المنة على كل شافعي، لا بد أن نتحدث عن الإمام البيهقي الذي له المنة على الشافعي؛ حيث أخذ كل مسألة تكلم فيها الشافعي بغير دليل فدلل عليها، ثم نظر إلى الأحاديث التي علق الشافعي القول فيها على صحة الحديث فصحّحها، وبيّن أنّ هذا هو مذهب الشافعي.

نخلص إلى أنّ الرجل السلفي الذي يؤمن ويعتقد ما اعتقده صحابة رسول الله ﷺ،

(1) صحيح مسلم (2654).

(2) صحيح مسلم (118).

(3) سبق تخريجه.

ويؤمن بكل ما جاء عن الله، وعن رسوله مسلماً تسليماً تاماً لا يعارض قول النبي ﷺ بقول فقيه ولا بهوى ولا يقدم العقل على النقل كما سنذكر.

كانت هذه مقدمة طرحتها بين يدي مسألة المصنف، وهي الإيمان بكل ما أخبر به رسول الله ﷺ.

فصل

قال المصنف: [الإيمان بكل ما أخبر به الرسول ويجب الإيمان بكل ما أخبر به النبي ﷺ وصح به النقل عنه فيما شاهدناه، أو غاب عنا، نعلم أنه حق، وصدق، وسواء في ذلك ما عقلناه وجهلناه، ولم نطلع على حقيقة معناه، مثل حديث الإسراء والمعراج وكان يقظة لا مناما فإن قريشا أنكروته وأكبرته، ولم تنكر المنامات. ومن ذلك أن ملك الموت لما جاء إلى موسى ؑ ليقبض روحه لطمه فقفاً عينه فرجع إلى ربه فرد عليه عينه، ومن ذلك أشراط الساعة، مثل خروج الدجال ونزول عيسى ابن مريم ؑ فيقتله وخروج يأجوج ومأجوج، وخروج الدابة، وظلوع الشمس من مغربها، وأشباه ذلك مما صح به النقل. وعذاب القبر ونعيمه حق وقد استعاذ النبي ﷺ منه، وأمر به في كل صلاة وفتنة القبر حق، وسؤال منكر ونكير حق، والبعث بعد الموت حق، وذلك حين ينفخ إسرافيل ؑ في الصور ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ [يس: ٥١]. [يس: ٥١]، ويحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة، غرلاً بهما، فيقفون في موقف القيامة حتى يشفع فيهم نبينا محمد ﷺ، ويحاسبهم الله تبارك وتعالى وتنصب الموازين، وتنتشر الدواوين وتتطاير صحائف الأعمال، إلى الإيمان والشمالك ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ ٧ ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ ٨ ﴿وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ ٩ ﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ ١٠ ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا﴾ ١١ [الانشقاق: ٧ - ١١] ﴿وَيُصَلِّي سَعِيرًا﴾ ١٢ [الانشقاق: ١٢] والميزان له كفتان ولسان توزن به الأعمال ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ١٠٢ ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ ١٠٣ [المؤمنون: ١٠٢ - ١٠٣]

ولنبينا محمد ﷺ حوض في القيامة ماؤه أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل، وأباريقه عدد نجوم السماء، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً والصراط حق يجوزه الأبرار، ويزل عنه الفجار،...].

كان المصنف يقول: لا تعترض على أحوال رسول الله ﷺ، ولا على ما أخبر به، أو ما جرى من كرامات على يد أصحابه، أو معجزات على يده ﷺ، أو ما جرى من أمر الله، فكل ذلك لا تعترض عليه بعقل خرب تصد به هذه السنن، كأن تقول: نمر هذه السنن على عقولنا، فإن قبلها العقل أخذنا بها، وإلا رددناها على صاحبها، وهذا الهوى هو الذي جرّ كثيراً من أهل البدع والضلالة لأن يطعنوا في البخاري ومسلم وأصحاب

السنن، بل ويطعنوا في أبي هريرة ؓ؛ لأنهم لمّا قدموا أهوائهم العفنة وعقولهم الخربة صُدُّوا عن أحاديث النبي ﷺ فردوها.

لذلك إذا أردت أن تختبر إيمان العبد، فقل له: قد قال رسول الله مدللًا على مسألة تخالف هواه وتخالف ما عاش عليه مع آبائه، فإن رأيته قال: سمعت وأطعت، فاعلم أنّ الإيمان قد تغلغل في قلبه، وإن رأيته يعترض باعتراضات لا تقوى أن تقف أمام حديث النبي ﷺ فاعلم أنّه يتبع هواه -كما سنبين-.

أولاً: وجوب الإيمان بحادثة الإسراء والمعراج:

أتى المصنّف لنا بواقعة هي من أهم الوقائع في تاريخ البشرية، وفيها التسلية للنبي ﷺ، واقعة الإسراء والمعراج.

فبعدما اشتد الكرب على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتكالب عليه الكفار، واتهموه بالكذب الأباطيل؛ فقالوا: ساحر، وقالوا: مجنون، وقالوا: يفرّق بين المرء وزوجه، وبين الابن وأبيه، ولم يكتفوا بهذه الاتهامات الباطلة فحسب، بل تمادى بهم الحال إلى أن أتوا بسلى الجزور فوضعوها على ظهره الشريف وهو يصلي في الكعبة، ولم يكتفوا بذلك أيضاً، فقد تأمروا على قتله أو طرده وتشريده وإبعاده، والله يعلم بحزنه الشديد وهَمُّه العميق؛ ففرج عنه رحمة منه، ففي ذات ليلة جاءه جبريل فأخذه بالبراق وذهب به إلى بيت المقدس وشرفه أعظم تشريف إذ صلى إماماً بالأنبياء قاطبة، ثم أخذه جبريل وصعد به معراجاً إلى السماء وفي كل سماء يطرق باب السماء فيقول الملك: من؟ فيقول: جبريل، فيقول: ومن معك؟ فيقول: محمد ﷺ، فيقول: أو قد بعث؟! فيقول: اللهم نعم، فيقول: مرحباً بالنبي الصالح، والأخ الصالح، إلى أن انتهى به إلى سدرة المنتهى، وسمع صريف الأقاليم، وفرض الله عليه وعلى أمته في ذلك اليوم خمسين صلاة، ثم خففها إلى أن جعلها خمس صلوات في اليوم والليلة، وخمسين في الأجر، ورجع رسول الله ﷺ إلى مكة فنام بقية الليلة عند البيت أو عند الحجر، وجاءه أبو جهل ومن معه من صناديد قريش فأخبرهم أنه أسري به إلى بيت المقدس فكذبوه، ثم ذهبوا إلى أبي بكر ؓ يشككون في صدق الصادق المصدوق، فقالوا: أرايت ما يقول صاحبك؟ قال: ما يقول؟ قالوا: يقول: إنّه أسري به إلى بيت المقدس، فقال: إن كان قد قال فقد صدق! فقالوا: نحن نضرب أكباد الإبل إلى بيت المقدس وهو في ليلة واحدة يذهب ويجيء! فقال: إنّي أصدقه فيما هو فوق ذلك، أصدقه في خبر السماء؛ ولذلك لقب بالصديق، ثم ذهبوا إلى الرسول ﷺ مرة، فقالوا: صف لنا بيت المقدس؟ يقول النبي ﷺ: «فقد غابت عني نواح من بيت المقدس فاهتممت لذلك أو قال: اغتممت لذلك، فجاءني

جبريل بصورة بيت المقدس»، فأخذ النبي ينظر فيه كأنه صورة في شاشة ينظر فيها ويقص عليهم، وكانوا قد وصلوا إلى بيت المقدس وعرفوا دقائقه، فأتى بكل دقيق وجليل، ثم قال لهم: إنّ عير فلان تأتيكم من خلف الجبل الآن، فوجدوا العير كما قال.

هذا هو الإيمان والتسليم التام والمراد من كل مؤمن ومسلم أن يكون مستسلمًا لأوامر الله ورسوله ﷺ، وأن يسلم لقضاء الله وقضاء رسوله ﷺ.

الفوائد المستنبطة من حادثة الإسراء والمعراج:

أولاً: تقديس الله بهذا الإسراء؛ لأنهم يستبعدون على قدرة الله أن يأتي بالبراق فيأخذ النبي ﷺ في ليلة واحدة إلى بيت المقدس ثم إلى السماء السابعة ويرجع، يستبعدون ذلك على قدرة الله، وهذا قدح وتنقيص فيه - جل في علاه - ولذلك صدر سبحانه الآية بقوله: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء:1]، أي: تقديسًا لله فهو القادر العلي القوي القهار الذي إذا أراد شيئًا قال له كن فيكون .

ثانيًا: بيان رحمة الله بعباده، وأن العقوبة لا بد أن تكون للمؤمنين، وأن الله لا يترك عباده للشياطين، وقد جاء من دعائه: «إلى من تكلني إلى بعيد يتجهمني»، وإن كان الحديث فيه ضعف، إلا أن الله لا يترك عبده للشيطان أبدًا؛ فإله أرحم بعباده من امرأة بابنها وجدته في السبي فأخذته إلى صدرها وأرضعته، فيقول ﷺ: «أرأيتم هذه الأم ملفية بابنها في النار؟! قالوا: لا والله، فقال النبي ﷺ: فإله أرحم بالعبد من أم هذا بهذا» ورحمة الله ورأفته بنبيه وخليته محمد ﷺ أن أسرى به تسلية وتفريجًا للكربة التي عاشها.

ثالثًا: أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمتل فالأمتل، ونستنبط ذلك مما وقع للنبي ﷺ، فعندما قصَّ عليهم ما حدث معه، فلا بد أن التيار العارم سيكون عليه، وفي هذا تسلية لكل من يتمسك بالحق على قدم راسخة، فإن الأمة وإن وقفت بأسرها ضده، يبقى هو بقدم راسخ متمسكًا بالحق.

فمتى أخي الكريم تبينت لك المسألة بدليلها من كلام الله ورسوله، فلو وقف أمامك من وقف، لا تنزعزع عن ما تعتقده أنه الحق، فشخصية طالب العلم الراسخ لا يمكن أن تنزعزع، ولك في رسول الله أسوة حسنة، يعلم أنه سيكذب ويتهم بالاتهامات الباطلة، وهذا من البلاء الشديد، ومع ذلك صبر وثبت على الحق، أما من كان مهزورًا يتبع كل ناعق فهذا لا يرجى منه الخير، ولا يمكن للأمة أن تركز عليه في الملمات.

الإسراء والمعراج بالجسد والروح معًا

من الأمور التي نتكلم عليها عند هذه القصة العظيمة: أن الإسراء والمعراج بالجسد والروح، وهذا أمر اختلف فيه أهل السنة والجماعة، على أقوال: فمنهم من قال: أن الإسراء كان في المنام فقط، ومنهم من قال: أنه كان بالروح دون الجسد وهذا لازم المنام، والصحيح الراجح الذي عليه أهل التحقيق من أهل العلم أن الإسراء بالنبي ﷺ كان بالجسد بالروح، وهذا ثابت بالأثر والنظر:

أما الأثر: فقد قال الله تعالى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ [الإسراء:1]، والباء هنا للمصاحبة والإصاق، وباء المصاحبة

تعني أنَّ الاسراء والمعراج كان بكلية الرسول ﷺ جسداً وروحاً، وهذا جاء في الصحيحين عن النبي ﷺ أنَّ جبريل أتاه بالبراق، وركب البراق -حقيقة- وأن البراق كان يضع رجله حيث ينتهي بصره، فغير متعذر أن يصل إلى المسجد الأقصى بدقة أو دقيقتين، بل وأسرع من ذلك، وأنه عرج به إلى السماء.

وفي حادثة الاسراء والمعراج شقَّ صدر النبي ﷺ، فقد جاء في الصحيحين: «...فَشَقَّ جَبْرِيْلُ مَا بَيْنَ نَحْرِهِ إِلَى لَبْتِهِ حَتَّى فَرَّغَ مِنْ صَدْرِهِ وَجَوْفِهِ، فَعَسَلَهُ مِنْ مَاءٍ زَمْزَمَ بِيَدِهِ، حَتَّى أَنْقَى جَوْفَهُ، ثُمَّ أَتَى بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ فِيهِ تَوْرٌ مِنْ ذَهَبٍ، مَحْشُوًّا إِيْمَانًا وَحِكْمَةً، فَحَشَا بِهِ صَدْرَهُ وَلَعَايِدَهُ - يَعْنِي عُرُوقَ حَلْقِهِ - ثُمَّ أَطْبَقَهُ...» (1).

أما من النظر: فلو أنَّ النبي ﷺ قال لصناديد قريش أنَّه رأى في المنام أنَّه كان في نواحي بيت المقدس، فلن تقوم هذه الحرب الشعواء عليه أصالة، بل سيقولون: رجل رأى رؤيا وهم يقبلون الرؤى ولن يتعجبوا من ذلك، فلماً حاربوه وكذبوه بما قاله دلَّ على أنَّهم كانوا مستيقنين أنَّ الاسراء كان بجسده وروحه، وليس بالروح فقط.

تحديد زمن حادثة الإسراء والمعراج وحكم الاحتفال فيها

وما دمنا تحدثنا عن معجزة الاسراء والمعراج، فلا بد أن نبين بدعة الاحتفال بحادثة الإسراء والمعراج في السابع والعشرين من شهر رجب، وللرد على هذه البدعة، نقول:

أولاً: من أين أتيتم أنَّ الإسراء والمعراج وقع في هذا التاريخ؟

العلماء المحققون أصالة مختلفون في زمن الإسراء والمعراج، هل كان قبل الهجرة أم بعدها؟ وإن كان قبلها فهل كان قبلها بعام أم بثلاثة أعوام؟ فلم يعرف اليوم الذي أسري به ﷺ وعرج به، فالتحديد نفسه افتراء على الله، وافتراء على رسوله ﷺ، وما جاء في ذلك من أحاديث فهي باطلة لا تصح.

ثانياً: إذا قلنا بالتحديد فالذي يحدث في ليلة الإسراء والمعراج بدع مقبلة من إقامة الشواهد وقراءة القرآن والصلاة على النبي ﷺ والأناشيد التي لا تخلو من كفرات كبردة البوصيري مثلاً، قال فيها:

ومن جودك الدنيا وضرتها ومن علومك علم اللوح والقلم!!

ما الذي أبغاه الله إن كان من جود النبي ﷺ الدنيا وضرتها، وعلمه علم اللوح والقلم!! فعلى كل إنسان يرى ذلك أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويبين أنَّ هذه بدعة لم يرد فيها دليل من السنة ولا من فعل الخلفاء الراشدين ولو كان خيراً لسبقونا إليه! فلو كان هذا اليوم حقاً يوم عيد يُحتفل به، لكان أولى الناس احتفالاً به هو أبو بكر وعمر وعثمان وعلي بن أبي طالب ؓ جميعاً، ولنصَّ على استحباب ذلك الأفضل كالشافعي ومالك وأبي حنيفة وأحمد ؓ أجمعين في كتبهم، فلماً لم يفعلوا ذلك كان ذلك

(1) صحيح البخاري (7517)، أخرجه مسلم (162).

دلالة واضحة على أنَّ ما فعله المتأخرون بدعة خلفية، وأنَّ الخير في اتباع من سلف.

ثانياً: وجوب الإيمان بمجيء ملك الموت على صورة بشر لقبض الأرواح

من المعلوم أنَّ ملك الموت سيأتي كل إنسان، وأنَّ الموت يسعى خلف كل أحد كما أنَّ الرزق يسعى خلفه، وهذا تصريحاً من قول النبي ﷺ: «إِنَّ رُوحَ الْفُؤْسِ نَفَثَ فِي رُوعِي، أَنْ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَكْمَلَ أَجْلَهَا، وَتَسْتَوْعِبَ رِزْقَهَا، فَاتَّقُوا اللَّهَ، وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، وَلَا يَحْمِلَنَّ أَحَدُكُمْ اسْتِبْطَاءَ الرِّزْقِ أَنْ يَطْلُبَهُ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يُنَالُ مَا عِنْدَهُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ»⁽¹⁾.

فقرن في الحديث الرزق والأجل، والإيمان بذلك عبودية، وهذه العبودية هي عبودية أرباب العقيدة السليمة وأصحاب التوحيد السديد الذين تعلموا الربوبية والإلهية والأسماء والصفات، وكنا قد قسمنا العبودية إلى قسمين: عبودية عامة، وعبودية خاصة؛ فالعبودية العامة: هي التي يشترك فيها المؤمن والكافر، فكلُّ منهما مستويان فيها، وهي عبودية القهر والإصابة بالبلايا، فلا يستطيع أحد أن يرد على الله أمره، فلو قضى مثلاً بموت أحد - سواء كان كافراً جلدًا أو مؤمناً تقياً - لن يستطيع أيُّ منهم أن يقول: لا، لن أموت هذا اليوم! فالله قهر عباده أجمعين بما قضاه كوناً، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ۚ﴾ [مريم: 93]، أي: الكل عبد بالربوبية لا عبد بالالوهية، فالكل خاضع لعبودية القهر.

ومن المعلوم أيضاً أنَّ الأنبياء كغيرهم يصيبهم الموت، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ۚ﴾ [الزمر: 30]، وأنَّ ملك الموت يأتيهم فيخبرهم بين الحياة والموت، وهذا جاء عن النبي ﷺ تصريحاً في خطبة بليغة، قال: «إِنَّ اللَّهَ خَيْرَ عَبْدًا بَيْنَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ فَأَخْتَارَ مَا عِنْدَ اللَّهِ، فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ؓ، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي مَا يُبْكِي هَذَا الشَّيْخُ؟ إِنْ يَكُنِ اللَّهُ خَيْرَ عَبْدًا بَيْنَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ، فَأَخْتَارَ مَا عِنْدَ اللَّهِ، فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هُوَ الْعَبْدَ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ أَعْلَمَنَا، قَالَ: يَا أَبَا بَكْرٍ لَا تَبْكُ، إِنَّ أَمَّنَ النَّاسِ عَلَيَّ فِي صُحْبَتِهِ وَمَالِهِ أَبُو بَكْرٍ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا مِنْ أُمَّتِي لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ، وَلَكِنْ أَخُوهُ الْإِسْلَامِ وَمَوَدَّتُهُ، لَا يَبْقَيْنَ فِي الْمَسْجِدِ بَابٌ إِلَّا سَدٌّ، إِلَّا بَابُ أَبِي بَكْرٍ»⁽²⁾.

فما من نبي إلا ويأتيه ملك الموت فيخبره بين الدنيا والآخرة، وقد يأتيه على صورة ملك، وقد يأتيه على صورة بشر، فالله أعطى الملك قدرة أن يتشكل ويتصور على صورة إنسان، ودليل ذلك حديث عمر بن الخطاب، حيث قال: «دخل علينا رجل شديد سواد الشعر، شديد بياض الثياب، لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد، فجلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه إلى أن قال ﷺ: يَا عَمْرُو أَنْتَ بِي، فَلَمَّا لَمْ يَجِدْهُ قَالَ: هَذَا جَبْرِيلُ جَاءَ يَعْلَمُكُمْ أَمْرَ دِينِكُمْ»⁽³⁾، فهذا واضح الدلالة أنَّ الملك يتمثل بهيئة البشر، ومن ذلك ما أخبر به في الصحيحين عن إتيانه الوحي «وَأَحْيَانًا يَتِمَثَّلُ لِي الْمَلَكُ رَجُلًا

(1) صحيح الجامع (2085).

(2) أخرجه البخاري (466)، ومسلم (2382).

(3) سبق تخريجه.

فِيَكْلُمُنِي فَأَعِي مَا يَقُولُ»، وتمثل جبريل ٤ هيئة دحية الكلبي، فكل ذلك دليل على أنَّ للملك قدرة - بإذن الله - أن يتشكل على هيئة البشر، وقد أتى لغير النبي ﷺ، قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۖ﴾ [مريم: 17] .

وقد جاء ملك الموت متمثلاً بصورة بشر ودخل على موسى ٤، قال النبي ﷺ: «أَرْسِلْ مَلَكُ الْمَوْتِ إِلَى مُوسَى .، فَلَمَّا جَاءَهُ صَكَّهُ، فَرَجَعَ إِلَى رَبِّهِ، فَقَالَ: أَرْسَلْتَنِي إِلَى عَبْدٍ لَا يُرِيدُ الْمَوْتَ، فَرَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِ عَيْنَهُ وَقَالَ: ارْجِعْ، فَقُلْ لَهُ: يَضَعُ يَدَهُ عَلَى مَتْنِ ثَوْرٍ فَلَهُ بِكُلِّ مَا عَطُتْ بِهِ يَدُهُ بِكُلِّ شَعْرَةٍ سَنَةٌ، قَالَ: أَيُّ رَبِّ، ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: ثُمَّ الْمَوْتُ، قَالَ: فَأَلَا نَ، فَسَأَلَ اللَّهُ أَنْ يُذْنِبَهُ مِنَ الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ رَمِيَّةً بِحَجَرٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فَلَوْ كُنْتُ ثُمَّ لَأَرْيْتُكُمْ قَبْرَهُ، إِلَى جَانِبِ الطَّرِيقِ، عِنْدَ الْكُتَيْبِ الْأَحْمَرِ»⁽¹⁾، فملك الموت دخل على موسى على هيئة بشر فظنَّه غريباً في بيته وأنه متعدّ، ولم يعلم أنه ملك الموت جاء ليقبض روحه، فدفعه بالأهون فقفا عينه، وقد أعطى الله موسى ٤ قوة أربعين رجلاً، قيل: أنه نزع غطاء البئر وسقى للمرأتين والغطاء لا يستطيع تحريكه إلا أربعون رجلاً، ولما استغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه ماذا فعل؟ قال تعالى: ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ﴾ [القصص: 15]، أي: دفعه دفعاً هيئاً فمات.

فالحاصل أنَّ موسى ٤ حينما نظر إلى هذا الغريب قد دخل بيته متعدياً وعنده أهله لطمه فقفا عينه، فرجع الملك إلى ربه فقال: إِنَّكَ بَعَثْتَنِي إِلَى رَجُلٍ لَا يَرِيدُ الْمَوْتَ، وَكَأَنَّهُ ظَنَّ أَنَّ مُوسَى لَا يَرِيدُ الْمَوْتَ، وَهَذَا حَدِّثْ عِلْمُ الْمَلِكِ؛ لِذَلِكَ بَيَّنَّ اللَّهُ لَهُ أَنَّ مُوسَى يَرِيدُ لِقَاءَهُ، فَقَالَ لِلْمَلِكِ: قُلْ لَهُ: يَقُولُ اللَّهُ لَكَ: ضَعْ يَدَكَ عَلَى مَتْنِ ثَوْرٍ وَلَكَ بِكُلِّ شَعْرَةٍ تَمْسُهَا يَدُكَ سَنَةٌ حَيَاةً، فَقَالَ مُوسَى: ثُمَّ مَا يَكُونُ بَعْدُ؟ قَالَ: الْمَوْتُ، قَالَ: إِذَا الْآنَ، وَهَذَا مُوَافِقٌ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ (اللهم الرفيق الأعلى فقبض روحه)

فمثل هذه الأخبار ما دام أنها صحت عن النبي ﷺ، وجب الإيمان بها وتصديقها، وعدم ردّها بادعاءات باهتة، وهذا هو التسليم، كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب .

بدعة تقديم العقل على النقل وواجب العلماء والدعاة تجاهها

ومن البدع التي ظهرت وبزغت وقليل من يتصدى لها لندرة طلبة العلم الراسخين، شبهة تقديم العقل على النقل، وأيضاً ظهر في عصرنا من يطعن في البخاري ومسلم، ومن يتهم الإمام أحمد أنَّ فكره كان سطحياً!

ولك - أخي المؤمن - أن تتأمل كيف هي الحرب على الجبال الرواسي! لا لشيء، إلا لأنَّ الأحاديث تخالف أهواءهم، ولو سئلوا لِمَ لَا تَقْبِلُونَ الْحَدِيثَ الَّذِي فِيهِ أَنَّ مُوسَى ٤ فَقَا عَيْنَ مَلِكِ الْمَوْتِ مَعَ أَنَّ الْحَدِيثَ فِي صَحِيحِي الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمَ - وهما أصح الكتب بعد كتاب الله -؟! لقال هؤلاء: رددناه لأكثر من علة! منها: أَنَّ مُوسَى لَا يُمْكِنُ أَنْ يَقْضَى

(1) البخاري (1339)، ومسلم (2372).

عين الملك فالملك بصيحة واحدة وبجناحه يهدم قرية كاملة، كما أنَّ طولَه من السماء إلى الأرض فكيف يَفْقَهُ عَيْنُهُ موسى؟! وتعللوا قائلين: كيف لا يرضى موسى بقاء الله جل في علاه؟

ونحن نقول: وهل هذه علل يرد بها أحاديث صحت وثبتت ثبوت الجبال الرواسي؟! حقيقة هذا الفكر هو فكر اعتزالي، لذلك قال قائلهم: لو رأى البخاري ما تفعل تنتشر ما قال حديث: «ما أفلح الله قوماً ولوا أمرهم امرأة»، رد حديث البخاري بهذه المقولة!! غفر الله لنا وله، وما منّا من معصوم والمعصوم من عصمه الله وكلنا ذوو خطأ، لكننا نقول: إنَّ المخطئ الذي يتصدى لحديث النبي ﷺ لا بد له أن يرجع إلى الصواب فإن أصرَّ على ما هو عليه فلا بد من تحذير الناس مما هو فيه.

وأياً كان قائل هذا القول، فالحق والسنة أحب إلينا من أيِّ قائل كائنًا من كان، وعلى الجميع أن ينضبط بضوابط الشرع وميزان السنة، فلا تميع للعقيدة من أجل التجميع، بل التوحيد وتصحيح المعتقد أولاً، وإلا فسندى فتاوى شاذة ستؤدي بالإمامة للهاوية، وكل هذا وأكثر جرّاء نبذ السنة وردّها بدعوى أنَّ العقل يرفضها!

ولا تتعجب أخي الكريم رفضهم - عند حديثك عن أشرار الساعة - أنَّ المسيح الدجال حيّ، ويقولون: ليس موجوداً متعللين أنَّ الأقمار الصناعية منتشرة، ومع النظر الدقيق في التكنولوجيا الحديثة لم يتبين لنا وجود الدجال! فتجد هؤلاء يعارضون السنن الثابتة ويهدمون بنظريات علمية تخطئ وتصيب، وهؤلاء - أقصد أفراخ الفكر الاعتزالي - لم يتربوا على تعظيم السنة واحترامها، وأفعالهم دالة على هذا، وإن كنا لا نأخذهم بلازم فعلهم، لكننا يجب أن نحذرهم ونحذر منهم لتجرئهم على أعلام السنة؛ كالبخاري وأحمد ومسلم .

فإن قال قائل: ما سبب تجرؤ المبتدعة على الدين وأهله؟! أقول: الحق أننا لم نؤت إلا من ضعف العلم وندرة طلبة العلم، وهذا اتفق عليه القاصي والداني، فطلبة العلم الذين يحترمون الطلب والعلماء ويقدرهم قال الله وقال رسوله في ندرة، ناهيك على أنَّ الهمة العالية في الطلب قد خارت في هذا الزمان، والأفاضل الذين كانوا ينيرون سماء إسلامنا ماتوا ولا خلف لهم، فبعدما مات الجبال الثلاثة؛ محدث الشام العلامة ناصر الدين الألباني، والشيخ عبد العزيز بن باز الذي جمع الله له علم الفقه والحديث - وهذا عزيز في هذا الزمان - وثالثهم الشيخ صالح بن عثيمين الذي كان بارعاً في نظره الدقيق وتأملاته الفقهية لأحاديث النبي ﷺ، ولم يكن لهم خلف، فكل هذه الأسباب ساعدت على تجرؤ الروبيضة على أصحاب الحق.

نماذج من فتاوى المخالفين للنصوص الشرعية:

لعلكم قرأتم أو سمعتم ما احترقت له قلوبنا من الفتاوى المظلمة من رجل قصاص تنهافت أغلب النساء على سماعه لكثرة ما يأتي من قصص وخيالات جُلّها من الأحاديث الباطلة والمنكرة! فهو لا يعدو أن يكون قصاصاً، إلا أنَّه تقحم الفتوى، وأمثاله يدمرون الدنيا لعدم اعتدالهم علمياً في مسائل الدين، فهذا أفتى أنَّ الختان للمرأة ظلم للنساء، وقوله هذا لم يقل به أحد من علماء الأمة، بيد أنَّ علماء الأمة اختلفوا في ختان المرأة

على ثلاثة أقوال:

القول الأول: الوجوب، وهذا قول الشافعية.

القول الثاني: سنة مستحبة، وهذا قول الحنابلة.

القول الثالث: أن الختان مكرمة للمرأة، فهو على الإباحة وهو قول المالكية.

فالغرض المقصود لم يقل أحد من السلف بأن الختان للمرأة ظلم!

ومن تلك الفتاوى المظلمة أيضاً، فتوى أفتاها أحدهم لمغنية في رفع قضية على أخرى لأنها غنّت مقطوعتها الخاصة بها، وكلامه هذا فيه إباحة الغناء ضمناً، وإباحة العربي والسفور! ومن ذلك ما قاله أحدهم بجواز صلاة المرأة وهي عارية في مكان مظلم! وآخر يقول: الدخان حلال للأغنياء حرام على الفقراء! إلى غير ذلك من الفتاوى العجيبة الغريبة!

وأنا أقول: أين طلاب العلم الذي يتصدون لهذه الفتاوى المضلّة؟! وأين الذي يدافع عن عرين السنة؟! أين أسد السنة الذي يقول: نذرت نفسي لربي وأوقفت نفسي لربي؟ نريد طالب علم مجد في معرفة سنة النبي ﷺ بحيث يميز الصحيح من الضعيف، حتى يدافع عن دين الله جل في علاه ويرد على المبتدعة.

ومن صور الضلال والإضلال الذي بات ينتشر الآن الفكر الاعتزالي، فلا بد من التصدي له وجوباً، ولا يمكن بحال من الأحوال أن تتصدي له إلا أن تكون طالباً للعلم؛ لأنّ التعمية والتميع أصبح أمراً مروغاً؛ فالهجم الرعاع لا يعرفون شيئاً، وهم كما وصفهم الإمام علي بن أبي طالب ؑ: (هجم رعاع أتباع كل ناعق)، أي: يصفقون ويرددون: نحن معك وكلامك دائماً صحيح، وتراهم يقولون: ما أروع هذه الفتاوى، فهم يسيرون خلف كل ناعق فهم لم يستضيئوا بنور العلم.

فلا بد وجوباً على طالب العلم أن يبيّن هذا الأمر، ويرد عن حياض هذا الدين بعلم ودقة وإتقان.

والمعتزلة يعتقدون ثم يستدلون، والقاعدة عند السلف: الدليل قبل الاعتقاد، أي: استدل ثم اعتقد؛ فهكذا يكون اعتقادك متيناً راسخاً؛ لأنه منبثق من الدليل الصحيح الناصع.

ما واجبنا نحو من يرد الأحاديث الصحيحة بعقله الخرب؟!!

يوجد الآن من يردون أحاديث النبي ﷺ بهذه العقول الخربة، ونحن نقول: سمعنا وأطعنا لكل حديث صح عن النبي ﷺ، فكل حديث كان سنده من الجبال الرواسخ من العلماء لا بد أن نمزّره على العقل والقلب بكل راحة ونقول: آمنت بالله وبما جاء عن الله على مراد الله، وآمنت برسول الله وما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله. وهنا أشير إلى أنه لا بد على الإخوة أن يتنبّوا التصدي لمن يرد أحاديث صحاح، فأهل البدع بزغوا، وتكاد الأنفاس تنقطع حينما نسمع أنّ رجلاً خرج علينا من مؤسسة علمية فضعّف مائتين وثلاثين حديثاً في البخاري، مع أنّ الحافظ الدارقطني وهو من هو لم يستطع أن ينتقد سوى خمسة عشر حديثاً أو ستة عشر، ولم يكن بنقده موفّقاً،

وهذا يأتي بكل جرأة فينتقد على البخاري مائتين وثلاثين حديثاً! وعندما سئل كيف ضَعُفَت هذه الأحاديث؟ قال: لست وحدي الذي أتكلم كي تعاتبني، فكل الناس تتكلم!! وما دام أنَّ هناك أناساً تسمع سيكون هناك من يتكلم بما يطلبه المستمعون! .
والحق أنَّ رد الأحاديث الصحاح بحجة أنَّها تخالف العقل الخرب هذا إيذان بقرب الساعة؛ لأنَّ الله أناط قيام القيامة برفع العلم وفشو الجهل، وفشو الجهل واضح جلي بين الناس، فعلينا أن نرجع إلى حديث النبي ﷺ، فنجليه بين الناس، ونبين أننا مع احترامنا للأشخاص إلا أننا لا نقدم أحداً على رسول الله ﷺ كائناً من كان.

ثالثاً: وجوب الإيمان بأشراط الساعة:

ومن الإيمان بالغيب الإيمان بأشراط الساعة، وقد ربط الله الفلاح بالإيمان بالغيب، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ٤ أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ٥﴾ [سورة البقرة: 4-5]
الشرط في اللغة معناه: العلامة، وأشراط الساعة أي: الأمارات التي تسبق قيام الساعة.

أما العلامات الصغرى فجلها ظهرت، ومنها: أن تسلم على من تعرف، وتترك من لا تعرف، وهذه واقعة بين الإخوة، فتجد الأخ إذا رأى أخاً ملتحياً سَلَّمَ عليه، ولا يسلم على غيره! وهذه منقصة في حق الأخوة، وهذا مصداقاً لنبوءة النبي ﷺ حيث أخبر أنه في آخر الزمان يسلم الرجل على من يعرف، دون من لا يعرف.

ومن العلامات الصغرى: نطق الرويبضات، قال ﷺ: «إِنَّهَا سَتَأْتِي عَلَى النَّاسِ - وفي رواية: (بين يدي الساعة) - سُنُونٌ خَدَاعَةٌ يُصَدَّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ وَيُكَذَّبُ فِيهَا الصَّادِقُ وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الْخَائِنُ وَيُخَوَّنُ فِيهَا الْأَمِينُ وَيَنْطِقُ فِيهَا الرُّوَيْبِضَةُ قِيلَ وَمَا الرُّوَيْبِضَةُ قَالَ السَّفِيهُ يَتَكَلَّمُ فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ»⁽¹⁾.

ومن ذلك توسيد الأمانة لغير أهلها، قال: «بَيْنَمَا النَّبِيُّ ﷺ فِي مَجْلِسٍ يُحَدِّثُ الْقَوْمَ، جَاءَهُ أَغْرَابِيٌّ فَقَالَ: مَتَى السَّاعَةُ؟ فَمَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُحَدِّثُ، فَقَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ: سَمِعَ مَا قَالَ فَكَّرَهُ مَا قَالَ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ لَمْ يَسْمَعْ، حَتَّى إِذَا قَضَى حَدِيثَهُ قَالَ: أَيْنَ - أَرَاهُ - السَّائِلُ عَنِ السَّاعَةِ قَالَ: هَا أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: فَإِذَا ضُيِّعَتِ الْأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ، قَالَ: كَيْفَ إِضَاعَتُهَا؟ قَالَ: إِذَا وَصَدَّ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ»⁽²⁾.

ومن العلامات الصغرى: تطاول الهمج الرعاع الحفاة العراة في البنيان، ففي حديث جبريل ؑ حينما سأل النبي ﷺ - عن الإسلام والإيمان والإحسان، جاء في نهايته: قال: فأخبرني عن الساعة، قال: «ما المسئول عنها بأعلم من السائل» قال: فأخبرني عن أمارتها، قال: «أن تلد الأمة ربته، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء

(1) سبق تخريجه.

(2) صحيح البخاري (59).

يتناولون في البنيان»⁽¹⁾.
ومن ذلك أيضاً، زخرفة المساجد، فالمساجد الآن مزخرفة ومتسعة جداً ولكنها خالية وخاوية من العباد، وهذه قد تذكر أنها من علامات الساعة؛ ففي الأثر عن ابن عباس قال: «لَتُزْخَرَفُنْهَا كَمَا زُخِرَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى»⁽²⁾ فبين ابن عباس أن زخرفة المساجد وتوسيعها من علامات الساعة.

علامات الساعة الكبرى

أما العلامات الكبرى فكأنها في سلسلة واحدة كالعقد، لو نزلت الحبة الأولى فالباقى على إثر هذه الحبة سينزل.

١- خروج الدجال:

الدجال هو شر فتنة يفتتن بها المرء في هذه الحياة، وقد ورد ذلك في بعض الآثار - وإن ضعفها بعض العلماء - لكن نستأنس بها قال: «بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعًا؛ مَا تَنْتَظِرُونَ إِلَّا فَقْرًا مُنْسِيًا، أَوْ غَنًى مُطْعِيًا، أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا، أَوْ هَرَمًا مُفْنِدًا، أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا، أَوْ الدَّجَالَ؛ فَإِنَّهُ شَرُّ مُنْتَظَرٍ، أَوْ السَّاعَةَ، وَالسَّاعَةُ أَذْهَى وَأَمْرٌ»، فالدجال شر فتنة، والذي يدل على ذلك، قال: «أُوحِيَ إِلَيَّ أَنْكُمْ تَفْتَنُونَ فِتْنَةً قَرِيبًا مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَالِ»⁽³⁾ فكأنه قاس فتنة القبر على فتنة الدجال.

والدجال رجل عظيم الخلق، والصحيح أنه مسلسل، وغفر الله لمن قال: الدجال غير موجود، وعلة قائل ذلك: أنه يقول بتضعيف حديث الجساسة، فاجتهاده - بتضعيف الحديث هو الذي قاده لهذا القول، وإن كنا نعرف له فضله ومكانته، لكننا نقول أنه أخطأ باجتهاده، فالحق أن الدجال موجود الآن وهو مسلسل، ودل على ذلك حديث تميم الداري الذي روته فاطمة بنت قيس عن النبي ﷺ.

وحديث تميم الداري يُلغز به، فيقال: كل الصحابة نالوا الشرف في التحديث عن رسول الله، لكن من الصحابي الذي نال شرف تحديث رسول الله عنه؟

الجواب: تميم الداري، قال رسول الله ﷺ بعد أن صعد المنبر: «إِنَّهُ قَدْ أَسْعَدَنِي أَنَّ تَمِيمَ الدَّارِي حَدَّثَنِي مَا وَاظَقَ مَا حَدَّثْتُمْ بِهِ»، وهذا يبين لك شرف هذه الأمة؛ ففيها من صلى النبي ﷺ خلفه، وفيها من هو خير البشر بعد الأنبياء، وفيها من حدث عنه النبي ﷺ كتميم الداري.

الحاصل: أن النبي ﷺ سرد الحديث بطوله، ونقلته لنا فاطمة بنت قيس ~، وفيه: أن الأمواج تلاعبت بتميم ومن معه فنزلوا على جزيرة فجاءت الجساسة وهي دابة أهلك، أي: كلها شعر القبل كالدير، فقالت لهم: إن هناك من ينتظر خبركم بالأشواق، فأخذتهم إلى رجل عظيم الخلق مسلسل ورأسه عند رجله، فقال: من أين أنتم؟ ثم ذكروا مسألة

(1) سبق تخريجه.

(2) صحيح أبي داود / (448)، وأخرجه البخاري معلقاً بصيغة الجزم.

(3) أخرجه البخاري (26)، ومسلم (905).

النخيل ومسألة المدينة، فقال: هذا العصر عصر النبي محمد ﷺ، إن يتبعوه يرشدوا، والشاهد الذي أريده أنه موجود من وقت رسول الله ﷺ، وهو مسلسل بنص حديث تميم الداري، وأما من نفى وجوده فنقول: إن كان ذلك عن اجتهاد بتصحيح وتضعيف للحديث، سيما وأنَّ له سلف في ذلك حيث أنَّ البخاري لم يخرج في صحيحه فنشكر له اجتهاده ونعرف له فضله، ولكنَّه غير مقبول؛ لأنَّ الحديث قد صح وأخرجه مسلم، ولا اجتهاد لأحد كائنا من كان مع كلام النبي ﷺ، ما العلم إلا قال الله قال رسوله قال الصحابة ليس بالتصحيح.

وأما من نفى وجوده؛ لأنَّ الأقفار الصناعية لا تظهره، فنقول: إظهاره عبر الأقفار الصناعية هذه مسألة نظرية علمية محضة، يعترضها الصواب والخطأ، فهل يرد حديث النبي ﷺ الثابت كالجبال الرواسي من أجل هذه النظرية التي لا تنفع ولا تضر، وتصيب وتخطئ؟! ثم إنَّه قد ثبت في الواقع أنَّ هذه الأقفار لم تستطع إخراج وتصوير قرية بأكملها، فهل سيعوّل عليها بإخراج موقع الدجال؟! وهل يرد حديث في مسلم بدعوى أنَّ الأقفار لم تظهره؟!!

أي، نعم، إن كان لديك المقدرة العلمية في علم الحديث بحيث تستدرك على مسلم تصحيحه، فحيا هلا، تعرض ما عندك من العلم على كلام أهل العلم والشأن فإن كان له وجهة صحيحة فعلى العين والرأس، لكن أن يكون شخص مقلداً لغيره في التصحيح والتضعيف، ثم يأتي ويرد الحديث بدعوى الأقفار الصناعية فلا وألف لا.

فنحن بحمد الله نؤمن بحديث الجساسة، وأنَّ الدجال موجود الآن، ونخالف كل من رده باجتهاد، أو بادعاءات نظرية، ونهتم بشأن الدجال كما اهتم لذلك النبي ﷺ، حيث قال: «مَا بُعِثَ نَبِيٌّ إِلَّا أُنْذِرَ أُمَّتَهُ الْأَعْوَرَ الْكَذَّابَ أَلَا إِنَّهُ أَعْوَرَ وَإِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ وَإِنَّ بَيْنَ عَيْنَيْهِ مَكْتُوبٌ كَافِرٌ»⁽¹⁾.

وننصح للأمة كما نصحها النبي ﷺ من قبل، وبلغ من شدة نصحه للصحابة وتحذيرهم منه أن قالوا: خشينا أن يكون الدجال خلف الشجر، فلما رأى النبي ﷺ خوفهم من هذا النذير، قال لهم: «ما لكم، إن خرج وأنا فيكم فأنا حجيجه، وإن خرج وأنا لست فيكم فكل امرئ حجيجه نفسه».

ومما يدل على وجود الدجال الآن أيضاً، حديث ابن صياد؛ ووجه الدلالة منه: أنَّ النبي ﷺ كان يتحسس ويختبئ له ليعلم شأنه، فقالت أمه: يَا صَاف! هذا محمد، فقال النبي ﷺ: «لو تركته بين»، أي: لو تركته لظهر إن كان هو الدجال أم لا، فالحاصل أنَّ النبي ﷺ كان يشك بوجوده ثم تأكد من ذلك من تميم الداري، فإن قيل: بضعف حديث تميم، قلنا: مع تسليمنا أنه حديث صحيح، لكن أيضاً لدينا حديث ابن صياد، فشكوك النبي ﷺ دليل على وجوده.

(1) رواه البخاري برقم 6598، وفي رواية: «وَمَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ ك ف ر» مسلم برقم 5219، وفي رواية عن حذيفة: «يَعْرِوهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ كَاتِبٍ وَغَيْرِ كَاتِبٍ» مسلم برقم 5223.

ولقد وصف النبي ﷺ وجود الدجال عند خروجه؛ أنه يعيش بيننا أربعين، يوماً كسنة، ويوماً كشهر، ويوماً كأسبوع، وباقي الأيام كأيامنا هذه.

ومما بينه النبي ﷺ أن الله يفتن عباده به بما أعطاه من لوازم الربوبية من القوة الخارقة، والله يفتن من يشاء بما شاء سبحانه، قال تعالى: ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنِ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ﴾ [الأعراف: 155]، ومن فتنة الدجال أنه يأتي الرجل فيقول له: لو أحبيبت لك أباك وأمك أتؤمن بي؟ فيقول: أو من بك، فيأتي فيحيي أباه وأمه - بإذن الله - فتنة للبشر، وفي الحقيقة لا يحييهما، إنما يتمثل الشيطان بصورتيهما.

ومن فتنته للناس أنه يذهب إلى المشرق والمغرب في دقائق معدودة تستدبره الريح، وأيضاً ينظر للسماء فيقول: أمطري فتمطر - بإذن الله -، ويذهب إلى الأماكن الخربة فيقول: أخرجي كنوزك فتخرج - بإذن الله -، وهذه فتنة عارمة، وأما الفتنة الأشد أنه يأتيه رجل من أفضل الشباب فيقول له: أنت الدجال الذي حذرنا منه رسول الله ﷺ،

فيأخذه هذا الكافر الظالم ويقول للناس: أيها الناس! لو قتلت هذا الرجل وأحييته لكم تؤمنون بي؟ فيقولون: نعم، فيأخذه فيشقه نصفين جزلتين: جزلة عن اليمين، وجزلة عن اليسار، ثم يمشي بين الجزلتين، ثم يقول للرجل: تعال، فيقوم الرجل متهللاً فرحاً، فيقول: والله ما ازددت بك إلا بصيرة، أنت الدجال الذي حذرنا منه رسول الله ﷺ، ثم يضرب بالسيف على رقبته فلا يسلط عليه مرة أخرى.

وهنا حريٌّ بنا أن نتأمل كيف للإيمان من تأثير بالغ حينما يتلأل في القلوب، فيجعل المؤمن ثابتاً راسخاً لا يتزعزع مع كل ريح، فهذا الشاب بعدما شقه نصفين، قام فقال: أنت الدجال الذي حذرنا منه رسول الله ﷺ، والله ما ازددت فيك إلا بصيرة.

ولأن فتنة الدجال شر غائب ينتظر، قد بين لنا النبي ﷺ كيف نتقي هذه الفتنة، فأرشدنا إلى ما يحصل به المطلوب - إن شاء الله -، فمن ذلك: أمرنا أن نستعيز بالله من هذه الفتنة دبر كل صلاة، ونستعيز من فتنة المحيا والممات.

ثم أرشدنا أنه لو ظهر فلا بد أن نفر منه فرارنا من الأسد، قال النبي ﷺ: «من سمع بالدجال فليأمن به، فوالله إن الرجل ليأتيه وهو يحسب أنه مؤمن فيتبعه ممّا يبعث به من الشبهات، أو لما يبعث به من الشبهات»⁽¹⁾ أي: لا يأتي رجل يسمع بالدجال، فيذهب إليه فيقول: أنا له، أنا له، معتزاً بإيمانه، ومزكياً نفسه، والله يقول: ﴿فَلَا تَرْكُؤْا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النجم: 32]، وقد نهى النبي ﷺ عن لقاء العدو، فالذي يذهب إلى الدجال جاهل؛ لأنه لو

كان عالماً بهذه الكلمات لما فعل ذلك، فيذهب إليه ثم لا يلبث إلا أن يؤمن به ويكفر بالله، لذا من سبل النجاة التي أرشدنا إليها النبي ﷺ أن ننأى عنه عند ظهوره، بل وننأى عن كل فتنة.

٢- نزول عيسى ؑ

(1) صحيح أبي داود (4319)، وأخرجه أحمد (19968).

ومن علامات الساعة الكبرى والتي نؤمن بها نزول عيسى بن مريم ؑ، فبعدما يعيثر الدجال في الأرض فسادًا ويؤمن به اليهود وكثير من النساء كما أخبر بذلك النبي ﷺ، حتى إنَّ الرجل يرجع إلى حميمه وإلى أمه وابنته وأخته وعمته فيوثقها رباطًا مخافة أن تخرج إليه، فبعد هذه المفاصد، وبعد منعه من دخول مكة والمدينة؛ لأنَّ الملائكة تحرسهما، فتحفظان بالملائكة، وتهتزن المدينة ومكة فتخرجان منهما كل منافق فينضوون تحت لواء هذا المنافق الأكبر الدجال ويؤمنون به، بعد ذلك كله ينزل عيسى ؑ حكمًا عدلًا مقسطًا، ينزل على جناح ملك عند المنارة البيضاء عند جامع دمشق، ثم يذهب فيجد المهدي قد اصطف بالناس إمامًا، وذلك بعد المعركة الدموية بين المسلمين والكافرين، إذ يأتي فيها الكفار تحت ثمانين راية، تحت كل راية اثنا عشر ألفًا، فيحصل فيها مقتلة عظيمة، ثم يفتح الله على المؤمنين بقيادة المهدي- وهذا الحديث في مسلم - الحاصل أنَّه ينزل، والمهدي يكون قد صف الناس للصلاة، فيرجع المهدي ليقدم سيدنا عيسى إمامًا، فتكون المنقبة العظيمة لهذه الأمة، أنَّ سيدنا عيسى يقول: لا، إن بعضكم على بعض أمراء، تكرمة لهذه الأمة.

وما دما تحدثنا عن المهدي، فلا بد من توضيح لأمر: هو من ولد النبي ﷺ، اسمه على اسم النبي ﷺ، ويصلحه الله لهذه المهمة في ليلة، وقد وجدنا من الدعاة - رغم فضله - إلا أنَّه أنكر وجوده وخروجه، وضعَّف الأحاديث التي جاءت في ذلك، وهذا عجب عجاب!! إذ أنَّ المعلوم عن هذا الداعية الفاضل أنَّه ليس مشتغلًا بعلم الحديث أصالة ليضعَّف أو يصحِّح!

في الحقيقة إنَّ تصدر الدعاة والوعاظ الغير متخصصين لمسائل علمية وأغلب الناس يسمعون لهم هذا له خطره على الأمة، فلذا لا بد من التنبيه من طلبة العلم، وأمَّا خير المهدي فالحديث راسخ كالجيل الراسي، وأمتع من كتب بشأنه من المعاصرين الشيخ محمد بن إسماعيل المقدم - حفظه الله - في كتابه المهدي، فهذا الكتاب من أنفع ما كتب في هذا الباب، وهو مفيد لطلاب العلم وأنصح به.

ثم إنَّ الناس انقسموا في المهدي إلى ثلاثة أقسام:
قسم غلوا: وهؤلاء الذين ينتظرون خروجه من السرداب من ألف عام، وينادون: اخرج يا مهدي، ويعنون بذلك: محمد بن العسكري، وكلامهم باطل لا دليل عليه.
وقسم جفوا: وهؤلاء قالوا: لا مهدي في هذه العصور! ونحن نقول لهم: كيف تنفونه وقد ثبت عن النبي ﷺ ذلك؟!!

وأما القسم الثالث: فهؤلاء توسطوا، وهم أهل السنة والجماعة؛ فقد أثبتوا خروجه، وبيَّنوا علاماته وأماراته، كما جاء ذلك من أحاديث النبي ﷺ.

فإن سألني سائل: نصدِّق بخبره ووصفه كما جاء عن النبي الأمين، لكن ما الأحكام المستتبطة من تراجعه لعيسى ؑ ليصلي بهم؟!!

أقول: يستفاد منه أمور:
أولاً: صحة صلاة الفاضل خلف المفضول، وإن شئت قل: صحة إمامة المفضول

بوجود الفاضل، وهذا يفيدنا جدًّا في هذا الزمان؛ فالمفضل في أغلب الأحيان هو المتصدر مع أنَّ الصحيح الراجح تصدير الفاضل من قِبَل المفضل، وإنزاله منزلته؛ فالمهدي تراجع لنبي من أولي العزم من الرسل.

ثانيًا: أنَّ الإمام الراتب إذا دخل فوجد غيره يصلي بالناس له أن يؤخره ويدخل مكانه، ويستتبط ذلك من عمل المهدي حيث رجع بنفسه من غير أن يرجعه عيسى ؑ، وهذا مستفاد إشارة من فعل أبي بكر ؑ حينما صلى بالناس إمامًا.

ثالثًا: شرف هذه الأمة، إذ أنَّ الله شرفها؛ بأن جعل أفضل الأنبياء محمد ﷺ وعيسى ؑ يصلون خلف أحاد منها؛ فلقد ثبت أن النبي ﷺ صلى خلف أبي بكر، وخلف عبد الرحمن بن عوف ؓ، وكذلك في آخر الزمان سيصلي عيسى ؑ خلف المهدي.

وعندما ينزل عيسى ؑ يكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ولا يقبل الجزية، ويقاتل على الإسلام، قال ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزَلَ فِيكُمْ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عَدْلًا، فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلَ الْخَنزِيرَ، وَيَضَعَ الْجِزْيَةَ، وَيَفِيضَ الْمَالَ حَتَّى لَا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ، حَتَّى تَكُونَ السَّجْدَةُ الْوَاحِدَةُ خَيْرًا مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ: وَأَقْرَأُوا إِنَّ شَيْئَكُمْ: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ۝١٥٩﴾ [النساء: 159]»⁽¹⁾، ومعنى: (قبل موته) أي: بعد نزول عيسى ؑ حكمًا، عدلًا، مقسطًا.

وقد كتب الله لعيسى ؑ أنه إذا خرج فلا يتنفس نفسًا فيصل لأحد من الكفار إلا ويموت، ومما يفعله حين نزوله؛ أنه يذهب خلف الدجال، فإذا رآه ذاب كما يذوب الملح في الماء، ثم يقتله ؑ ويريح البشرية من هذا الشر العظيم، قال النبي ﷺ: (فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللَّهُ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ، فَيُنْزَلُ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقِيَّ دِمَشْقَ، بَيْنَ مَهْرُودَتَيْنِ، وَاضِعًا كَفَّيْهِ عَلَى أَجْحِدَةٍ مَلَكَيْنِ، إِذَا طَاطَأَ رَأْسَهُ قَطْرٌ، وَإِذَا رَفَعَهُ تَحَدَّرَ مِنْهُ جُمَانٌ كَاللُّؤْلُؤِ، فَلَا يَحِلُّ لِكَافِرٍ يَجِدُ رِيحَ نَفْسِهِ إِلَّا مَاتَ، وَنَفْسُهُ يَنْتَهِي حَيْثُ يَنْتَهِي طَرَفُهُ..)⁽²⁾.

خروج يأجوج ومأجوج

ومن الفتن العظيمة التي بيّنها النبي ﷺ خروج يأجوج ومأجوج، فقد أخبرت السيدة زينب أنَّ النبي ﷺ دخل عليها يومًا فرعًا، فقال: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ! وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرِّ قَدِ اقْتَرَبَ؛ فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدَمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ، وَحُلِقَ بِإِصْبَعِهِ الْإِبْهَامُ وَالَّتِي تَلِيهَا، قَالَتْ زَيْنَبُ بَنْتُ جَحْشٍ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنَهْلِكَ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: نَعَمْ؛ إِذَا كَثُرَ الْحَبْتُ»⁽³⁾، وهنا يُعلم أنَّ الله إذا أذن لشيء أعد له أسبابه المؤدية إليه، فهم بعد مقاربتهم

(1) أخرجه البخاري (3448)، ومسلم (155).

(2) رواه مسلم (2937)..

(3) صحيح البخاري (3346)، أخرجه مسلم (2880).

هدم الجدار آخر النهار يقولون: غداً نخرج على بني آدم، ولم يقولوا: إن شاء الله، فيرجعون في اليوم الثاني فيجدونه كما كان، حتى إذا أذن الله بخروجهم جعلهم يقولون: غداً نخرج على بني آدم - إن شاء الله - ولو أنهم قالوا: إن شاء الله من بداية الأمر لكان دركاً لأمرهم، لكن الله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون فيخرجون فيأكلون كل شيء؛ حتى إن أولهم يكون عند بحيرة طبرية فيشربون الماء فيأتي الآخر منهم فيقول: كان هنا ماء، فلا يأتون على أخضر ولا ييس إلا ويزيلونه من وجه البسيطة، وبعدما ينتهون من قتال أهل الأرض يُبتلون برمي الرمح أو النبل إلى السماء فينزل النبل وعليه الدماء، فيقولون: انتهينا من أهل الأرض، وقتلنا أهل السماء، نعوذ بالله من الخذلان!

فيأمر الله نبيه عيسى أن يأخذ المؤمنين ويذهب بهم إلى جبل الطور، لأن الله أوحى إليه أنه سيخرج بشراً لا يدان لأحد بقتالهم، أي: لا يستطيع أحد قتالهم، فيدعو عيسى ومن معه فيقبل الله دعائهم فيقتل هؤلاء، وتأتي طير فتأخذهم إلى البحار، ثم يعيش الناس في نعيم ورغد حتى يأذن الله بخراب هذه الدنيا وقيام القيامة.

٣- خروج الدابة، وطلوع الشمس من مغربها

ومن علامات الساعة أيضاً: خروج الدابة، وطلوع الشمس من مغربها؛ أما خروج الدابة فتخرج وتكلم الناس وتختم على مناخرهم، قال تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ٨٢﴾ [النمل: 82]، وتفرق بين المؤمن والكافر، حتى إن الرجل ليتعامل مع الآخر في البيع والشراء فيقول: اشتريت من المنافق الفلاني كذا، واشتريت من الكافر الفلاني كذا، ثم بعد ذلك تطلع الشمس من مغربها، والنبى ﷺ لم يبين بالتفصيل أيهما يظهر أولاً، إنما ذكر أن الأولى إذا خرجت فعلى إثرها تخرج الأخرى، ففي مسلم عن عبد الله بن عمرو قال: حفظت من رسول الله يقول: (إِنَّ أَوَّلَ آيَاتِ خُرُوجِ طُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَخُرُوجِ الدَّابَّةِ عَلَى النَّاسِ ضُحًى، وَأَيُّهُمَا مَا كَانَتْ قَبْلَ صَاحِبَتِهَا، فَالْأُخْرَى عَلَى إِثْرِهَا قَرِيباً) (1)، ومتى خرجت الشمس من مغربها لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل.

القبر أول منازل الآخرة

القبر أول منازل الآخرة، فمن سعد في قبره فسعادته في الآخرة أتم وأكمل، ومن كان عليه الأمر شاقاً ففي الآخرة أشق وأنكى، وقد جاء عن عثمان بسند صحيح أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الْقَبْرَ أَوَّلَ مَنْزِلٍ مِنَ مَنَازِلِ الْآخِرَةِ، فَإِنْ نَجَا مِنْهُ، فَمَا بَعْدَهُ أَيْسَرُ مِنْهُ، وَإِنْ لَمْ يَنْجُ مِنْهُ، فَمَا بَعْدَهُ أَشَدُّ مِنْهُ» (2)، فعلى الإنسان أن يستعد لدخول هذا المكان الضيق، فهو بيته الذي سيكون فيه حتى يوم القيامة، والكلام عن القبر من وجهين: أولاً: الفتنة التي تكون في القبر: وهذه ثابتة بالكتاب والسنة، أما من الكتاب فبالإشارة، وأما من السنة فبالنصريح، والفتنة هي سؤال الملكين للرجل: من ربك؟ ما

(1) صحيح مسلم (2941).

(2) حسن، صحيح ابن ماجه (3461).

دينك؟ ماذا تقول في الرجل الذي بعث فيكم؟
فقد ثبت عن رسول الله ﷺ أَنَّ المِيتَ إذا مات تعاد روحه إليه في قبره، فيسأل عن ربه ودينه ونبيه، فيثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، فيقول المؤمن: ربي الله، وديني الإسلام، ونبيي محمد، وأما الكافر أو المنافق فإنه إذا سئل يقول: ها، ها، لا أدري، قال الله تعالى: ﴿يُنَبِّئُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ۚ﴾ [إبراهيم: 27]، فهذا التثبيت لا يكون إلا عند محل الفتنة، والفتنة معناها: الاختبار، وأما الحكمة من الفتنة فهي اختبار صدق المقبور الذي مات على مسمى الإسلام، هل أسلم لله واستسلم لأوامره بحق وصدق؟ وهل كان مصدقاً بوعده الله ووعيده وبوعده النبي ﷺ ووعيده أم لا؟ فيختبر اختباراً شديداً عندما يوضع في قبره، ويضم عليه قبره، ويفتن فيه فتنة شديدة، قال تعالى: ﴿يُنَبِّئُ اللَّهُ﴾، وهذه بشارة من أهم البشارات لصحابة رسول الله ﷺ فعندما علموا بفتنة القبر ارتجفت قلوبهم فيشرهم الله بالتثبيت، والتثبيت في أول منازل الآخرة بأن يطلق لسانه، وأن يقول: ربي الله ونبيي محمد ﷺ وديني الإسلام.

أما الدلالة من السنة الصريحة على فتنة القبر حديث أسماء - - قالت: قال رسول الله ﷺ: «قد أوجي إليَّ أنكم تُفْتَنُونَ في القبور قريباً من فتنة الدَّجَالِ»⁽¹⁾، ومعنى تفتنون أي: تسألون، وقد فسرهما حديث النبي ﷺ الطويل الذي رواه البراء بن عازب، قال: «وإنه ليسمع خَفَقَ نعالهم إذا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ حين يقال له: يا هذا، من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟»⁽²⁾.

الناجون من فتنة القبر

قلنا أَنَّ الحكمة من فتنة القبر بيان اختبار صدق هذا المِيت، وهذه الحكمة تَجْعَلُنَا نتكلم عن مسألة مهمة، وهي: هل هناك أحد يُعْفَى من هذه الفتنة؟ الحق أَنَّ الاستثناءات لا تكون إلا بدليل؛ لأنها من الغيبات، فهل ورد دليل أَنَّ أحداً سيعصمه الله من هذه الفتنة؟

الجواب: الذين عُصِمُوا من هذه الفتنة هم الشهداء، جعلنا الله جميعاً وإياكم من الشهداء الذين تراق دماؤهم تحت راية شريفة عفيفة كريمة، لا تقبل إلا دماً شريفاً كريماً عفيفاً.

إذاً من الخصال التي ميّز الله الشهداء عن غيرهم أنهم لا يفتنون في قبورهم، فلا يسألهم الملك: من ربك؟ ما دينك؟ ماذا تقول في هذا الرجل؟ وقد بين النبي ﷺ الحكمة من ذلك فقال حينما سئل عن ذلك: «قال كَفَى ببارقة السُّيُوفِ على رأسه فتنة»⁽³⁾، فهذه

(1) رواه البخاري (922)، ومسلم (905).

(2) جزء من حديث أخرجه أبو داود (4753) واللفظ له، والنسائي (2001)، وابن ماجه (1549) مختصراً، وأحمد (18557).
(3) صحيح النسائي (2052).

دلالة على أنّ صدقهم ظهر ببيعهم النفس رخيصة من أجل إعلاء كلمة التوحيد وبارقة السيوف فتنة على رؤوسهم، فكوفئوا جزاء وفاقاً وأجرًا طباقاً أنهم لا يختبرون في قبورهم.

ومن الذين يقيهم الله فتنة القبر أيضاً من مات ليلة الجمعة أو يومها، فقد روى الترمذي في سننه قال رسول الله ﷺ: «ما من مسلم يموت يوم الجمعة أو ليلة الجمعة إلا وقاه الله فتنة القبر»⁽¹⁾.

وقد حدث الخلاف في الصديق هل يسأل أم لا؟ قالوا: فإن كان الشهيد أَمِنَ من الفتنة فمن باب أولى أن يؤمن من الفتنة الصديق، فهو أعلى درجة من الشهيد. والحق وإن كان فيما قالوه له وجهة قوية إلا أنّ الأسلم والأحوط أن نبقى مع الأدلة وندور معها حيث دارت، والنبي صلى الله عليه وسلم لما استثنى الشهيد لم يستثن الصديق معه والله أعلم.

ثانياً: نعيم القبر وعذابه، وهذه ثبتت في الكتاب والسنة والإجماع، ويشهد لها العقل. فمن الكتاب: قول الله تعالى: ﴿وَلَنَذِقْنَهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ٢١﴾ [السجدة: 21] وهو عذاب القبر، وهذا الذي فسره كثير من المفسرين، قالوا: العذاب الأدنى هو عذاب القبر، والعذاب الأكبر هو عذاب يوم القيامة. ومنها، قول الله تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر: 46]، أي: النار يعرضون عليها في القبر ليل نهار، غُدُوًّا وعَشِيًّا، قال: ﴿وَيَوْمَ تُقَوْمُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ٤٦﴾ [غافر: 46].

ومن الأحاديث الصريحة التي تدل على عذاب ونعيم القبر: حديث النبي ﷺ الطويل الذي رواه البراء وفيه قال: «فينادي مُناد من السماء: أن قد صدق عبدي، فأفرشوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة، وألبسوه من الجنة، قال: فيأتيه من رَوْحها وطيبها، قال: ويُفتح له فيها مدٌّ بصره، قال: وإن الكافر، فذكر موته، قال: وتُعاد روحه في جسده، ويأتيه ملكان فيُجلسانه فيقولان: له من ربك؟ فيقول: هَاهُ هَاهُ هَاهُ، لا أدري، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هَاهُ هَاهُ، لا أدري، فيقولان: ما هذا الرجل الذي بُعث فيكم؟ فيقول: هَاهُ هَاهُ، لا أدري، فينادي مناد من السماء: أن كذب، فأفرشوه من النار، وألبسوه من النار، وافتحوا له باباً إلى النار، قال: فيأتيه من حرّها وسمومها، قال: ويُضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه، زاد في حديث جرير قال: ثم يُقيض له أعمى أبكم معه مِرْزَبَةٌ من حديد، لو ضُرب بها جبل لصار تراباً، قال: فيضربه بها ضربة يسمعها ما بين المشرق والمغرب إلا النُّفْلَيْنِ، فيصير تراباً، قال: ثم تُعاد فيه الروح»⁽²⁾. ومن الأدلة على عذاب القبر أنّ النبي ﷺ مر على قبرين فقال: «إِنَّهُمَا لِيُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ ثُمَّ قَالَ: بَلَىٰ أَمَّا أَحَدُهَا فكَانَ يَسْعَىٰ بِالنَّمِيمَةِ وَأَمَّا الْآخَرُ فكَانَ لَا يَسْتَنْزِعُ

(1) حسن، أخرجه الترمذي (1074)، وأحمد (6582).

(2) أخرجه أبو داود (4753) واللفظ له، والنسائي (2001)، وابن ماجه (1549) مختصراً، وأحمد (18557).

من بوله»، وفي رواية: «لا يَسْتَتِرُ مِنْ بَوْلِهِ»⁽¹⁾.
ومن ذلك قوله: «...فَلَوْلَا أَنْ لَا تَدْفَنُوا، لَدَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يُسْمِعَكُمْ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ
الَّذِي أَسْمَعُ مِنْهُ...»⁽²⁾، لأنكم ستفزعون ولا تدفنوا موتاكم بعد ذلك.

وورد في الصحيحين: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَدْعُو وَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ
الْقَبْرِ، وَمِنْ عَذَابِ النَّارِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَالِ»⁽³⁾.
ومن ذلك أيضاً، حديث المعراج فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَمَّا
عَرَجَ بِي رَبِّي مَرَرْتُ بِقَوْمٍ لَهُمْ أَطْفَارٌ مِنْ نُحَاسٍ، يَحْمِشُونَ وُجُوهَهُمْ وَصُدُورَهُمْ. فَقُلْتُ:
مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ لَحُومَ النَّاسِ، وَيَقْعُونَ فِي أَعْرَاضِهِمْ»⁽⁴⁾.
وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَرَرْتُ لَيْلَةً أَسْرَى بِي عَلَى قَوْمٍ تُفَرِّضُ شِفَاهَهُمْ بِمَقَارِضٍ مِنْ
نَارٍ. قَالَ: قُلْتُ مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالُوا: خُطَبَاءُ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا مِمَّنْ كَانُوا يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ،
وَيَنْسَوْنَ أَنْفُسَهُمْ، وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ، أَفَلَا يَعْقِلُونَ»⁽⁵⁾.

وعن سالم بن عبد الله عن أبيه، قال: «خرجت مرة لسفر فمررت بقبر من قبور
الجاهلية، فإذا رجل قد خرج من القبر في عنقه سلسلة ومعها أداة من ماء؛ فلما رأيته
قال يا عبد الله اسقني، قال: فقلت عرفني فدعاني باسمي، أو كلمة تقولها العرب: يا عبد
الله؟ إذ خرج على أثره رجل من القبر فقال: يا عبد الله، لا تسقه فإنه كافر، ثم أخذ
السلسلة فاجتذبه، فأدخله القبر؛ قال ثم أضافني الليل إلى بيت عجوز إلى جانيها قبر،
فسمعت من القبر صوتا يقول: بول وما بول؟ شن وما شن؟ فقلت للعجوز: ما هذا؟
قالت: كان زوجا لي وكان إذا بال لم يتق البول وكنت أقول له: ويحك! إن الجمل إذا
بال تفاج، وكان يأبى؛ فهو ينادي من يوم مات: بول وما بول؟ قلت فما الشن؟ قالت
جاء رجل عطشان فقال: اسقني فقال دونك الشن، فإذا ليس فيه شيء، فخر الرجل ميتا؛
فهو ينادي منذ يوم مات: شن وما شن؟ فلما قدمت على رسول الله ﷺ - أخبرته، فنهى
أن يسافر الرجل وحده»، وهذا الأثر ضعيف، قال ابن عبد البر أَنَّ رواته مجهولون،
لكن أتيت به لبيان ضعفه، وللاعتبار به لا للاستدلال في الصحيح غنية.

مسألة: هل عذاب القبر ونعيمه على الروح أم على الجسد أم عليهما؟!

اختلف العلماء في هذه المسألة على ثلاثة أقوال:

القول الأول: على الروح فقط، ومنهم ابن حزم - - والحق أَنَّ ابن حزم - وإن

كان من أساطين أهل العلم - إلا أنه في باب العقيدة ليس من أهل السنة والجماعة.

القول الثاني: على الجسد فقط، وهؤلاء يرون أَنَّ العذاب على الجسد أول ما يدخل

(1) أخرجه البخاري (218)، ومسلم (292).

(2) صحيح مسلم (2867).

(3) أخرجه البخاري (1377) واللفظ له، ومسلم (588).

(4) أحمد (13340)، وأبو داود (4878) وصححه الألباني، وشعيب الأرنؤوط..

(5) أحمد (12211)، وابن حبان (53).

القبر.

القول الثالث: على الروح والجسد، وهذا الصحيح - إن شاء الله - وهو ما قرره شيخ الإسلام وهو منهج أهل السنة والجماعة، فالعذاب والنعيم يكونان تارة على الروح، وتارة على البدن.

والأصل: أن العذاب والنعيم على الروح والجسد تبع له، والدليل على ذلك ما جاء عن ابن مسعود حينما سئل عن معنى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: 169]، فقال: «أما إنا قد سألنا عن ذلك، فقال: «أرواَهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خَضِرٍ، لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ، تَسْرُحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ...» (1).

أما الدليل على وقوعه على الروح والبدن معاً، ما جاء في الحديث: «... وإن كان منافقاً قال سمعتُ النَّاسَ يقولونَ فقلْتُ مثلهُ لا أدري فيقولان قد كنَّا نعلمُ أنَّكَ تقولُ ذلكَ فيقالُ للأرضِ النِّمِّي عليه فتلتئمُ عليه فتختلفُ أضلاعهُ فلا يزالُ فيها معدَّباً حتَّى يبعثَهُ اللهُ من مَضْجِعِهِ ذلكَ» (2).

إنكار بعض أهل البدع لعذاب القبر ونعيمه

قال بعض أهل البدع بنفي العذاب والنعيم في القبر، واستدلوا على ذلك بأدلة، منها:
١- قول الله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾ [الدخان: ٥٦] ويقولون: إنَّ المقبور لا يعذب ولا ينعم، ووجه الدلالة: أنهم يقولون: إن الآية فيها نص صريح: أنه لا يموت إلا مودة واحدة فإذا نزل قبره فعدت روحه إلى جسده فسئل، وبعدما سئل عذب أو نعيم ثم مات مرة ثانية، فهذه موتتان، وهذا يعارض هذه الآية.
٢- واستدلوا بقول الله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ٢٢﴾ [فاطر: ٢٢]، وقال الله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى﴾ [الروم: ٥٢] فقد ثبت بالدليل الصحيح أن الميت لا يسمع، فكيف نقول: إنه لا يسمع، ثم يجيب، فهو لا يسمع السؤال أصالة فلا يصح أن يجيب الإجابة.

٣- ومن النظر، قالوا: الذي أكلته السباع أو الكلاب فلم يدخل القبر أصلاً، كيف سيعذب أو ينعم؟! وقالوا: نحن نجلس بجانب القبر، ونمكث مدة طويلة، فلا نسمع من عذاب القبر شيئاً! ثم إذا كانت القبور بين منعم ومعدب، ألا يصيب عذاب الفاجر المؤمن فيكبر نعيمه وهناءه؟

الجواب على أدلتهم الأثرية من وجهين:

الوجه الأول: ما يحدث في القبر ليس موتاً، بل هو نوم، والنوم يسمى موتاً، قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]، وقال النبي ﷺ «نم كنوم العروس»، فتبقى الآية على صريحها أنها ليست إلا مودة واحدة التي هي مودة الدنيا ونحن نوافق على ذلك.

(1) صحيح مسلم (1887).

(2) أخرجه الترمذي (1071)، وابن حبان (3117)، صححه الألباني.

ويبين لنا ذلك أيضًا أنَّ النبي ﷺ كان يقول عندما يستيقظ من نومه: «الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أمانتنا»، فسامها مودة مع أنَّها نومة.

الوجه الثاني: الاستثناء في قوله ﴿لَا يَدْخُلُونَ فِيهَا الْمَوْتِ إِلَّا الْمَوْتَةُ الْأُولَى﴾ [الدخان: ٥٦] استثناء منقطع، وهذا كلام عن أهل الجنة فإذا دخلوا الجنة لا يموتون، وإلا فقد وردت الأدلة على أنَّ أهل الكبائر إذا دخلوا النار صاروا حمماً، فتكون الآية خاصة بمن دخل الجنة وأنها يتنعم ويتلذذ فلا يموت بعد ذلك.

وأما الجواب على قول الله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى﴾ [الروم: ٥٢]، نقول: إذا كان الله نفي عن الرسول ﷺ أن يُسمع الموتى، لكن هذا لا يعني أنَّ الملك لا يسمعه بقدرة الله.

الأمر الثاني: السماع سماعان: سماع إجابة، وسماع بالآلة، فسماع الإجابة: أن يسمع فيجيب وهذه منفية عن النبي ﷺ؛ لأنَّهم يسمعون ولا يجيبون، كما قال النبي ﷺ في أهل قليب بدر: «هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟»، فقال عمر: يا رسول الله! تكلم الأموات؟ فقال: «ما أنتم بأسمع منهم الآن»، يعني: هم يسمعونني أشد مما تسمعون أنتم، لكنَّهم لا يجيبون وليس لديهم القدرة على الإجابة، فإذا، النفي هنا نفي سماع الإجابة ولا إشكال فيه.

أمَّا إذا قلنا: نفي السماع الكلي المطلق فهو نفي عن قدرة النبي ﷺ أن يسمعهم، ولا تستلزم نفي أنَّ الله يعطي الملائكة قدرة فيُسمعون الميت المقبور فيسألانه حتى يجيب، وهذا الرد على الدليل الثاني من الأثر.

أما دليلهم الثالث الذي من النظر، فالرد عليه:

الدور ثلاثة: دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار الآخرة وكل دار لها حكم يختص بها، فدار الدنيا لها أحكام، وأحكامها تقع على البدن والروح تكون تابعة، كالسارق الذي تقطع يده، فهذه على البدن وهو يتألم معنوياً، فالروح تابعة.

ودار البرزخ تقع أحكامها على الروح والجسد تبع لها، ودليل ذلك قول النبي ﷺ: «أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تعلق من شجر الجنة».

الدار الثالثة التي لها حكم خاص هي: دار الآخرة، ودار الآخرة تجمع الشمل، فدار الآخرة تقع أحكامها على البدن وعلى الروح، ثم إنَّه لا يقاس أمر الدنيا على الآخرة ومن النظر: أنت تدخل على رجلين نائمين أحدهم يرى كأنَّه في الجنة يتنعم ويسعد، والآخر يرى كأنَّه في النار يعذب فيها ويشرب من حميمها، ولا أحد يشعر بالآخر، فإن كان هذا ممكناً في الدنيا فمن باب أولى عند خروج روحه، قال تعالى: ﴿يُضْرَبُونَ وَجُوهُهُمْ وَأُذُنُهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٠] وأنت لا ترى ذلك، وقال تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ٨٥ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ٨٦ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ٨٧﴾ [الواقعة: ٨٥ - ٨٧]، ولا ترى ذلك، وهذا من ناحية النظر والقياس، وهذا قياس مع الفارق، فلا بد في القياس أن يكونا متماثلين، والأصل والفرع هنا غير متماثلين.

النفخ في الصور وأقسامه:

بعد أن يدخل صاحب القبر قبره، ويدخل الكثير من الناس إلى مقابر الآخرة، فلا يبقى في هذه الدنيا إلا شرار الخلق، كما جاء في الحديث: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى لَا يُقَالَ فِي الْأَرْضِ: اللَّهُ، اللَّهُ»⁽¹⁾ عندها يأمر الله - جل في علاه - إسرافيل وهو الملك الموكل بالقرن بالنفخ، والقرن: هو الصور العظيم الذي ينفخ فيه الملك، فيصعق من في السماوات ومن في الأرض فيموت الجميع.

وشأن النفخة عظيم، قال النبي ﷺ: «كَيْفَ أَنْعَمَ وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قَدْ التَّقَمَ الْقَرْنَ وَحَنَى جَبْهَتَهُ، وَأَصْغَى السَّمْعَ مَتَى يُؤَمَّرُ، قَالَ: فَسَمِعَ ذَلِكَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَشَقَّ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: قُولُوا: حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ»⁽²⁾، وهذا فيه دلالة على عظم خلق إسرافيل وقوته؛ فمن صيحة واحدة يهلك من في السماوات ومن في الأرض، وفي نفخة أخرى يخرج الناس من قبورهم أحياء إلى ربهم، وهذا ثابت بالكتاب والسنة والإجماع.

أما من الكتاب: قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمٰوٰتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [الزمر: 68]، وهذه النفخة هي نفخة الصعق، وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ٥١﴾ [يس: 51]، وبعد أن يميت الله الخلق بهذه النفخة، يأمر السماء أن تمطر مطراً كمنّي الرجال فتنتب الأجساد كما كانت - وتكون قد بليت ولم يبق منها إلا عجب الذنب - فإذا نفخ في القرن ثانية إذا هم قيام إلى ربهم ينظرون.

ويدل على ذلك من السنة، قول النبي ﷺ: «...ثُمَّ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ، فَلَا يَسْمَعُهُ أَحَدٌ إِلَّا أَصْغَى لَيْتًا وَرَفَعَ لَيْتًا، قَالَ: وَأَوَّلُ مَنْ يَسْمَعُهُ رَجُلٌ يَلُوطُ حَوْضَ إِبْلِهِ، قَالَ: فَيَصْعَقُ، وَيَصْعَقُ النَّاسُ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّهُ - أَوْ قَالَ: يُنْزِلُ اللَّهُ - مَطَرًا كَأَنَّهُ الطَّلُّ - أَوْ الظَّلُّ؛ نَعْمَانُ الشَّكِّ - فَتَنْبُتُ مِنْهُ أَجْسَادُ النَّاسِ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَى، فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ»⁽³⁾.

فتبين مما سبق أنّ النفخ مرتان فقط، وهذا الراجح الصحيح، وإن كان شيخ الإسلام ابن تيمية رجّح أنّ النفخ في الصور ثلاث نفحات، لكن ما عليه ظاهر الكتاب والسنة نفختان؛ نفخة يصعق بها من في السماوات والأرض، ثم النفخة الأخرى بعد أن يأمر الله السماء فتمطر هذا المطر فإذا هم قيام إلى ربهم ينظرون فيبعثهم الله جميعاً.

البعث والنشور

البعث لغة: الإرسال والنشر.

وشرعاً: إحياء الموتى يوم القيامة، فالله سيبعث الخلائق، وهذا ثابت بالكتاب والسنة والإجماع - كما سنبين - وهذا رد على المكذبين لهذه الحقيقة، وتخويفاً لمن يعلم أنّه سيقف أمام ربه فيسأله عن كل صغيرة وكبيرة دقيقة وجليلة، فيسأله عن ماله، ونفسه

(1) رواه مسلم (148).

(2) صحيح، أخرجه أحمد (19345) واللفظ له.

(3) صحيح مسلم (2940).

ولده وزوجه وأبيه وأمه، فيسأله عن كل شيء حتى عن نفسه، فلا بد للعاقل بعد اعتقاده هذا الاعتقاد أن يعدّ له العدة، ويعمل لهذا اليوم العظيم. وقد ثبت البعث في الكتاب: قال تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ٧﴾ [التغابن: 7]، وقال الله جل في علاه: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ٤٩ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ٥٠﴾ [الواقعة: 49 – 50].

وأما من السنة: قال النبي ﷺ: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ أَرْضٍ بَيضاءَ عَفراءَ، كَقُرْصَةِ نَقِيٍّ. قَالَ سَهْلٌ أَوْ غَيْرُهُ: لَيْسَ فِيهَا مَعْلَمٌ لِأَحَدٍ»⁽¹⁾. وأجمع أهل السنة والجماعة على أن الله يعيد الخلق كما بدأه، وأن الله يجمع الخلق يوم القيامة.

أما صفة الخروج والبعث: فالله يرد الخلق كما بدأهم، أي: كما كانوا في بطون أمهاتهم، قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ١٠٤﴾ [الأنبياء: 104]، ونستنبط من هذه الآية إثبات البعث بالقياس؛ فالله يقيس الإعادة على الابتداء، ويسمى هذا القياس بالقياس الجلي، أي الأولوي، فكما أن الله خلق الإنسان من عدم فسيعيده يوم القيامة وهو أهون عليه، وأنت في حياتك الواقعية ترى النجار يصنع من الخشب مكتبة للكتب، فإذا انكسرت سهل على النجار إعادة إصلاحها، والله المثل الأعلى، قال: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ [الأنبياء: 104].

ويُستنبط من هذه الآية العظيمة أيضاً: أن الإنسان سيبعث كما ولد، قال النبي ﷺ مفسراً إجمال هذه الآية: «يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غُرلاً»⁽²⁾، يعني غير مختونين.

الحساب

ثم بعد البعث والحشر يكون الحساب، والحساب: هو: إطلاع الله تعالى عباده على أعمالهم قبل الانصراف من المحشر خيراً كانت أو شراً؛ قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: 6].

والحساب ثابت بالكتاب والسنة والإجماع والعقل، وهو أصل من أصول أهل السنة والجماعة.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ٨﴾ [الانشقاق: 7، 8].

ومن السنة: قال النبي ﷺ: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع:

(1) صحيح البخاري الصفحة أو الرقم: 6521، أخرجه مسلم (2790).

(2) صحيح مسلم (2859)، أخرجه البخاري (6527).

عمره فيم أفناه؟ وعن علمه فيم فعل؟ وعن ماله من أين اكتسبه؟ وفيم أنفقه؟ وعن جسمه فيم أبلاه»⁽¹⁾.

ومن ذلك، قال رسول الله ﷺ «ما منكم من أحدٍ إلا سيُكَلِّمُهُ اللهُ يومَ القيامةِ، ليس بينه وبينه ترجمانٌ، فينظرُ أيمنَ منه، فلا يرى إلا ما قدَّم، وينظرُ أيمنَ منه، فلا يرى إلا ما قدَّم، وينظرُ بين يديه، فلا يرى إلا النَّارَ تَلْقَاءَ وجهه، فاتَّقوا النَّارَ، ولو بشِقِّ تمرَةٍ، ولو بكلمةٍ طيبةٍ»⁽²⁾.

وجاء في حديث النجوى: «...إِنَّ اللهَ يُدْني الْمُؤْمِنَ، فيَضَعُ عليه كَفَّهُ وَيَسْتُرُهُ، فيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فيَقُولُ: نَعَمْ أَيُّ رَبِّ، حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ، وَرَأَى في نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ، قال: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ في الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْوَها لَكَ اليَوْمَ»⁽³⁾.
ومن ذلك دعاء النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ حَاسِبِي حِسَابًا يَسِيرًا، فَلَمَّا انصَرَفَ قُلْتُ: يا رسول الله ما الحِسابُ اليسيرُ؟ قال: أَنْ يَنْظُرَ في كُتابِهِ فيَتَجَاوَزَ لَهُ عَنْهُ، إِنَّهُ مَنْ نُوقِشَ الحِسابُ يا عائِشَةُ يَوْمَئِذٍ هَلَكَ»⁽⁴⁾.

وأجمع المسلمون على ثبوته يوم القيامة، والعقل يثبت ذلك أيضًا، فالفقيه الأريب حينما ينظر للناس وهم يتصارعون فمنهم الظالم والمظلوم، ومنهم المتعدي ومن اعتدي عليه، ثم يموتون ولمَّا يؤخذ حق المظلوم ومن اعتدي عليه، فيعلم علم اليقين أنه لا بد أن يكون هناك يوم آخر للإتصاف ولأخذ حق كل من ظلم؛ لأنَّ الله حكم عدل، ولا يتصور منه الظلم أبدًا.

وقد تكفل الله بالحساب وهو الحكم العدل، وليس لأحد دونه إلا البلاغ فقط، قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبُلُغُ الْمُبِينِ ٥٤﴾ [النور: 54]، وقال: ﴿فَاتِّمِمْنَا عَلَيْكَ أَلْبُلُغًا وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ٤٠﴾ [الرعد: 40]، وقال جل في علاه: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ٢٦﴾ [الغاشية: 25 – 26].

وهذا الحساب له أمور عديدة:

الأمر الأول: كيفية محاسبة الله تعالى للخلق؛ فأقول: محاسبة الخلق أجمعين تكون كمحاسبة الرجل الواحد، فكما أنَّ صوته يبلغهم جميعا في آن واحد، فكذا حسابه لهم جميعا كحساب كرجل واحد، والله على كل شيء قدير.

الأمر الثاني: الحساب حسابان: حساب يسير، وحساب عسير، فأما الحساب اليسير: فهو للمؤمنين، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ٧ فَسَوْفَ يُحَاسِبُ حِسَابًا يَسِيرًا ٨﴾ [الانشقاق ٧، ٨]، وقد فسرها النبي ﷺ للسيدة عائشة فقال: «ذاك العرض»⁽⁵⁾.

(1) رواه الترمذي (2417)، قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في الصحيحة (946)، وصحيح الجامع (7300)، وصحيح الترغيب والترهيب (126).

(2) أخرجه البخاري (7443)، ومسلم (1016).

(3) صحيح البخاري الصفحة أو الرقم: 2441 وأخرجه مسلم (2768).

(4) أخرجه مطولاً أحمد (24261)، وابن خزيمة (849)، والحاكم (7636) واللفظ له.

(5) صحيح البخاري، الصفحة أو الرقم (4939) ومسلم (2876).

وأما الحساب العسير: فهي المناقشة، قال النبي ﷺ لعائشة: «...وَمَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ هَلْكَ»⁽¹⁾ فيحاسبه الله على كل نعمة حساباً دقيقاً، فيحاسبه على أوقاته وأعماله وعلى كل شيء فعله في هذه الدنيا، فتخبر الأيدي والأرجل، وتطيش الصحائف، فكل إنسان ألزمه الله طائره في عنقه فهو رقيب وحسيب على نفسه، فإذا نوقش الحساب عليم يقيناً أنه من أهل النار، نعوذ بالله من ذلك.

أما الأمر الثالث الذي يتعلق بمسألة الحساب: شرف هذه الأمة؛ بأنها أول من يحاسب من الأمم، قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 110]، وهذه الخيرية عامة في الدنيا والآخرة، أما الخيرية في الدنيا: فالقيادة والريادة والسيادة لها إن تمسكت بدين ربها، وأما الخيرية في الآخرة؛ فلأنها أول الأمم قضاء بينهم، وهي أول من يحاسب تشريعاً وتعظيماً، كما شرف الله وعظم نبيها بالمقام المحمود، وقد بينا أن هذه الأمة لها ثلاث أولويات: فهي أول أمة تحاسب، وأول من يعبر الصراط، قال رسول الله ﷺ: «... ويضرب الصراط بين ظهري جهنم، فأكون أنا وأمتي أول من يجيز»⁽²⁾، وأول من يدخل الجنة، قال النبي ﷺ: «نَحْنُ الْآخِرُونَ الْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَنَحْنُ أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ»⁽³⁾.

وأول حساب يحاسب عليه المرء القضاء في الحقوق، والحقوق قسمان: حقوق لله، وحقوق للعباد، فأما حقوق الله فأولها الصلاة فإذا صلحت صلح سائر الأعمال، وإذا فسدت فسد سائر الأعمال.

وأما في حقوق العباد فأولها الخصومات والدماء، فإذا تجاوز المرء الحساب، وكان حسابه يسيراً وكتب له الجنة وعبر الصراط، بقي له محطة أخيرة، فلا يدخل الجنة حتى يقضي الله فيما بينهم في القنطرة بين الجنة والنار، ويدل على ذلك حديث أبي سعيد الخدريؓ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا خَلَصَ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ، حُبِسُوا بِقَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيَنْقَاصُونَ مَظَالِمَ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا نُفُوا وَهَدَّبُوا، أُذِنَ لَهُمْ بِدُخُولِ الْجَنَّةِ، فَأُولَئِكَ نَفْسٌ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لِأَحَدِهِمْ بِمَسْكَنِهِ فِي الْجَنَّةِ: أَذَلُّ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا»⁽⁴⁾، فعلى كل إنسان له مظلمة عند أخيه أن يتخلل قبل أن يأتي يوم لا درهم فيه ولا دينار، قال ﷺ: «مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ مِنْ عَرَضِهِ أَوْ مِنْ شَيْءٍ فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ، إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أَخَذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أَخَذَ مِنْ سَيِّئَاتٍ صَاحِبِهِ، فَحُمِلَ عَلَيْهِ»⁽⁵⁾.

وجاء في مسند أحمد عن عائشة - موقوفاً بسند صحيح - ومرفوعاً، قالت: قال رسول الله ﷺ: «الدواوين عند الله ثلاثة: ديوان لا يعبا الله به شيئاً، وديوان لا يترك الله

(1) صحيح البخاري (4939) ومسلم (2876).

(2) البخاري (6573، 6574)، ومسلم (182).

(3) البخاري (876)، ومسلم (855).

(4) أخرجه البخاري (2440).

(5) رواه البخاري (6534).

منه شيئاً، وديوان لا يغفره الله؛ فأما الديوان الذي لا يغفره الله فالشرك بالله، قال الله: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾، وأما الديوان الذي لا يعبأ الله به شيئاً فظلم العبد نفسه فيما بينه وبين ربه من صوم يوم تركه، أو صلاة تركها فإن الله يغفر ذلك، ويتجاوز إن شاء، وأما الديوان الذي لا يترك الله منه شيئاً فظلم العباد بعضهم بعضاً القصاص لا محالة⁽¹⁾، وقد سأل النبي ﷺ الصحابة ذات يوم فقال: «أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟ قالوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، فَقَالَ: إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ، وَصِيَامٍ، وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أَخَذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ»⁽²⁾، فعلى المؤمن أن يتحلل من أخيه بأية وسيلة، فعند الله ستجتمع الخصوم ويُقضى بين العباد.

وزن الأعمال

ثم لابد بعد الحساب من زنة الأعمال، وتوزن بكفة حقيقية، كفة للحسنات وكفة للسيئات، وهذا من تمام الحساب، وأدلة ذلك:

١- قال الله تعالى مبيناً لنا حقيقة الميزان يوم القيامة: ﴿وَنُضِجَ الْمَوْزِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حُسِيبِينَ ٤٧﴾ [الأنبياء: 47]، وقال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ٨ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ٩﴾ [الفارعة: 6 - 8]، فنذكر الموازين.

٢- وجاء في الحديث عن أبي هريرة ؓ وأرضاه يرفعه: «ما شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلقٍ حسنٍ، فإن الله تعالى لِيُبْعِضَ الْفَاحِشَ الْبَذِيءَ»⁽³⁾.

الشاهد من الحديث قال: (في ميزان العبد) فهو إثبات لوجود الميزان.

٣- كذلك حديث البطاقة الوارد عن النبي ﷺ، وكيف أنَّ السجلات توضع في كفة، والبطاقة في كفة أخرى، وهذا دلالة على الميزان أيضاً.

وقد أجمع أهل السنة والجماعة على حقيقة الميزان، وأنَّ الله سيزن أعمال العباد فيه.

وقد اختلف العلماء في حقيقة الموزون: هل الأعمال التي توزن أم العباد أم الصحائف؟! وهذا الخلاف منبثق بحسب أدلة جاءت أثبتت كل هذه الأنواع؛ أما الأدلة

(1) أخرجه الإمام أحمد في المسند (6/ 240) والحاكم في المستدرک (4/ 619) والبيهقي في شعب الإيمان (6/ 52) تخريجه: قال الألباني: ضعيف، ضعيف الجامع (3022).

(2) صحيح مسلم (2581).

(3) صحيح الترمذي، الصفحة أو الرقم: 2002 صحيح، أخرجه أبو داود (4799)، وأحمد (27517) مختصراً، والترمذي (2002)، (حديث صحيح).

على وزن الصحائف: فحديث البطاقة، قال: «فتوضع السجلات في كفة، والبطاقة في كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة، ولا يثقل مع اسم الله شيء»⁽¹⁾ ومدار هذه البشارات على القلوب؛ لأن كثيراً من الناس يقولون: لا إله إلا الله وليست لهم هذه البشارة من ثقل بطاقة لا إله إلا الله، والحاصل أن هذا دليل على وزن الصحائف. واستدل من قال بوزن العامل بأحاديث كثيرة، منها: قول النبي ﷺ: «إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلَ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَا يَزْنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، أَفْرُؤُوا (فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَرَأْيَا ١٠٥)»⁽²⁾.

ومن ذلك: ما جاء عن ابن مسعود - ؓ - قال: كنت أجتني لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سواكاً من الأراك، فكانت الريح تكفؤه، وكان في ساقه دقة، فضحك القوم من دقة ساقه، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «ما يضحكم؟» قالوا: من دقة ساقه، قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «والذي نفسي بيده، لهما أثقل في الميزان من أحد»⁽³⁾.

وأما الذين قالوا بوزن العمل فاستدلوا بأحاديث كثيرة، منها: قوله ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»⁽⁴⁾، بين أن هذه الكلمة: «سبحان الله وبحمده» ثقيلة في الميزان؛ فدل ذلك على أن الموزون هي الأعمال ذاتها. والصحيح الراجح في ذلك: هو الجمع بين هذه الأقوال، فنقول: إن المرء سيوزن؛ تقديرًا وتعظيمًا للمؤمنين، وتبيينًا لكرامة المؤمن عليه، وبيانًا لحقارة المنافق الفاسق الفاجر عنده.

وأما بالنسبة للأعمال والصحائف فإن الصحائف إذا وزنت فمن باب أولى أن توزن الأعمال؛ لأن الصحائف تتضمن أعمال العباد.

تطابير الصحف

ثم بعد أن يرى السعيد سعادته بتثقل الله سبحانه لميزان حسناته، ينشر الله الدواوين والكتب، فينادى على أهل اليمين فيأخذون الكتب باليمين، وينادى على أهل الشمال - والعياذ بالله - فيأخذون الكتب بالشمال، وترى الفرحة والسرور والبهجة على أهل اليمين، وترى الوليل والثبور على أهل الشمال، وحال الفريقين كما وصفه الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَأُوا كِتَابِيَةَ ١٩ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَةَ﴾

(1) صحيح الترمذي (2639) وأحمد (6994).

(2) صحيح مسلم (2785).

(3) أخرجه أحمد (420-421/1)، والطالسي رقم: (355)، وابن سعد (3/155)، وأبو نعيم في الحلية (1/127)، وابن حبان رقم: (7194)، من طرق عن حماد عن عاصم، عن زر بن حبيش، عنه، قال الألباني: "وهذا سند حسن"، انظر: إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل (1/104)، وحسنه شعيب الأرنؤوط، وله شواهد؛ ولذلك قال في السلسلة الصحيحة (6/570) رقم: (2750): "وهو صحيح بطرقه الكثيرة"، وانظر - أيضاً -: الصحيحة رقم: (3192).

(4) أخرجه البخاري (6682)، ومسلم (2694).

٢٠ ﴿[الحاقة: 19 - 20]، اللهم اجعلنا ممن يأخذ كتابه بيمينه، وقال تعالى: ﴿وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ٩﴾ [الانشقاق: 9]، أما الآخر والعياذ بالله فيقول: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يُلَيِّنُنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَّةَ ٢٥ وَلَمْ أَدْر مَا حِسَابِيَّةَ ٢٦﴾ [الحاقة: 25 - 26]، وهذا الذي ينقلب بالويل والثبور فيأخذ كتابه بشماله، نعوذ بالله أن نكون منهم. وفي الحديث عن عائشة ~ وأرضاها - «أَنَّهَا ذَكَرَتْ النَّارَ فَبَكَتْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَا يَبْكِيكَ؟ قَالَتْ: ذَكَرْتُ النَّارَ فَبَكَيْتُ، فَهَلْ تَذْكُرُونَ أَهْلِيكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَمَّا فِي ثَلَاثَةِ مَوَاطِنَ فَلَا يَذْكُرُ أَحَدٌ أَحَدًا: عِنْدَ الْمِيزَانِ حَتَّىٰ يَعْلَمَ أَيَخْفُ مِيزَانُهُ أَوْ يَنْتَقِلُ، وَعِنْدَ الْكِتَابِ حِينَ يَقَالُ هَٰؤُلَاءِ أَقْرَأُوا كِتَابِيَّةَ حَتَّىٰ يَعْلَمَ أَيْنَ يَقَعُ كِتَابُهُ أَفِي يَمِينِهِ أَمْ فِي شِمَالِهِ أَمْ مِنْ وَرَاءَ ظَهْرِهِ، وَعِنْدَ الصِّرَاطِ إِذَا وَضَعَ بَيْنَ ظَهْرِي جَهَنَّمَ»⁽¹⁾. ولذلك قال بعض السلف: ما من امرأة إلا وتقول لوليدها: أي بني! ألم يكن لك بطني وعاء؟ ألم يكن لك حجري غطاء؟ ألم يكن لك ثديي سقاء؟! أي بني! أحتاج إلى حسنة واحدة، فيقول: أي أماء! إليك عني فإني أحتاج إليها هذا اليوم، أو يقول: إني لها أحوج، وهذا مصداق لقول الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ٣٤ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ٣٥﴾ [عبس: 34 - 35]، نعوذ بالله من الخذلان.

حوض النبي ﷺ

ثم يكون الذهاب إلى حوض النبي ﷺ بسبب العطش الذي أصابهم، وقد اختلف العلماء في الترتيب بين الحوض والصراط: أيهما قبل الآخر؟ والغرض المقصود: هو الإيمان بالغيبيات؛ لأنَّ هذا هو محل التفريق بين العباد؛ فالله جل وعلا أناط الخير والفلاح بالإيمان بالغيب قال: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ٣﴾ [البقرة: 3] ثم قال بعدها: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ٥﴾ [البقرة: 5]، فأناط الفلاح بالإيمان بالغيب.

وتتام الإيمان بالغيب ردًا على المعتزلة: الإيمان بحوض النبي ﷺ، وهو الحوض العظيم الذي اختص الله به نبيه ﷺ - ولكل نبي حو، لكن حوض النبي ﷺ له من الخصوصية والكرامة والعظمة ما له.

وحوض النبي ﷺ طوله شهر، وعرضه شهر، وزواياه متساوية، فكأنَّ حوض النبي ﷺ بشكل مربع، فيحصل بذلك العدل والتساوي في الشرب والوقوف، فلا يحجب أحد عن رؤيته دون أحد.

أما بالنسبة لكيزان وأكواب الحوض فهي كالنجوم عددًا، وعدد النجوم لا يحصى، وهي أيضاً كالنجوم بهاءً وعظمةً وتلألأً، فإذا سألت عن طعم الماء فهو أحلى من

(1) ضعيف أبي داود (4755).

العسل، وإن سألت عن لون الماء فهو أبيض من اللبن، سقانا الله وإياكم من هذا الحوض الشريف شربة هنيئة لا نظماً بعدها أبداً، قال النبي ﷺ: «حَوْضِي مَسِيرَةُ شَهْرٍ، وَزَوَايَاهُ سَوَاءٌ، وَمَاؤُهُ أَبْيَضُ مِنَ الْوَرَقِ، وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِنَ الْمِسْكِ، وَكَبِيرَانُهُ كُنُجُومِ السَّمَاءِ، فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَا يَظْمَأُ بَعْدَهُ أَبَدًا» (1).

وماء هذا الحوض العظيم يصب من نهر منحه الله لنبيه في الجنة اسمه: نهر الكوثر، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۚ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۚ﴾ [الكوثر: 1 - 2]، فعندما يصب نهر الكوثر فإنه يجتمع في حوض النبي ﷺ، وقد قال ﷺ: «أَنَا قَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ...» (2).

فإن قيل: أين حوض النبي ﷺ؟ فالجواب: أن هناك حديثين يثبتان مكانه؛ أول مكان: هو منبره ﷺ، قال النبي ﷺ: «مَا بَيْنَ بَيْتِي وَمِنْبَرِي رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ، وَمِنْبَرِي عَلَى حَوْضِي» (3).

وما من منكر لأمر ثبت في السُّنَّةِ إلا وكان عقابه أن يُصدَّ عن هذه الفضيلة، فالمعتزلة الذين أنكروا الحوض سيعطشون يوم القيامة بمشيئة الله لمخالفتهم هذه السنة، وقد قال النبي ﷺ: «إِنِّي أَزُودُ عَلَى حَوْضِي» يعني: يبعد الناس عن حوضه، قال: «وَلِيُخْتَلَجَنَّ رَجُلٌ دُونِي»، يعني: من أمام الحوض، قال: «فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أَصْحَابِي، فَيَقَالُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بِعَدِّكَ»، يعني: ابتدعوا والعياذ بالله، فانظروا إلى البدعة المميتة كيف تفعل بأصحابها، «فَأَقُولُ: سَحْقًا سَحْقًا لِمَنْ بَدَّلَ بَعْدِي» (4).
فالمحروم بحق هو الذي لا يشرب من حوض النبي ﷺ، لردّه الأحاديث الصحيحة التي تثبت حوض النبي ﷺ.

قال المصنف: [ويشفع نبينا ﷺ فيمن دخل النار من أمته من أهل الكبائر فيخرجون بشفاعته بعدما احترقوا وصاروا فحماً وحماً فيدخلون الجنة بشفاعته ولسائر الأنبياء والمؤمنين والملائكة شفاعات. قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرَادَ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ۚ﴾ [الأنبياء: ٢٨] ولا تنفع الكافر شفاعة الشافعين].

الشفاعة

الشفاعة لغة: جعل الواحد اثنين.
وشرعاً: هي التوسط للغير عند معظم لجلب منفعة، أو دفع مضرة.

(1) أخرجه البخاري (6579)، ومسلم (2292).

(2) صحيح البخاري (7050)، أخرجه مسلم (2290، 2291).

(3) صحيح البخاري (1888).

(4) سبق تخريجه.

وقبل أن ندخل في الشفاعة أقول: إِنَّ النَّاسَ فِي قُبُورِهِمْ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «قد التقم صاحب القرن القرن وأصغى ليؤذن له فينفخ»⁽¹⁾، فينفخ في الصور النفخة الثانية فإذا الناس قيام ينظرون، كلهم يحشرون على أرض غير الأرض، وسما غير السماء، فيحشرون حفاة عراة غرلاً -أي: غير مختونين- فيحشرون وقد بلغ بهم العطش مبلغه، واشتد بهم الكرب، والشمس تدنو من الرؤوس قدر ميل، أو قدر شبر، فمنهم من يصل العرق إلى كعبيه، ومنهم إلى ركبتيه، ومنهم من يصل العرق إلى حقويه، ومنهم إلى صدره، ومنهم من يلجمه العرق الجأماً، فيشتد الأمر عليهم، كما وصف الله جل في علاه ذلك، قال: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَتْفُؤًا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝ يَوْمَ تَرَوْنها تَذْهَبُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ۝﴾ [الحج: 1 - 2] وبينما هم سكارى يتخبطون، «...فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ: أَلَا تَرَوْنَ إِلَىٰ مَا أَنتُمْ فِيهِ إِلَىٰ مَا بَلَغَكُمْ؟ أَلَا تَنْظُرُونَ إِلَىٰ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ؟»، وهم لم يطلبوا الشفاعة للتخفيف من الكرب، بل للقضاء والفصل، كما قال تعالى عن المجرمين: ﴿وَنَادُوا يَمْلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: 77]، فالكثير ينتظر المحاكمة في الدنيا من البشر مع أن أمره هين تنتهي بساعة أو ساعتين ثم يعلم مصيره ومع ذلك تجد حاله في ترقب وخوف، فكيف بيوم القيامة الجميع ينتظر المحاكمة من الله ليعلم مصيره إلى أين، فالكرب شديد لذا يأتون للأنبياء، «فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ: أَبُوكُمْ أَدَمُ، فَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُونَ: يَا أَدَمُ، أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ، خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، وَأَسْكَنْكَ الْجَنَّةَ، أَلَا تَشْفَعُ لَنَا إِلَىٰ رَبِّكَ؟ أَلَا تَرَىٰ مَا نَحْنُ فِيهِ وَمَا بَلَغْنَا؟ فَيَقُولُ: رَبِّي غَضِبَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَا يَغْضَبُ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَنَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ، نَفْسِي نَفْسِي، أَذْهَبُوا إِلَىٰ غَيْرِي، أَذْهَبُوا إِلَىٰ نُوحٍ، فَيَأْتُونَ نُوحًا، فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ، أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَىٰ أَهْلِ الْأَرْضِ، وَسَمَّاكَ اللَّهُ عَبْدًا شَكُورًا، أَمَا تَرَىٰ إِلَىٰ مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَىٰ إِلَىٰ مَا بَلَغْنَا؟ أَلَا تَشْفَعُ لَنَا إِلَىٰ رَبِّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّي غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَا يَغْضَبُ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، نَفْسِي نَفْسِي، انْتُوا النَّبِيَّ ﷺ، فَيَأْتُونِي فَاسْجُدْ تَحْتَ الْعَرْشِ، فَيَقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَاشْفَعْ تَشْفَعُ، وَسَلْ تُعْطَهُ. قَالَ مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ: لَا أَحْفَظُ سَائِرَهُ»⁽²⁾ وهذا هو المقام المحمود تكرمة من الله لمحمد ﷺ على رؤوس الخلائق، فالله لا يقبل أحداً يشفع في القضاء بين الناس إلا هو ﷺ، كما أن أول الأمم التي يفصل الله بينها هي أمة النبي ﷺ.

وبين يدي الشفاعة أمور عظام، فالجسر يُضرب على متن جهنم، والجسر: هو الصراط الذي يعبرون عليه - اللهم اجعلنا ممن يعبر الصراط كطرفه عين - فتقف هذه الأمة، وتقف الأمم بأسرها، والنار أمامهم، لها سبعون ألف زمام، كل زمام يجره سبعون ألف ملك - نسأل الله جل في علاه أن ينجينا منها - والصراط كما وصفه النبي

(1) سبق تخريجه.

(2) صحيح البخاري (3340)، واللفظ له، ومسلم (194).

صلى الله أدق من الشعر، وأحد من السيف، فيه كلاليب -خطاطيف- كشوك السعدان تخطف الناس بحسب ذنوبهم، فإذا أخذت أحد أكتبته في نار جهنم، والرسول يقولون: اللهم سلم سلم، والناس يعبرون الصراط بحسب إيمانهم؛ فمنهم من يمر كطرفه عين، ومنهم كالريح المرسله، ومنهم كأجاويد الخيل، ومنهم من يمشي، ومنهم من يزحف، وآخر هذه الأمة عبوراً على الصراط الذي يحبو على الصراط، وهناك المكردس، ومنهم من تخذشه النار، ولكنه ينجو بفضل الله عليه، اللهم اجعلنا ممن يمر على الصراط كطرفه عين، وهذا هو ما فسره ابن مسعود في قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: 71] قال: هو المرور على الصراط، فاللهم سلم سلم، واجعلنا ممن يمر على هذا الصراط كطرفه عين.

أنواع الشفاعة

التأصيل العام للشفاعة أنها كلها لله، قال الله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ٤٤﴾ [الزمر: 44] فإذا كانت الشفاعة لله جل في علاه فلن يؤذن لأحد أن يشفع إلا بالشروط التي بيّنها الله جل في علاه، فلا أحد يشفع إلا بإذنه، ورضاه، كما صرحنا بذلك الآيات الكريمة.

والشفاعة شفاعتان: شفاعة مثبتة، وشفاعة منفية.

فالشفاعة المنفية: هي الشفاعة لأهل الشرك، فلا يقبل الله شفاعة لمشرك، والأدلة على ذلك كثيرة من الكتاب والسنة، أما من الكتاب:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٍ وَلَا شَفْعَةٍ وَأَلْكَفُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ٢٥٤﴾ [البقرة: 254].

وقوله تعالى: ﴿يُنَبِّئُ إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ٤٧ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفْعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ٤٨﴾ [البقرة: 47 - 48]، فالشفاعة هنا منفية، والآية مجملة، والبيان أن المقصود بها الشفاعة للكافرين من قوله تعالى عن الكافرين: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفْعَةُ الشَّفْعِينَ ٤٨﴾ [المدثر: 48]، وقول الله على لسانهم وهم في النار: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ١٠١﴾ [الشعراء: 100 - 101].

وأما استغفار إبراهيم لأبيه فقد أخبر الله أنه سيتبرأ منه، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ١١٤﴾ [التوبة: 114] وهذه من أظهر الآيات في الدلالة؛ فإبراهيم ع لـن يشفع في أبيه، فمن باب أولى غيره.

أما الشفاعة الثانية: فهي الشفاعة المثبتة، وهذه تنقسم إلى شفاعة خاصة، وشفاعة عامة.

أما الشفاعة الخاصة: فهي خاصة بالنبي و تكرمه من الله له، فهو أكرم الخلق على

الله جل في علاه، وهذه على أنواع ثلاثة:
النوع الأول: الشفاعة في أهل الموقف؛ فقد سبق وقلنا أنّ الناس عندما يشتد عليهم الكرب يذهبون إلى الأنبياء فيقول كل نبي: لست لها، لست لها، حتى يأتون النبي ﷺ قال: «فَأَسْجُدْ تَحْتَ الْعَرْشِ، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، وَاسْلُ تَعْطَ». قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ عُبَيْدٍ: لَا أَحْفَظُ سَائِرَهُ»⁽¹⁾، وهذا المقام المحمود، وهي شفاعة خاصة بالنبي ﷺ.

الثاني: تكون لدخول أهل الجنة الجنة، جاء في الصحيح عن النبي ﷺ قال: «آتَى بَابَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَأَسْتَفْتَحُ، فَيَقُولُ الْخَازِنُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقُولُ: مُحَمَّدٌ. فَيَقُولُ: بِكَ أَمْرٌ لَا أَفْتَحُ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ»⁽²⁾، وهذه تبين لنا أنّ الإنسان لا يمكن أن يرضي ربّه، ويقبله الله إلّا إذا أتى تابعا للنبي ﷺ.

الثالث: شفاعته لعمه الكافر، مع أنّ الله حرّم الشفاعة على الكافرين جميعا، إلّا أنّه استثنى من ذلك شفاعة النبي ﷺ في عمّه أبي طالب، ودليل ذلك ما جاء عن العباس أنّه سأل النبي ﷺ: «مَا أَغْنَيْتَ عَنْ عَمِّكَ، فَإِنَّهُ كَانَ يَحُوطُكَ وَيَعْضَبُ لَكَ؟ قَالَ: هُوَ فِي ضَخْضَاخٍ مِنْ نَارٍ، وَلَوْ لَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ»⁽³⁾، وفي رواية قال: «أَهْوَنُ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا أَبُو طَالِبٍ، وَهُوَ مُتَعَلِّقٌ بِنَعْلَيْنِ مِنْ نَارٍ، يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ»⁽⁴⁾ وحتى هذه الشفاعة لم يقبلها الله كاملة، بل قبل منه أن يخفف عنه العذاب فقط. وهذه الأنواع الثلاثة اتفق أهل السنة والجماعة عليها، وبقي أن نقول: أنّ من غلاة المتصوفة من أنكر أصالة أن يكون أبو طالب في النار، وكلامهم مردود ولا عبرة فيه لمصادمته نص حديث رسول الله ﷺ في أصح كتب الحديث.

النوع الثاني من الشفاعة المثبتة هي الشفاعة العامة: وهذه يشترك فيها محمد ﷺ، والأنبياء والمرسلون، والمؤمنون، والملائكة، وهي لأهل الكبائر، أو لمن دخل النار من أهل التوحيد، وقد أنكرتها الخوارج والمعتزلة، والحق أنّ أهل المعاصي من المسلمين يشفع فيهم الأنبياء والمرسلون، والمؤمنون، والملائكة، فيقبل الله الشفاعة فيهم فلا يدخلهم النار، أو يخرجهم منها بعد دخولهم فيها، والدليل العام عليها قول النبي ﷺ: «شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكِبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي»⁽⁵⁾، كما صح عن النبي ﷺ أنه قال: «لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ، فَتَعَجَّلْ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ، وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لَأُمَّتِي، فَهِيَ نَائِلَةٌ مِنْ مَاتَ مِنْهُمْ لَا يَشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا»⁽⁶⁾ وقال أيضا: «وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لَأُمَّتِي»،

(1) سبق تخريجه.

(2) رواه مسلم (197).

(3) أخرجه البخاري (3883)، ومسلم (209).

(4) صحيح الجامع، (2532) أخرجه مسلم (212) دون قوله: (من نار).

(5) صحيح أبي داود (4739)، التخرّيج: أخرجه أبو داود (4739)، والترمذي (2435)، وأحمد=

(13222).

(6) أخرجه البخاري (6304)، وأحمد (8959) مختصرا، ومسلم (199)، والترمذي (3602)، وابن ماجه (4307) واللفظ له.

فيدخل تحتها كل موحد سواء كان من الأتقياء أو العصاة.
ويستدل لها خاصة بحديث النبي ﷺ: «ما من رجل مسلم يموت، فيقوم على جنازته

أربعون رجلاً، لا يشركون بالله شيئاً، إلا شفعهم الله فيه» (1).
ووجه الدلالة من الحديث قوله: (رجل)، وهذه نكرة، فيدخل تحته المؤمن البار،
والفاجر الطالح، والفاجر الطالح بمعنى: أن سيئاته غلبت حسناته، فيشفع فيه الذين
صلوا عليه، ويقبل الله شفاعتهم فيه.

ويستدل لها أيضاً بحديث الشفاعة الطويل الذي رواه أبو سعيد الخدري - ع - قال:

«...ما منكم من أحد بأشدّ مناشدةً لله في استقصاء الحق من المؤمنين بالله يوم القيامة
لإخوانهم الذين في النار، يقولون: ربنا كانوا يصومون معنا ويصلون ويحجون، فيقال
لهم: أخرجوا من عزفتكم، فحرم صورهم على النار، فيخرجون خلقاً كثيراً قد أخذت
النار إلى نصف ساقيه، وإلى ركبتيه، ثم يقولون: ربنا ما بقي فيها أحد ممن أمرتنا به،
فيقول: ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه، فيخرجون خلقاً
كثيراً، ثم يقولون: ربنا لم ندر فيها أحداً ممن أمرتنا، ثم يقول: ارجعوا فمن وجدتم في
قلبه مثقال نصف دينار من خير فأخرجوه، فيخرجون خلقاً كثيراً، ثم يقولون: ربنا لم
ندر فيها ممن أمرتنا أحداً، ثم يقول: ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير
فأخرجوه، فيخرجون خلقاً كثيراً ثم يقولون: ربنا لم ندر فيها خيراً. وكان أبو سعيد
الخدري يقول: إن لم تصدقوني بهذا الحديث فافروا إن شئتم: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظِلُّ مِثْقَالَ
ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضَعَهَا وَيُوتِ مِنْ لَدُنْهِ أَجْرًا عَظِيمًا ٤٠﴾ [النساء: 40]، فيقول الله

: شَفَعَتِ الْمَلَائِكَةُ، وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ، وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، فَيَقْبِضُ
قَبْضَةً مِنَ النَّارِ، فَيُخْرِجُ مِنْهَا قَوْمًا لَمْ يَعْمَلُوا خَيْرًا قَطُّ قَدْ عَادُوا حُمَمًا، فَيُلْقِيهِمْ فِي نَهَرٍ
فِي أَفْوَاهِ الْجَنَّةِ يُقَالُ لَهُ: نَهَرُ الْحَيَاةِ، فَيُخْرِجُونَ كَمَا تَخْرُجُ الْحَبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ، أَلَا
تَرَوْنَهَا تَكُونُ إِلَى الْحَجَرِ، أَوْ إِلَى الشَّجَرِ، مَا يَكُونُ إِلَى الشَّمْسِ أَصْفَرُ وَأَخْيَضُ...» (2).

فهذه الشفاعة ثبتت في أناس دخلوا النار فصاروا فحماً، وهم أناس من أهل الكبائر،
غلبت سيئاتهم على حسناتهم - نعوذ بالله أن نكون منهم - فدخلوا النار ولكنهم موحدون،
والتوحيد مانع من الخلود في النار، فيأتي النبي، ويأتي الملك، ويأتي المؤمن، فيشفعون
في هؤلاء فيخرجون من النار ما شاء الله أن يخرجوا، ثم تبقى شفاعة أرحم الراحمين
فيقبض قبضة من النار، فيخرج منها قبضة لم تعمل خيراً قط، فيخرجهم من النار
وهؤلاء هم عتقاء الرحمن.

أما الشفاعة الثالثة التي تعمّ فهي في أناس جعل الله لهم منزلة في الجنة فيشفع
النبي ﷺ أن تكون لهم منزلة أرقى وأعلى من هذه المنزلة، كرجل منحه الله منزلة عليا
وأبوه في منزلة دنيا، فيشفع له ليصل هذا الأب إلى منزلة الابن، ويمكن أن يستدل لهذه
الشفاعة بقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا

(1) أخرجه مسلم (948).

(2) صحيح مسلم (183).

أَلْتَلَّهُمْ مِّنْ عَمَلِهِمْ شَيْءٌ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ [الطور: 21] وهذه أيضاً بالاتفاق.

وهذه الشفاعة، أي: الشفاعة العامة اتفقت كلمة أهل السنة والجماعة على أنها حاصلة للنبي ﷺ، والأنبياء، والملائكة، والمؤمنين، وقد أنكرتها المعتزلة والخوارج، وسبب إنكارهم لها هو تأصيلهم الفاسد في الإيمان، وفي أن صاحب الكبيرة ليس بمؤمن عندهم، فالاتفاق بينهم أنه في الآخرة لا يخرج من النار، مخلد فيها، أما في الدنيا فالمعتزلة فارقت الخوارج، فقالت هو في منزلة بين المنزلتين، أي: لا نقول مؤمن، ولا نقول كافر، أما الخوارج فقالوا: صاحب الكبيرة كافر، وأحرث عليه حكم الكافر، فعندهم لا يصلى عليه، ولا يدفن في مقابر المسلمين، ولا يرث أو يورث!

الجنة والنار مخلوقتان ولا تفنيان:

قال المصنف: [والجنة والنار مخلوقتان لا تفنيان، فالجنة مأوى أوليائه، والنار عقاب لأعدائه، وأهل الجنة فيها مخلدون ﴿إِنَّ الْمَجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ٧٤ لَا يَفْقَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ٧٥﴾] [الزخرف: ٧٤ - ٧٥] ويؤتى بالموت في صورة كبش أملح، فيذبح بين الجنة والنار، ثم يقال: «يا أهل الجنة خلود ولا موت ويا أهل النار خلود ولا موت»]

بعد ذلك انتقل المصنف إلى ما روي عن النبي ﷺ في أن الجنة والنار مخلوقتان.

والجنة لغة: هي البستان كثير الأشجار والثمار، قال الله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ٣٢﴾ [الكهف: ٣٢].

وشرعاً: هي دار المقامة، ودار الخلود.

والنار لغة: مادة الإحراق.

وشرعاً: هي دار المقامة للكافرين.

وقد بين الله أن النار والجنة مخلوقتان، خلافاً للمعتزلة، قال تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ١٣٣﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وأعدت: فعل ماضٍ، بمعنى: أنه قد فرغ منها، وقال عن جهنم: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ٢٤﴾ [البقرة: ٢٤]، وهذه أيضاً، أعدت يعني: فرغ منها.

وفي الحديث الصحيح، صلى النبي ﷺ بالناس حين كسفت الشمس يوماً، وبعد أن صلى بالناس قال: «وقال رسول الله رأيت في مقامي هذا كل شيء وُعِدْتُمْ لقد رأيتُموني أردت أن أأخذ قطعاً من الجنة حين رأيتُموني جعلت أتقدم ولقد رأيت جهنم يحطم بعضها بعضاً حين رأيتُموني تأخرت ورأيت فيها ابن لحي وهو الذي سيَّب السَّوَابِ»^(١).

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «ولقد أدنيت النار مني حتى لقد جعلت أتقيها حتى رأيت فيها امرأة من حمير تعدب في هرة ربطتها فلم تدعها تأكل من خشاش الأرض فلا هي أطعمتها ولا هي سقتها حتى ماتت فلقد رأيتها تنهشها إذا أقبلت وإذا

(١) صحيح النسائي (١٤٧١) واللفظ له، وأخرجه البخاري (١٠٤٤، ١٢١٢)، ومسلم (٩٠١).

وَأَلَّتْ تَنْهَشُ الْبَيْتَهَا وَحَتَّى رَأَيْتُ فِيهَا صَاحِبَ السَّبَيْتَيْنِ أَخَا بَنِي الدَّعْدَاعِ يَدْفَعُ بَعْصًا ذَاتَ شُعْبَتَيْنِ فِي النَّارِ وَحَتَّى رَأَيْتُ فِيهَا صَاحِبَ الْمَحْجَنِ الَّذِي كَانَ يَسْرِقُ الْحَاجَّ بِمَحْجِنِهِ مَتَكِّئًا عَلَى مَحْجِنِهِ فِي النَّارِ يَقُولُ أَنَا سَارِقُ الْمَحْجَنِ»^(١).

وورد عن النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ، تَصَدَّقْنَ وَأَكْثِرْنَ الْاسْتِغْفَارَ، فَإِنِّي رَأَيْتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ فَقَالَتِ امْرَأَةٌ مِنْهُنَّ جَزَلَةٌ: وَمَا لَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَكْثَرُ أَهْلِ النَّارِ؟ قَالَ: تَكْثُرْنَ اللَّعْنَ، وَتَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ، وَمَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أُغْلِبَ لِذِي لُبٍّ مِنْكُنَّ قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا نُقْصَانُ الْعَقْلِ وَالَّذِينَ؟ قَالَ: أَمَّا نُقْصَانُ الْعَقْلِ: فَشَهَادَةُ امْرَأَتَيْنِ تَعْدِلُ شَهَادَةَ رَجُلٍ فَهَذَا نُقْصَانُ الْعَقْلِ، وَتَمَكُّثُ اللَّيَالِي مَا تُصَلِّي، وَتُقَطِّرُ فِي رَمَضَانَ فَهَذَا نُقْصَانُ الدِّينِ»^(٢).

وقد ورد أَنَّ النبي ﷺ رَأَى قَصْرًا لِعَمْرٍ فِي الْجَنَّةِ، وَامْرَأَةً وَضِيئَةً تَتَوَضَّأُ، وَرَوَى الْأَنْبِيَاءُ حَقًّا، وَقَوْلُهُ: لِمَنْدِيلٍ سَعْدِ بْنِ مَعَاذٍ - خَيْرٍ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، فَهَذِهِ الْأَدْلَةُ تَدُلُّ دَلَالَةً وَاضِحَةً عَلَى أَنَّهَا مَوْجُودَتَانِ.

إِذَا كَانَتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ مَوْجُودَتَانِ فَأَيْنَ مَكَانَهُمَا؟

الجواب: لَيْسَ عِنْدَنَا تَفْصِيلٌ عَنْ ذَلِكَ، وَلَكِنْ الْإِجْمَالُ جَاءَنَا فِي الْكِتَابِ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيَّينَ ١٨﴾ [المطففين: ١٨] فَالْجَنَّةُ فِي عِلِّيَّينَ، وَالتَّفْصِيلُ لَا نَعْرِفُهُ، وَنَعْرِفُ أَنَّ الْفَرْدُوسَ الْأَعْلَى أَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَأَعْلَاهَا، وَعَرْشُ الرَّحْمَنِ سَقْفُهَا.

وَالنَّارُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفَاجِرِ لَفِي سَجِّينَ ٧﴾ [المطففين: ٧]، وَفِي حَدِيثِ الْبَرَاءِ الطَّوِيلِ، قَالَ: «أَنْ صَدَّقَ عَبْدِي، اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيَّينَ ثُمَّ أَعِيدُوهُ إِلَى الْأَرْضِ» يَعْنِي: أَعِيدُوا رُوحَهُ إِلَى الْأَرْضِ، ثُمَّ قَالَ فِي الْفَجَارِ: «كَذَبَ عَبْدِي، اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي سَجِّينَ»، يَعْنِي: أَسْفَلَ سَافِلِينَ.

مَسْأَلَةٌ: هَلِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ تَفْنِيَانِ؟

أَقُولُ: الْجَنَّةُ لَا تَفْنَى بِالْإِتِّفَاقِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ لَمَّا تَكَلَّمَ عَنْ أَهْلِ النَّعِيمِ قَالَ: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [النساء: ٥٧] فَبَيْنَ أَنَّهُمْ فِي خُلُودٍ دَائِمٍ لَا مَوْتَ فِيهِ، وَأَيْضًا، عِنْدَمَا يُوْتَى بِالْمَوْتِ فَيَذْبَحُ عَلَى الصَّرَاطِ، فَيَقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ بَلَا مَوْتَ.

أَمَّا مَسْأَلَةُ فَنَاءِ النَّارِ فَقَدْ وَرَدَ عَنِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ أَنَّهَا لَا تَفْنَى إِلَّا مَا وَرَدَ عَنِ شَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةٍ وَتَلْمِيزِهِ ابْنَ الْقَيْمِ أَنَّ النَّارَ تَفْنَى، وَاسْتَدْلُوا عَلَى ذَلِكَ بِكَثِيرٍ مِنَ الْأَثَارِ، وَقَدْ وَرَدَ كَلَامُ آخَرٍ عَنْ شَيْخِ الْإِسْلَامِ أَنَّهَا لَا تَفْنَى، وَهَذَا الْأَلِيقُ بِشَيْخِي الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةٍ وَابْنِ الْقَيْمِ -رَحِمَهُمَا اللَّهُ-

اسْتَدْلُوا عَلَى فَنَاءِ النَّارِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمُوتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١٠٧] فَقَالُوا بِالْإِسْتِثْنَاءِ، وَقَالُوا: وَرَدَ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُمَا قَالَا: (لِيَأْتِيَنَّ زَمَانٌ عَلَى النَّارِ لَيْسَ فِيهَا أَحَدٌ) وَهَذَا هُوَ الشَّاهِدُ، وَوَجْهٌ

(١) صحيح النسائي (1481) أخرجه أبو داود (1194) مختصرًا، والنسائي (1482) واللفظ له، وأحمد (6483) بنحوه.
(٢) صحيح مسلم (79).

الاستدلال: أنَّها تخلوا، فإذا خلت فَنِيَّتْ؛ لِأَنَّهُ لَا عَمَلَ لَهَا.
والحق أَنَّهُمَا خالِدَتَانِ لَا تَفْنِيَانِ أَبَدًا.

فصل

قال المصنف: [محمد خاتم النبيين ومحمد رسول الله ﷺ خاتم النبيين وسيد المرسلين، لا يصح إيمان عبد حتى يؤمن برسالته ويشهد بنبوته، ولا يقضى بين الناس في القيامة إلا بشفاعته، ولا يدخل الجنة أمة إلا بعد دخول أمته صاحب لواء الحمد والمقام المحمود والحوض المورود، وهو إمام النبيين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم، أمته خير الأمم وأصحابه خير أصحاب الأنبياء عليهم السلام وأفضل أمته أبو بكر الصديق ثم عمر الفاروق ثم عثمان ذو النورين ثم علي المرتضى ؑ أجمعين، لما «روى عبد الله بن عمر ؓ قال: كنا نقول والنبي ﷺ حي: أفضل هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي فيبلغ ذلك النبي ﷺ فلا ينكره» وصحت الرواية عن علي ؑ أنه قال: "خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر ولو شئت سميت الثالث"، وروى أبو الدرداء عن النبي ﷺ أنه قال: «ما طلعت الشمس ولا غربت بعد النبيين والمرسلين على أفضل من أبي بكر»، وهو أحق خلق الله بالخلافة بعد النبي ﷺ لفضله وسابقته، وتقديم النبي ﷺ له في الصلاة على جميع الصحابة ؑ، وإجماع الصحابة على تقديمه ومبايعته، ولم يكن الله ليجمعهم على ضلالة ثم من بعده عمر ؑ لفضله وعهد أبي بكر إليه، ثم عثمان ؑ، لتقديم أهل الشورى له، ثم علي ؑ، لفضله وإجماع أهل عصره عليه.

هؤلاء الخلفاء الراشدون المهديون الذين قال رسول الله ﷺ فيهم: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ» وقال ﷺ: «الخلافة من بعدي ثلاثون سنة» فكان آخرها خلافة علي ؑ.

ونشهد للعشرة بالجنة كما شهد لهم النبي ﷺ فقال: «أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعلي في الجنة، وطلحة في الجنة، والزبير في الجنة، وسعد في الجنة، وسعيد في الجنة، وعبد الرحمن بن عوف في الجنة، وأبو عبيدة بن الجراح في الجنة» وكل من شهد له النبي ﷺ بالجنة شهدنا له بها كقوله: «الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة» وقوله لثابت بن قيس: «إنه من أهل الجنة».

أقول: محمدٌ رسول الله هو سيد الخلق أجمعين، وهو إمام المرسلين ﷺ، أكرم الخلق على الله، خير من وطئ التراب، وما طلعت الشمس على رجل خير من رسول الله ﷺ، هو سيد المرسلين، وهو خطيبهم يوم القيامة.

ويكفي في فضله أنّ الله لم يقسم بحياة أحد من خلقه إلا بحياته، قال الله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: 72]، أي: لحياتك، وقد أدّبه

الله فأحسن تأديبه؛ ولذلك اسمه، ووصفه بأرقى الصفات، وأعلى السمات، قال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝﴾ [القلم: 4] §.

وهو سيد ولد آدم ولا فخر، صح عنه أنه قال: «أنا سيّد ولد آدم يوم القيامة، وأوّل من يَنشَقُّ عنه القبرُ، وأوّل شافعٍ وأوّل مُشَفِّعٍ»⁽¹⁾.

ومع أنّه أفضل الأنبياء بنص صريح منه إلا أنّه كان ينهى عن المفاضلة بين الأنبياء، قال: «لا تُخَيِّرُوا بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ»⁽²⁾.

ونهى النبي § أن يفضّله على موسى ع، جاء في الصحيحين: «استب رجُلان:

رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَرَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ، قَالَ الْمُسْلِمُ: وَالَّذِي اصْطَفَى مُحَمَّدًا عَلَى الْعَالَمِينَ، فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى الْعَالَمِينَ، فَرَفَعَ الْمُسْلِمُ يَدَهُ عِنْدَ ذَلِكَ، فَلَطَمَ وَجْهَ الْيَهُودِيِّ، فَذَهَبَ الْيَهُودِيُّ إِلَى النَّبِيِّ §، فَأَخْبَرَهُ بِمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِ وَأَمْرِ الْمُسْلِمِ، فَدَعَا النَّبِيُّ § الْمُسْلِمَ، فَسَأَلَهُ عَنْ ذَلِكَ، فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ §: لَا تُخَيِّرُونِي عَلَى

مُوسَى؛ فَإِنَّ النَّاسَ يَصْعُقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَاصْغَوْا مَعَهُمْ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ، فَإِذَا مُوسَى بَاطِشٌ جَانِبَ الْعَرْشِ، فَلَا أُدْرِي أَكَانَ فِيمَنْ صَعِقَ فَأَفَاقَ قَبْلِي، أَوْ كَانَ مِمَّنْ اسْتَنْتَنِي اللَّهُ»⁽³⁾، وقال: «من قال أنا خيرٌ من يونس بن مَتَّى، فقد كَذَبَ»⁽⁴⁾.

فإذا قيل كيف نجمع بين ما جاء: أنّه سيد ولد آدم، وأفضل الخلق أجمعين، وبين ما جاء من النهي عن تخييره على موسى ويونس بن متى ؟!

الجواب: السنة الصحيحة لا تعارض بينها في حال من الأحوال، فكلها جاءت من مشكاة واحدة بوحى من عند الله، وقد أجاب العلماء عن هذا الإشكال بثلاث إجابات:

الأولى: النهي عن التخيير بين الأنبياء لا يجوز إذا كان على سبيل التنقيص، كأن يقال مثلاً: محمد § خير من يونس عليه السلام.

الثانية: النهي عن التخيير كان قبل أن يوحى إليه أنّه سيد البشر أجمعين، وأنّه سيد المرسلين.

الثالثة: التخيير إذا كان على سبيل التفاخر بينهم فينهى عنه، أما على سبيل تبين الفضل فجائز، وترجع هذه أيضاً إلى الإجابة الأولى.

وقد خصّ الله نبيّه محمد § بخصائص لم يعطها نبيّ قبله، منها:

١- أنّه خاتم النبيين §، فلا نبي بعده، قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن

رَجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: 40]، وبهذا يتبين كذب وزور من ادّعى النبوة بعده، وقد تنبأ بخروج هؤلاء الدجاجة، قال: «وإنّه سيكون في أمّتي ثلاثون كذابون كلهم يزعم: أنّه نبيّ، وأنا خاتم النبيّين لا نبيّ بعدي»⁽⁵⁾. ومن الفرق الضالة

(1) صحيح مسلم (2278).

(2) صحيح (٤٦٦٨)، أخرجه البخاري (6916)، ومسلم (2374).

(3) أخرجه البخاري (2411)، ومسلم (2373).

(4) أخرجه البخاري (4604) واللفظ له، ومسلم (2376).

(5) صحيح الترمذي (2219).

التي ادعت النبوة بعده، وحرفوا معنى الآية والحديث: البهائية، والقاديانية، وهذه فرق ظهرت في عصورنا، يقولون معنى خاتم الأنبياء أي: زينة الأنبياء، وقد ظهر القادياني في بلاد الهند والباكستان، ولم يكتف بادعاء النبوة حتى ادعى الربوبية ! وقد أوردوا شبهتين على أهل السنة والجماعة:
الأولى: ادعوا أَنَّ معنى قول الله تعالى: ﴿وَاٰخَرَةُ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب:40] أي: زينة الأنبياء.

والثانية: قالوا: إِنَّ محمداً ﷺ خاتم النبيين، وليس بخاتم المرسلين، ونحن رسل!

والجواب على الشبهتين:

أولاً: خالفوا إجماع السلف.
ثانياً: لو افترضنا تنزلاً أَنَّ خاتم النبيين بمعنى الزينة، فقد قال النبي ﷺ حسماً للمادة: «وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ لَا نَبِيَّ بَعْدِي»⁽¹⁾ ففسر معنى خاتم النبيين: أنه آخر الأنبياء، وهو زينة الأنبياء، وهو سيد الأنبياء ﷺ.

أما الجواب عن الشبهة الثانية: فلا يمكن أن يكون الرسول رسولاً حتى يكون نبياً، فإذا قال: خاتم النبيين، فمن باب أولى أن يكون خاتم المرسلين.
٢- ومن الخصائص التي خص الله بها نبيه ﷺ: الشفاعة العظمى لا تكون إلا له، وهذه الشفاعة هي المقام المحمود، قال الله تعالى: ﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [٧٩] [الإسراء:79]، والمقام المحمود: هو الذي يحمده عليه الناس، فيحمدونه في الدنيا بالأعمال الجميلة، ونشر الدعوة، وفي الآخرة بمقام الشفاعة لأهل الموقف عند الله حتى يقضى بين العباد.

٣- ومما خص الله نبيه ﷺ: أنه أول من يمر على الصراط، وأتمه أول الأمم التي تعبر الصراط، قال النبي ﷺ: «نَحْنُ الْأَخْرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»⁽²⁾ أي: سابقون في القضاء، وفي المرور، وفي دخول الجنة.

٣- ومن الخصائص: أَنَّ الجنة لا تفتح إلا له، ولا يدخل أحدُ الجنة إلا به، وبعده، وهذا قد سبق ذكره عند الحديث عن الشفاعة الخاصة.

٤- ومن الخصائص: أَنَّهُ صاحب لواء الحمد يوم القيامة، وهذا اللواء ينزل تحته كل الرسل والأنبياء، وهذه منة عظيمة من الله له، قال ﷺ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ، وَبِيَدِي لَوَاءُ الْحَمْدِ وَلَا فَخْرَ، وَمَا مِنْ نَبِيٍّ يَوْمُنْذِ آدَمَ فَمَنْ سِوَاهُ إِلَّا تَحْتَ لَوَائِي، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْأَرْضُ وَلَا فَخْرَ...»⁽³⁾.

٥- والله جعل له الأرض مسجداً وطهوراً، قال النبي ﷺ: «أُعْطِيْتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا

(1) سبق تخريجه.

(2) صحيح مسلم (855).

(3) صحيح الترمذي (3148).

وَطَهُورًا، وَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكْتُهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ، وَأَجَلْتُ لِي الْعَنَائِمَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ»⁽¹⁾.
نسأل الله أن يجعلنا ممن يكون معه في الفردوس الأعلى، وألا ننزل عن هذه الدرجة أبدًا.

فضل صحابة رسول الله ﷺ:

بعد ذلك انتقل المصنف إلى بيان أفضلية صحابة رسول الله ﷺ، والحق أن هذا ترتيب منه بديع، فبعد أن ذكر فضل النبي ﷺ وما خصّه من خصائص دون غيره من الأنبياء أعقب بالذكر فضل صحبه، وكأنّه أراد القول أن الله لا يجعل لخير نبي إلا خير صحب، وهذا رد على الرافضة الذين انتقصوا من قدرهم وما أرادوا بذلك إلا الانتقاص من قدر النبي ﷺ.

فما صاحب نبياً خيراً من صحابة رسول الله ﷺ، وقد ورد في سنن الدارمي بسند صحيح عن ابن مسعود ؓ وأرضاه أنّه قال: «إِنَّ اللَّهَ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ؛ فَوَجَدَ قَلْبَ مُحَمَّدٍ ﷺ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَاصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ، فَابْتَعَثَهُ بِرِسَالَتِهِ، ثُمَّ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ بَعْدَ قَلْبِ مُحَمَّدٍ؛ فَوَجَدَ قُلُوبَ أَصْحَابِهِ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَجَعَلَهُمْ وَرَاءَ نَبِيِّهِ، يُقَاتِلُونَ عَلَى دِينِهِ، فَمَا رَأَى الْمُسْلِمُونَ حَسَنًا؛ فَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ حَسَنٌ، وَمَا رَأَوْا سَيِّئًا؛ فَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ سَيِّئٌ»⁽²⁾.

فهم أعمق الناس علماً، وأبر الناس قلوباً، وأحسنهم خلقاً، فمن أراد أن يأتسي فليأتس بهم، ولمّا سئل ابن المبارك: من الجماعة؟ قال: أبو بكر، وعمر ؓ، فبيّن أنّهم الجماعة.

قال تعالى مبيناً فضل هؤلاء: ﴿وَالزَّمَهُمْ كَلِمَةً التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ [الفتح:26]، وهذا أعظم ثناء، ولا يمكن أن تجده على أحد غير صحابة رسول الله، فانه أثنى عليهم أنّهم أحق بكلمة التوحيد، كلمة: لا إله إلا الله، وأحق أيضاً بدين الإسلام؛ لأنّ الله يغار أن يضع الشيء في غير موضعه، أو يعطي هذه المنة والنعمة لأحد لا يستحقها، فكانوا بذلك هم أحق بها وأهلها.

ومن الأدلة على فضلهم، قال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْئَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ٢٩﴾ [الفتح:29]، وهذه الآية استدلت بها الإمام مالك استدلالاً رائعاً على كفر من يبغض الصحابة ؓ، ووجه الشاهد عنده:

(1) أخرجه البخاري (438)، ومسلم (521).

(2) إسناده حسن، أخرجه أحمد (3600) واللفظ له، والطبراني (118/9) (8582).

﴿لِيُعْطِيَ بِهِمُ الْكَفَّارُ﴾ [الفتح:29]، فكل من تعيَّظ على الصحابة فهو من الكفار.
وقال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَدَّمُونَ وَالْأُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْتَمَرُونَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنَ الْمَسْجِدِ وَالْمُؤْتَمَرُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنَ الْمَسْجِدِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنَ الْمَسْجِدِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنَ الْمَسْجِدِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ [التوبة:100]، فالله مدح المهاجرين والأنصار، ومدح من أتى بعدهم ما داموا لهم متبعين.

ومن السنة:

- ١- قال النبي ﷺ: «لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي؛ فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَتَّفَقَ مِثْلَ أَحَدٍ ذَهَبًا، مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ»^(١).
- ٢- ومن ذلك ما جاء عن النبي ﷺ أنه قال: «...التُّجُومُ أَمَنَةٌ لِلسَّمَاءِ، فَإِذَا ذَهَبَتْ التُّجُومُ أَتَى السَّمَاءُ مَا تُوعَدُ، وَأَنَا أَمَنَةٌ لِأَصْحَابِي، فَإِذَا ذَهَبَتْ أَتَى أَصْحَابِي مَا يُوعَدُونَ، وَأَصْحَابِي أَمَنَةٌ لِأُمَّتِي، فَإِذَا ذَهَبَ أَصْحَابِي أَتَى أُمَّتِي مَا يُوعَدُونَ»^(٢).
- ٣- وكان النبي ﷺ يقول: «فإنه من يعيش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين تمسكوا بها، وعصوا عليها بالنواجز، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة»^(٣).
- ٤- وفي مسند أحمد بسند حسن قال: «اقتدوا بالَّذِينَ من بعدي أبي بكرٍ وعمر»^(٤).

أما ترتيب الأفضلية:

فأفضلهم أبو بكر - ع - هو أفضل الأمة بالإجماع، وقد بين الله فضله حينما خاطبه - تعظيماً له - بصيغة الجمع، وهو الفرد العبد المربوب، قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتِلُ أُولَئِكَ الْفَضْلَ مِنْكُمْ وَالسَّعَةَ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِيَعْفُوا وَلِيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ٢٢﴾ [النور:22] إلى آخر الآيات، واتفق المفسرون أنَّ هذا خطاب خاصٌّ بأبي بكر ع.
ومن فضله وعظيم مكانته عند النبي ﷺ أنه قال فيه: «إِنَّ مِنْ أَمَنِ النَّاسِ عَلَيَّ فِي صُحْبَتِهِ وَمَالِهِ أبا بَكْرٍ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا مِنْ أُمَّتِي لَاتَّخَذْتُ أبا بَكْرٍ، إِلَّا خَلَّةَ الْإِسْلَامِ، لَا يَبْقَيْنَ فِي الْمَسْجِدِ خَوْعَةٌ إِلَّا خَوْعَةُ أَبِي بَكْرٍ»^(٥).
وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يعلمون قدر أبي بكر ع- وأنه أفضلهم وخيرهم، ففي سقيفة بني ساعدة، وقد حدث فيها ما حدث وقف عمر بن الخطاب ع- وقال لأبي بكر ع: «...يَلْ تَبَايَعُكَ أَنْتَ؛ فَأَنْتَ سَيِّدُنَا، وَخَيْرُنَا، وَأَحَبُّنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَخَذَ عُمَرُ بِيَدِهِ فَبَايَعَهُ، وَبَايَعَهُ النَّاسُ»^(٦).

(١) صحيح البخاري (3673)، وأخرجه مسلم (2541).

(٢) صحيح مسلم (2531).

(٣) صحيح أبي داود (4607)، أخرجه أحمد (17185).

(٤) سنن الترمذي (3662)، أخرجه ابن ماجه (97)، وأحمد (23293).

(٥) صحيح البخاري (3904)، أخرجه مسلم (2382)..

(٦) صحيح البخاري (2462).

وعلي بن أبي طالب -«- أعلم الناس معرفة بقدر الشيخين -ف-، فحينما كان يخطب على المنبر في الكوفة كان يقول: «لا أوتى بأحد يفضلني على أبي بكر وعمر إلا جلدته حد المفتري»⁽¹⁾، والمفتري أي: الكذاب.

وخلافة أبي بكر « مشهورة، متفق عليها، والخلاف الذي حصل بين العلماء فيما إذا كانت خلافته بنص من النبي ﷺ عليه وسلم، أم كانت بالإشارة؟

والصحيح الراجح أنها إشارة تنزل منزلة النص فقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «ادعي أبا بكر أباك، وأخاك، حتى أكتب كتاباً، فأني أخف أن يتمنى مُتمنٍ، ويقول قائل: أنا أولى، ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر»⁽²⁾، ففي قوله: «ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر»، دلالة على أنهم يابون أن يتقدم أحد على أبي بكر -«- -.

أما الذين قالوا: أنها كانت بالإشارة، استدلوا على ذلك: بأن النبي ﷺ وضعه إماماً للناس في الصلاة، ووجه الدلالة عندهم هو نفس ما فهمه الإمام علي بن أبي طالب -«- حيث قال: (فَرَضِينَا لِدُنْيَانَا مَنْ رَضِيَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِدِينِنَا)، فكانت خلافته من باب الأولى.

والصحيح الراجح: أنها إشارة، وليست نصاً، وأن استخلافه كان من أهل الحل والعقد، وفاصل النزاع في أن النبي ﷺ لم ينص على خلافته، ما قاله عمر بن الخطاب في مرض موته حيث قال: «...وإني لئن لا استخلف، فإن رسول الله ﷺ لم يستخلف، وإن استخلف فإن أبا بكر قد استخلف. قال: فوالله، ما هو إلا أن ذكر رسول الله ﷺ وأبا بكر، فعلمت أنه لم يكن ليعدل برسول الله ﷺ أحداً، وأنه غير مستخلف»⁽³⁾.

ثم بعده في الفضل: عمر بن الخطاب -«-، هو بالاتفاق أفضل الأمة بعد أبي بكر -«- وقد ذكر من فضله ما أخبر به النبي ﷺ: «...إيها يا ابن الخطاب، والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالكاً فجاً قط، إلا سلك فجاً غير فجاج»⁽⁴⁾. وأيضاً، قال النبي ﷺ: «لو كان بعدي نبي لكان عمر بن الخطاب»⁽⁵⁾.

أما عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب ف، فلقد اختلف أهل العلم في أيهما أفضل، ثم اتفقت الكلمة على تفضيل عثمان على علي ف، والذي يدل على فضل عثمان -«- ما جاء في الصحيح عن ابن عمر « قال: «كُنَّا نُخَيَّرُ بَيْنَ النَّاسِ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ؛ فَنُخَيَّرُ

(1) مجموع الفتاوى (474/28).

(2) أخرجه البخاري (5666)، ومسلم (2387) واللفظ له.

(3) صحيح مسلم (1823).

(4) صحيح البخاري (3683).

(5) أخرجه الترمذي (3686) واللفظ له، وأحمد (17405).

أَبَا بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ، ثُمَّ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ ؓ»⁽¹⁾، ووجه الدلالة منه: إقرار النبي ﷺ على ذلك.

وعليّ - ؓ - الأسد المغوار الذي نافح عن رسول الله ﷺ، وعن دين الله، قد أجمعت الأمة على أفضليته بعد موت الخلفاء الثلاثة، ولا يختلف اثنان في فضله ومكانته، وهو أكثر من جاء فيه أحاديث تبين فضله ومكانته وعلو قدره. أما الخلاف الذي نشأ بين العلماء في شأن عثمان وعليّ ؓ، فقد ذهب بعض العلماء كأبي حنيفة والثوري - رحمهما الله - إلى تقديم عليّ ؓ في الفضل مع إقرارهم بترتيب الخلافة، والحق أنّ علياً لم يقدم نفسه على عثمان، ففي قضية الشورى حينما جعلوا الأمر إلى عبد الرحمن بن عوف ليجتهد للمسلمين في أفضلهم فيوليه، يُذكر أنّه سأل كل من يمكنه سؤاله من أهل الشورى وغيرهم، فلا يشير أحدٌ منهم إلا بعثمان بن عفان حتى أنّه قال لعليّ: أرايت إن لم أولك، فلمن تشير به؟ قال: بعثمان، وقال لعثمان: أرايت إن لم أولك، فلمن تشير به؟ قال: بعلي بن أبي طالب. ولكن بعد ذلك اتفقت كلمة أهل العلم على الترتيب الأولي وهو ترتيب الخلافة: أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم عليّ ؓ وأرضاهم.

والخلافة الراشدة التي على منهاج النبوة ثلاثون سنة، وهي التي قال بها النبي ﷺ: «...فعلیکم بسُنَّتِي وَسُنَّةَ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ؛ فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»⁽²⁾.

وبعدها ملك عضوض، كما بين النبي ﷺ ذلك، ثم الحكم الجبري، ثم تأتي خلافة على منهاج النبوة، وهذا مصداق لقول النبي ﷺ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ فِي رَوَايَةٍ: وَهُمْ كَذَلِكَ»⁽³⁾. وقد كانت مدة خلافة أبي بكر - ؓ - سنتين وثلاثة أشهر وتسع ليال، من السنة

الحادية عشرة إلى ثلاثة عشر من ربيع الآخر سنة ثلاث عشرة هجرية. أما خلافة عمر - ؓ - كانت عشر سنوات وستة أشهر وثلاثة أيّام، من ثلاثة وعشرين جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة هجرية إلى ستة وعشرين ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين هجرية.

وخلافة عثمان - ؓ - كانت اثنتي عشرة سنة إلا اثني عشر يوماً، من واحد محرم سنة أربع وعشرين هجرية إلى ذي الحجة سنة خمس وثلاثين هجرية. وخلافة عليّ - ؓ - فكانت أربع سنوات وتسعة أشهر، من تسعة عشر ذي الحجة

(1) صحيح البخاري (3655).

(2) أخرجه مطولاً أبو داود (4607)، والترمذي (2676)، وابن ماجه (44)، وأحمد (17144) باختلاف يسير.

(3) صحيح مسلم (1920).

سنة حَسَ وثلاثين هجرية إلى تسعة عشر رمضان سنة أربعين هجرية. فمجموع خلافة هؤلاء هي: تسع وعشرون سنة وستة أشهر إلا أربعة أيام، أما تمام الثلاثين فكانت الستة أشهر خلافة الحسن - ؑ - لذا بعض العلماء أدخلوه في الخلافة الراشدة، وبعضهم لم يقل بذلك؛ لأنه تنازل عن الخلافة. ثم بعد الخلفاء الأربعة في الأفضلية العشرة المبشرون، الذين شهد لهم النبي ﷺ بالجنة، وهم المذكورون في حديث سعيد بن زيد - ؑ - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أبو بكر في الجنة وعمر في الجنة وعلي في الجنة وعثمان في الجنة وطلحة في الجنة والزبير في الجنة وعبد الرحمن بن عوف في الجنة وسعد بن أبي وقاص في الجنة وسعيد بن زيد في الجنة وأبو عبيدة بن الجراح في الجنة»⁽¹⁾. والمهاجرون أفضل من الأنصار، وإن كان للأنصار فضيلة عظيمة، فهم الذين ناصرُوا النبي ﷺ وأزروه بأنفسهم وأموالهم، وظهر فضلهم في غزوة حنين لما فرَّ الناس عن النبي ﷺ، فنادى: «يا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، قالوا: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أُبَشِّرُ نَحْنُ مَعَكَ، ثُمَّ التَفَتَ عَنْ يَسَارِهِ فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، قالوا: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أُبَشِّرُ نَحْنُ مَعَكَ، وَهُوَ عَلَى بَغْلَةٍ بَيْضَاءَ، فَزَلَّ فَقَالَ: أَنَا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ»⁽²⁾. وأما المهاجرون فقد جمعوا بين الهجرة والنصرة، وسماهم الله بالصادقين، وجعل الخلافة فيهم، قال أبو بكر ؑ في سقيفة بني ساعدة للأنصار: «ما ذكرتم فيكم من خير، فأنتم له أهل، لكن هذا الأمر لا يُعرف إلا لهذا الحى من قريش، فهم أوسط العرب نسبا ودارا، وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين، يقصد عمر بن الخطاب، وأبا عبيدة بن الجراح، فبايعوا أيهما شئتم»⁽³⁾، فقال أحد الأنصار: «منا أمير ومنكم أمير»، فقال الصديق للأنصار، وفق رواية الطبري: «منا الأمراء ومنكم الوزراء». فالحاصل أن الخلافة لا تكون إلا في المهاجرين من قريش، وأنهم أفضل من الأنصار.

فصل

قال المصنف: [ولا نجزم لأحد من أهل القبلة بجنة ولا نار إلا من جزم له الرسول ﷺ، لكننا نرجو للمحسن ونخاف على المسيء. ولا نكفر أحدا من أهل القبلة بذنب، ولا نخرجه عن الإسلام بعمل، ونرى الحج والجهاد ماضيا مع طاعة كل إمام، برا كان أو فاجرا، وصلاة الجمعة خلفهم جائزة. قال أنس: قال النبي ﷺ: «ثلاثة من أصل الإيمان:

(1) صحيح، أخرجه الترمذي (3747)، وأحمد (193/1)، والنسائي في «السنن الكبرى» (56/5).

(2) البخاري (4337)، ومسلم (1059).

(3) صحيح ابن حبان (413)، أخرجه البخاري (6830) بلفظ مقارب، ومسلم (1691) مختصراً.

الكف عن قال: لا إله إلا الله، ولا نكفره بذنوب، ولا نخرجه من الإسلام بعمل، والجهاد ماض منذ بعثني الله، حتى يقاتل آخر أمتي الدجال، لا يبطله جور جائر، ولا عدل عادل، والإيمان بالأقدار»، رواه أبو داود]

مسألة الشهادة لإنسان أنه في الجنة أو في النار فيها تفصيل: فكل من شهد له الرسول ﷺ أنه من أهل الجنة نشهد له بذلك؛ كالعشرة المبشرين بالجنة، وعكاشة بن محصن ؓ حيث شهد له النبي ﷺ بالجنة، وأنه من السبعين ألف الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا سابقة عذاب، وكثابت بن قيس ؓ، والمرأة السوداء، فقد ثبت أن النبي ﷺ قال لها: «إِنْ شِئْتَ صَبَرْتَ وَلَكَ الْجَنَّةُ، وَإِنْ شِئْتَ دَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يُعَافِيكَ قَالَتْ: أَصْبِرُ، قَالَتْ: فَإِنِّي أَتَكْتَفُ فَادْعُ اللَّهَ أَنْ لَا أَتَكْتَفُ فَدَعَا لَهَا»⁽¹⁾.

ونشهد لبلال - ؓ - فقد قال له النبي ﷺ: «...فَإِنِّي سَمِعْتُ نَفَّ نَعْلَيْكَ بَيْنَ يَدَيَّ فِي الْجَنَّةِ. قَالَ: مَا عَمِلْتُ عَمَلًا أَرْجَى عِنْدِي: أَتِي لَمْ أَتَطَهَّرْ طَهُورًا، فِي سَاعَةِ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ، إِلَّا صَلَّيْتُ بِذَلِكَ الطَّهُورِ مَا كُتِبَ لِي أَنْ أَصَلِّيَ»⁽²⁾.

وممن نشهد لهم عينا أيضا: عمرو بن الجموح الذي رآه النبي صلى الله عليه يطا بعرجته الجنة، وعامر الأكوخ الذي أخبر النبي ﷺ أن له أجره مرتين، وسيد الأوس سعد بن معاذ الذي منديله في الجنة خير من الدنيا وما فيها.

وكل من شهد بدرا، الذين قال عنهم ﷺ: «...وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ اطَّلَعَ عَلَى مَنْ شَهِدَ بَدْرًا، فَقَالَ: ااعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ؛ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ السُّورَةَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْفُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ۝۱﴾ [الممتحنة: 1]»⁽³⁾.

إذا التأصيل العام: لا نحكم لمعين أنه من أهل الجنة إلا بدليل، وكذلك لا نجزم لأحد بنار إلا بدليل كأبي لهب، قال تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝۱ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝۲ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝۳﴾ [المسد: 1 - 3]، وزوجته كذلك، قال تعالى:

﴿وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝۴ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝۵﴾ [المسد: 4 - 5]، والوليد بن المغيرة، قال الله ﷻ عنه: ﴿سَاصِلِيهِ سَقَرٌ ۝۲۶ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ۝۲۷﴾ [المدثر: 26 -

27].

وعمر بن لحي، قال عنه النبي ﷺ: «رَأَيْتُ عَمْرَو بْنَ عَامِرٍ الْخُرَاعِيَّ يَجْرُ قُصْبَهُ فِي النَّارِ، وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ سَيَّبَ السُّيُوبَ»⁽⁴⁾.

وكذلك أبو طالب فقد أخبر ﷺ أنه يلبس نعلين من النار يغلي بهما دماغه، والوالدا

(1) صحيح مسلم (2576).

(2) صحيح البخاري (1149).

(3) أخرجه البخاري (4274)، ومسلم (2494).

(4) صحيح مسلم (2856).

الرسول ﷺ في النار، والدليل على ذلك: أن رجلاً قال: يا رسول الله أين أبي؟! قال: «أبوك في النار، فلما قُفِّي قال: إن أبي وأباك في النار»⁽¹⁾.

أما أمّه، فالدليل على ذلك: أنه ﷺ قال: «اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي أَنْ أَسْتَغْفَرَ لِأُمِّي فَلَمْ يَأْذَنْ لِي، وَاسْتَأْذَنْتُهُ أَنْ أَرْوَرَ قَبْرَهَا فَأْذَنَ لِي»⁽²⁾، وقال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ١١٣﴾ [التوبة: 113].

والعاص بن وائل، وأبو جهل، وأصحاب قليب بدر، فكل من قال عنه النبي ﷺ أنه بعينه في النار نقول بذلك.

حكم تكفير أهل المعاصي:

نُقل عن الإمام أحمد بأسانيد صحيحة أنه قال: من قال: القرآن مخلوق فقد كفر، أي: قال القرآن مخلوق كالسما والارض، ومع ذلك رأيناه - - - لم يسقط هذا الحكم عينا على من قالها كالمؤمن، فالحاصل أنه لا يتجرأ على مسألة التكفير إلا جريء أو جاهل، فالخطر أعظم مما يتصوره المكفر، فالنبي ﷺ قال: «أَيُّمَا رَجُلٍ قَالَ لِأَخِيهِ: يَا كَافِرُ، فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا»⁽³⁾. وقال رواية أخرى: «وَمَنْ دَعَا رَجُلًا بِالْكَفْرِ، أَوْ قَالَ عَدُوَّ اللَّهِ؛ وَلَيْسَ كَذَلِكَ، إِلَّا حَارَ عَلَيْهِ»⁽⁴⁾، ومعنى حار عليه أي: رجعت عليه كلمة الكفر والعياذ بالله؛ لأنه قطع على أخيه باب الخير.

فمسألة التكفير ليست بالهينة، وقد ذكر النبي ﷺ رجلاً من بني إسرائيل مرّ على أخيه وهو يعصي فنصحه فلم ينتصح، ثم قال له في المرة الثالثة: والله لا يغفر الله لك، فقال تعالى: «... مَنْ ذَا الَّذِي يَتَّالَىٰ عَلَيَّ أَنْ لَا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ، فَإِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لِفُلَانٍ، وَأَحْبَبْتُ عَمَلَكَ، أَوْ كَمَا قَالَ»⁽⁵⁾.

فما من عبد إلا ويقع في كبيرة، ويتعدى حدوده، ويحوم حول الحمى فيوشك أن يقع فيه، لذلك النبي ﷺ لم يشتد نكيره على الخطّائين، إنّما اشتد نكيره على المصيرين على الخطأ، قال الله تعالى ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَجَسَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ١٣٥﴾ [آل عمران: 135] فهو لاء غفر الله لهم؛ لأنهم لم يصروا على ما فعلوا، وأمّا المصرون فالويل لهم، أخرج الإمام أحمد في مسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال النبي ﷺ: «ارْحَمُوا تُرْحَمُوا، وَاغْفِرُوا يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ، وَوَيْلٌ لِّأَقْمَاعِ الْقَوْلِ، وَوَيْلٌ لِّلْمُصْرِينَ

(1) صحيح أبي داود (4718) واللفظ له، وأخرجه مسلم (203).

(2) صحيح مسلم (976).

(3) صحيح البخاري (6104)، أخرجه مسلم (60).

(4) صحيح الجامع (5431) أخرجه البخاري (3508، 6045) مرفقاً، ومسلم (61) مختصراً.

(5) صحيح مسلم (2621).

الذين يُصِرُّونَ عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ»⁽¹⁾.
وخيرُ الخطائين التوابون، ولا أحد في منأى عن الذنب، ففي الصحيحين أيضاً عن
أبي هريرة - ؓ - عن النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزَّانِ، أَدْرَكَ ذَلِكَ لَا
مَحَالَةَ، فَرَزْنَا الْعَيْنَ النَّظْرُ، وَزَنَا اللِّسَانَ الْمَنْطِقُ، وَالنَّفْسَ تَمَلَّى وَتَشْتَهَى، وَالْفَرْجَ يُصَدِّقُ
ذَلِكَ أَوْ يُكَذِّبُهُ»⁽²⁾.

ثم إنَّ حصرَ التكفير بالاستحلال القلبي هذا إرجاء محض، وقد ورد عن صاحب
الطحاوية قوله: (لا نكفر أحداً بذنوب ما لم يستحلّه)، والحق أنَّ هذا القول لم يقل به أحدٌ
من أهل السنة والجماعة، ويترتب على قوله: أنَّ من سب الله ورسوله لا يكفر حتى
يستحل ذلك بقلبه!

ثم إنَّك - أخي الكريم - في مسائل التكفير لا بد لك أن تضبط تفريقاً من الأهمية
بمكان، وهو: التفریق بين كفر النوع وكفر العين؛ بمعنى أنَّه قد يكون القول قول كفر،
والفعل فعل كفر، والقائل والفاعل ليس بكافر حتى تزال عنه الشبهة، وتقام عليه الحجة،
وتنتفي عنه الموانع، فالتجراً على أحد بعينه بتكفيره وإخراجه من الملة لا يمكن أن
تكون إلا من جاهل جريء، وقد تقحم بحكمه هذا النار على بصيرة إلا أن يكون عالماً
مجتهداً يعلم المسألة فيقيم عليه الحجة، ويزيل عنه الشبهة.
فالغرض المقصود أنَّ القول: التكفير لا يقع إلا على القلب فقط كلام غير مقبول
بحال من الأحوال.

ونحن لا نكفر أحداً استقبل قبلتنا، وأكل من ذبيحتنا إلا إذا استحل ذنباً، أو وقع في
فعل أجمع عليه العلماء - مستندين بذلك للنص - أنَّ هذا الفعل، أو هذا القول كفر،
كالذي يسجد لصنم، أو الذي يسب الله، أو يسب الرسول، أو يستهزئ بهما أو بأحدهما،
فكل ذلك كفر يخرج صاحبه من الملة، وأيضاً من أنكر من الدين ما هو معلوم
بالضرورة فهذا لا يُحتاج فيه إلى إقامة حجة ولا إزالة شبهة.

واعلم - رحمك الله - أنَّ التوحيد مانع من خلود صاحبه في النار، فمن مات موحدًا
قد أتى بكلمة التوحيد بشروطها وأركانها، ولم يقع في ما ينقضها، فمآله إلى الجنة،
ولسائل أن يسأل: ما شروط كلمة التوحيد التي يجب توافرها حتى أنتفع بها في الآخرة؟!
نقول جواباً على سؤالك: العلم المنافي للجهل، واليقين المنافي للشك، والانقياد
والإذعان المنافيان للعناد والإباء، والإخلاص المنافي للرياء والنفاق، والمحبة المنافية
للكره، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ فَاحْبَطُوا أَعْمَلَهُمْ﴾ [محمد:9]،
والصدق، والقبول، وحقيقة، لكل شرط دليله من الكتاب والسنة، وليس المجال مجال
بسطه.

فالحاصل أنَّ من حقق هذه الشروط انتفع بكلمة التوحيد في الآخرة، أما في الدنيا
فكل من قال بلسانه: لا إله إلا الله أصبح واحداً منا، له ما لنا، وعليه ما علينا، ونكلُّ

(1) السلسلة الصحيحة (482)، أخرجه أحمد (6541)، والبخاري في «الأدب المفرد» (380)،
والطبراني (651/13) (14579).
(2) صحيح البخاري، (6612) أخرجه مسلم (2657).

لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُسْتَيَقِنًا بِهَا قَلْبُهُ، فَبَشِّرُهُ بِالْجَنَّةِ»⁽¹⁾.

رابعاً: حديث في السنن بسند صحيح أن النبي ﷺ قال: «مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؛ نَفَعَتْهُ يَوْمًا مِنْ دَهْرِهِ، يُصِيبُهُ قَبْلَ ذَلِكَ مَا أَصَابَهُ»⁽²⁾، ومعنى الحديث: أن من دخل النار بمعاصيه فإن لا إله إلا الله تخرجه من النار، وتدخله الجنة.

خامساً: حديث القبضة، وفيه أن الله جل في علاه: «... يَقُولُ اللَّهُ: شَفَعَتِ الْمَلَائِكَةُ، وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ، وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ، فَيُخْرِجُ مِنْهَا قَوْمًا لَمْ يَعْمَلُوا خَيْرًا قَطُّ قَدْ عَادُوا حُمَمًا، فَيُلْقِيهِمْ فِي نَهْرٍ فِي أَفْوَاهِ الْجَنَّةِ يُقَالُ لَهُ: نَهْرُ الْحَيَاةِ...»⁽³⁾.

فكل هذه الأدلة تثبت أن أهل القبلة من أهل الجنة ما لم يفعل شركاً يخرجهم من الملة، فإن أتى بشرك أكبر خلد في النار.

ولقد ضلّت الخوارج والمعتزلة في فاعل الكبيرة على اختلاف بينهما في حكمه في الدنيا؛ إذ هو في منزلة بين المنزلتين عند المعتزلة، وكافر مستباح الدم والعرض والمال، لا يصلى عليه ولا يدفن في مقابر المسلمين عند الخوارج، وكلتاها جعلته مخلداً في النار في الآخرة، واستدلوا على ذلك بشبه، منها:

أولاً: قال النبي ﷺ: «مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السِّلَاحَ فَلَيْسَ مِنَّا، وَمَنْ عَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا»⁽⁴⁾،

قالوا: التبرؤ ممن فعل هذين الفعلين، فهو إن لم يكن منّا فهو من غيرنا!

ثانياً: قول النبي ﷺ: «أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين»، قالوا يا رسول الله ولم قال لا تراءى ناراها»⁽⁵⁾.

ثالثاً: قال النبي ﷺ: «سَبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ»⁽⁶⁾، قالوا: الفسوق والكفر سواء، فالله قال: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ٢٥٤﴾ [البقرة: 254]، فالآية تدل على أن الفسق من الظلم، وكذلك في قوله: ﴿وَكُذِّبَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّشِقُونَ ٧﴾ [الحجرات: 7]، فقرن الكفر مع الفسوق.

رابعاً: قول النبي ﷺ: «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَنْتَهَبُ نَهْبَةً، يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِيهَا أَبْصَارَهُمْ حِينَ يَنْتَهَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ. وَعَنْ سَعِيدٍ، وَأَبِي سَلَمَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مِثْلَهُ إِلَّا النَّهْبَةَ»⁽⁷⁾، قالوا: هذا الحديث دال على أن من عمل هذه الأعمال فهو كافر، لانتفاء الإيمان عنه.

(1) أخرجه مسلم (31).

(2) صحيح الترغيب (1525)، أخرجه البزار (8292)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (6396) واللفظ لهما، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (126/7)..

(3) سبق تخريجه.

(4) صحيح الجامع (6218)، أخرجه مسلم (101).

(5) صحيح الترمذي (1604).

(6) صحيح البخاري (48)، أخرجه ومسلم (64).

(7) صحيح البخاري (2475)، أخرجه مسلم (57).

خامساً: قول النبي ﷺ: «اِئْتَنَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ»⁽¹⁾ وذكر منها النباحة على الميت، فهذا الحديث فيه دلالة قوية على أن هذه المعاصي كفرية، وهذا بالاتفاق عند الخوارج والمعتزلة.

الرد على أدلتهم:

أولاً: قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: 48]، وكل ما كان دون الشرك فهو تحت مشيئة الله، والكافر لا يدخل تحت المشيئة؛ لأنَّ الكافر ماله إلى النار خالداً فيها، والقاعدة: لفظ الكفر والشرك إن جاءا نكرة حملا على الكفر والشرك الأصغر، فأما إن أتى معرّفاً فيكون محمولاً على الأكبر، والقاعدة هذه لها أدلة كثيرة، والشرح يطول، لكن ما يعيننا هنا أن: (أن يشرك)، هذا مصدر مؤول من إشراكاً، وإشراكاً نكرة فهو شرك أصغر، بمعنى ما كان دون الشرك بنوعيه فهو تحت المشيئة.

ثانياً: أما استدلالهم بحديث: (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن)، فالرد عليه من وجوه:

١- التفريق بين الإسلام الإيمان، وهذا التفريق تأصيل شرعي جاء في القرآن والسنة، قال تعالى ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الحجرات: 14]، وعليه فنفي الإيمان عنه الذي جاء في الحديث تحتل أنه خرج من دائرة الإيمان إلى الإسلام، فالإيمان أخص من الإسلام، والذي يعضد ذلك حديث سعد بن أبي وقاص عندما قال للنبي ﷺ: «...فَوَاللَّهِ إِنِّي لَأَرَاهُ مُؤْمِناً، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَوْ مُسْلِماً...»⁽²⁾، وهذا الفهم جاء في نص آخر، قال النبي ﷺ: «إِذَا زَنَا الرَّجُلُ خَرَجَ مِنْهُ الْإِيمَانُ، فَكَانَ عَلَيْهِ كَالظُّلَّةِ، فَإِذَا أَقْلَعَ رَجَعَ إِلَيْهِ الْإِيمَانُ»⁽³⁾ فإن لم يتب نزع عنه الإيمان، وبقي في الدائرة الأعم وهي الإسلام، والحق أن من أسباب ضلال الخوارج في مرتكب الكبيرة هو ضلالهم أصالة في باب الإيمان؛ إذ هم يجعلونه والإسلام شيئاً واحداً، يزيد ولا ينقص.

٢- ومن الرد أيضاً: نظركم بعين عوراء لأدلة دون أخرى هي سبب ما أنتم فيه من ضلال، فأنتم أخذتم بحديث: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن» وتركتم غيره، فماذا ستفعلون بحديث أبي ذر ؓ الذي قال فيه: «يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟ قَالَ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟! وكيف تردون على بشارة جبريل التي أتى بها من علام الغيوب أن من زنى وسرق ماله للجنة؟! قَالَ: «أَتَانِي جَبْرِيْلُ، فَبَشَّرَنِي أَنَّهُ مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِكَ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئاً دَخَلَ الْجَنَّةَ»⁽⁴⁾، ثم إن هذه القاذورات لها حدود تكفرها وتطهر العبد، فإن لم يقم عليه الحد فأمره وقضاه الله وهذا دليل على إيمانه، جاء في حديث عبادة - ؓ - قَالَ: «إِنِّي مِنَ النَّفَقَاءِ الَّذِينَ بَايَعُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، بَايَعْنَاهُ عَلَى أَنْ لَا

(1) صحيح مسلم (٦٧).

(2) صحيح مسلم (150).

(3) صحيح الترغيب (2394) أخرجه أبو داود (4690)، والديلمي في «الفردوس» (1254) واللفظ له.

(4) أخرجه البخاري (1237)، ومسلم (94).

نُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا، وَلَا نَسْرِقُ، وَلَا نَزْنِي، وَلَا نَقْتُلُ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ، وَلَا نَنْتَهَبُ، وَلَا نَعْصِي، بِالْجَنَّةِ إِنْ فَعَلْنَا ذَلِكَ، فَإِنْ غَشِينَا مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا، كَانَ قَضَاءُ ذَلِكَ إِلَى اللَّهِ»⁽¹⁾.

ثالثاً: استدلالكم بقوله §: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر»، فيجيب عنه: ذكر

الكفر نكرة فدلَّ على أنَّه كفر دون الكفر الأكبر، ومنه قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقتُلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنَّ فَاءَ تَفِيءٍ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات:9]، وقول النبي §: «لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب

بعض»، ومنه قول النبي §: «اثنتان في أمتي هما بهم كفر: النياحة على الميت، والاستسقاء بالنجوم»، فكل ما جاء على هذا السياق ليس من الكفر الذي يخرج من الملة، ويدل على ما ذكرنا أنَّ الله تعالى لم ينف الإيمان عن الطائفتين المتقاتلتين بل سماهما به، وشهد لهما بالإيمان مع أنهما تقتتلان، ويوجد في إحداهما بغي وظلم، وقول النبي § عن الحسن: «إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ، وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِتْنَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ»⁽²⁾ فقال تصريحاً من المسلمين، ويعضد ذلك ما أشار إليه في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَىٰ بِالْأُنْثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَعَدَّىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٧٨﴾ [البقرة:178]، قال ﴿مِنْ أَخِيهِ﴾، فالله تعالى أثبت لهم الأخوة في الدين ولا يمكن أن تكون أخوة بين مؤمن وكافر بحال من الأحوال.

رابعاً: أما قول النبي §: «من غشنا فليس منا» وقوله: «برئت الذمة ممن جلس بين أظهر المشركين».

فالرد عندنا: البراءة براءتان: براءة من الشخص، وبراءة من العمل، والبراءة من العمل لا تخرج صاحبها من الملة، أما البراءة من الشخص كقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُوكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ [المتحنة:4] تخرج صاحبها من الملة، فإبراهيم ؑ تبرأ من أبيه عندما رأى أنه عدو لله، فهنا براءة من عين الشخص لكفره.

أما براءة العمل، قال تعالى: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنَّي بِرِيءٍ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ٢١٦﴾ [الشعراء:216] ويوضح هذه الآية ويفسرها قول النبي § حينما قتل خالد مجموعة من المشركين: (اللهم إني أبرأ إليك مما فعل خالد)، وعلى هذا فيكون معنى: (ليس منّا)، أي: ليس على هدينا، ثم إنَّ سياق قول النبي § (ليس منّا) لا يدل على كفر من غش، إذ لو فعل كفراً لبين له النبي § ذلك وأمره بالرجوع للإسلام، أو لقال له: هذه ردة يا صاحب الطعام، وقد تخلد في نار جهنم بهذه الردة.

(1) صحيح البخاري (6873).

(2) صحيح البخاري (2704).

من خلال ما تقدم علمت أخي كيف أن منهج أهل السنة والجماعة الإحاطة بكل الروايات التي جاءت في مسألة معينة، بخلاف أهل البدع الذين يتمسكون بطرف من أطراف الحديث الذي يناسب أهوائهم ويعرضون عن غيره.

فصل

قال المصنف: [ومن السنة تولى أصحاب رسول الله ﷺ ومحبتهم وذكر محاسنهم، والترحم عليهم، والاستغفار لهم والكف عن ذكر مساوئهم وما شجر بينهم. واعتقاد فضلهم ومعرفة سابقتهم قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [الحشر: ١٠] وقال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] وقال النبي ﷺ: «لا تسبوا أصحابي فإن أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه» ومن السنة: الترضي عن أزواج رسول الله ﷺ وأمّهات المؤمنين المطهرات المبررات من كل سوء، أفضلهن خديجة بنت خويلد، وعائشة الصديقة بنت الصديق، التي برأها الله في كتابه، زوج النبي ﷺ في الدنيا والآخرة، فمن قذفها بما برأها الله منه فقد كفر بالله العظيم، ومعاوية خال المؤمنين، وكاتب وحي الله، أحد خلفاء المسلمين [ع].

ثم شرع المصنف في بيان حقوق الصحابة، والصحابي: هو من لقي رسول الله ﷺ وأسلم على يديه ومات على ذلك، فلو ارتد ثم أسلم في حياة النبي ﷺ ثم مات على الإسلام فهو من الصحابة، وهؤلاء لهم علينا حقوق، منها:

أولاً: الترضي على الصحابة أجمعين، أمّا المنافقون وإن أظهروا إسلاماً كعبدالله بن أبي بن سلول، الذي قال ليخرجن الأعز منها الأذل، ويقصد بالأعز نفسه، وقال الله فيه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ﴾ [النور: 11]، ولما مات وصلى عليه النبي ﷺ أنزل الله - إقراراً لعمر بن الخطاب: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّتَّ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَسِقُونَ ۚ﴾ [التوبة: 84]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: 145]، فهؤلاء لا يترضى عليهم ولا يستغفر لهم، قال الله تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [المنافقون: 6]، فهؤلاء في الدرك الأسفل من النار.

ثانياً: ومن حقوق الصحابة: معرفة قدرهم، وإنزالهم منزلتهم التي أنزلهم الله ورسوله ﷺ إياها؛ فنعرف قدر أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ومعاوية وسائر الصحب

الكرام ٤ أجمعين، وأنّ الصحابي بأمة من بعده، وبهذا يتبين لك خطأ من قدم عمر بن العزيز على معاوية ٥، وكيف يقدم عمر بن عبد العزيز ومعاوية بن أبي سفيان خال المؤمنين، وكاتب وحي الله؟!

الحق أنّ يوما واحداً كتب به معاوية الوحي للنبي ٥ ليعدل بعمر وأهل بيته أجمعين، وقد كان سيد قومه، وأفضل ما تحلى به ٥ من أخلاق سميّة الحلم، وبه ملك أهل الشام، ولعل المصنف خصه بالذكر؛ لأنّه بوابة الصحابة فمن علم له قدره وفضله، فلغيره من الصحابة أعرف من باب أولى.

ثالثاً: عدم الخوض فيما حدث بينهم: فلا يصح لمؤمن يتقي الله ويتأدب بأدب رسوله ٥ أن يخوض فيما حدث بين أصحاب الرسول ٥، قال عمر بن عبد العزيز حينما سئل عن ما كان بين الصحابة قال: تلك دماء كف الله يدي عنها، وأنا أكره أن أغمس لساني فيها.

فالواجب: أن لا نتكلم عن ما كان بينهم بحال، فإنّ منهم المجتهد المصيب الذي له أجران، ومنهم المجتهد المخطئ الذي له أجر، والنبي ٥ مات وهو راض عنهم، وكفى فخراً لهم أنّ الله جل في علاه اصطفاهم لصحبة نبيه ٥.

رابعاً: أن لا نسب أحدًا منهم، لقول النبي ٥: «لا تسبوا أصحابي؛ فلو أنّ أحدكم أنفق مثلاً أحد ذهباً، ما بلغ مدّ أحدهم ولا نصيفه»⁽¹⁾.

وسب الصحابة على ثلاثة أقسام:

القسم الأول: أن يقذح في دين الصحابة، كقول الرافضة أنّ الصحابة ارتدوا جميعاً بعد موت رسول الله إلا أربعة عشر نفرًا.

القسم الثاني: أن يقذح في بعض أمور دينهم، ولا يخرجهم من الملة، كمن يقول: فيهم نفاق، ويحبون الدنيا وكانوا يقاتلون عليها.

القسم الثالث: يقذح في أشخاصهم، كمن يقول: هذا يأكل كثيرًا، أو هذا فيه كذا وكذا.

ولقد اختلفوا في حكم من سب الصحابة، فالإمام مالك يرى أنّ القذح في الصحابة كفر، ويستدل على ذلك بقول الله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا سَجْدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْئَهُ فَازْرَعَهُ فَاسْتَعْلَظَ فَأُصْبَتْهُ عَلَى سَوْقِهِ يَعْجِبُ الزَّرَّاعُ لِيَكْثُرَ بِهِمُ الْكُفَّارُ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَعْفَرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ٢٩﴾ [الفتح: 29]، ووجه الدلالة عنده أنّه لا يتغيظ على الصحابة إلا الكفار.

ومذهب أهل السنة والجماعة أنّ من أخرج الصحابة من الدين فهو كافر خارج من الملة؛ ووجه كفره أنّه كذب الله جل في علاه في تعديله لهم، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ أَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَاتُ اللَّهِ أَنْ يَأْتِيَهُمُ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام: 124].

(1) صحيح البخاري (3673)، أخرجه مسلم (2541).

الْتَقَوُى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ٢٦﴾ [الفتح:26]، وقال الله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَدَّمُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ١٠٠﴾ [التوبة:١٠٠]، فمن أخرج الصحابة من الدين، فهو كافر بالاتفاق.

أما أن يقدح في بعض دينهم، كمن يقول: يريدون دنيا، ولا يريدون الآخرة، فهذا مما اختلفوا فيه: فبعضهم شدد لمكانة صحابة رسول الله ﷺ فكفر من فعل ذلك، واستدلوا على ذلك بما أنزله الله: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ٦٥ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة:65-٦٦]، والاستهزاء نوعان: استهزاء بالدين، واستهزاء بالشخص، فأما الاستهزاء بالدين كمن يقول: اللحية كالمكنسة، فهذا يكفر صاحبه بالاتفاق، وأما الاستهزاء بالشخص فالصحيح الراجح أنه لا يكفر لكنه على خطر عظيم. وأما من يعيب الصحابة لدنياهم فلا يكفر بالاتفاق، وعلى ولي الأمر أن يعزّره بأن يحبسهُ أو غير ذلك.

بعد ذلك عرّج المصنف بذكر أمهات المؤمنين وما لهم علينا من حقوق، والحق أننا نعتقد بكل زوجات النبي ﷺ أنهنَّ البريئات من كل ذنب وخطيئة واتهام، العفيفات اللاتي اختارهن الله جل في علاه زوجات للنبي ﷺ، والله لا يختار لنبيه إلا الطيبات المطيبات، قال تعالى: ﴿وَاطَّيَّبْتُ لِلْغَيِّبِينَ وَاطَّيَّبُونَ لِلْغَيِّبَةِ أُولَئِكَ مَبْرُءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ٢٦﴾ [النور:26].

أسماء زوجات النبي وتاريخ وفياتهن:

١- خديجة بنت خويلد، وهي أم أولاد النبي ﷺ عدا إبراهيم، تزوجها الرسول ﷺ بعد زوجين، وكان يحبها حباً جماً، ولقد اختلف العلماء في أيتهما أفضل، هي أم عائشة؟ فخديجة لها الفضل في السبق، وعائشة لها الفضل في نشر دين النبي ﷺ، ماتت خديجة سنة عشر من البعثة قبل الهجرة، والصحيح أنّ لكل منهما الفضل، خديجة في مكة، وعائشة في المدينة.

٢- عائشة بنت أبي بكر الصديق ~ الصديقة بنت الصديق، المبرأة من فوق سبع سماوات، أريها النبي ﷺ في الرؤيا مرتين أو ثلاثاً، يقال له: هذه امرأتك، وقد عقد عليها وهي بنت ست، ودخل بها وهي بنت تسع، توفيت ~ سنة ثمان وخمسين هجرية.

٣- سودة بنت زمعة: وهي عائشة تزوجها النبي ﷺ في مكة، لكن دخل بعائشة في المدينة، وسودة ~ لها فضل عظيم في أمر أصبح بعد ذلك قاعدة انتفعت بها الأمة أجمع، وذلك حينما أسقطت حقها في المبيت لعائشة، فصارت بعد ذلك قاعدة نافعة: لكل صاحب حق أن يسقط حقه، وهذه اللفتة منها ~ أظهرت كم هي فقيهة أريية إذ هي علمت أنّ النبي ﷺ سيطلقها ولم يكن لها أرب وحاجة بالرجال، ولكن أرادت أن تكون

- زوجًا للنبي ﷺ في الجنة، وتوفيت آخر خلافة عمر وقيل: سنة أربع وخمسين.
- ٤- حفصة بنت عمر بن الخطاب، تأيمت بعد استشهاد زوجها في غزوة أحد، فتزوجها النبي ﷺ، ماتت سنة إحدى وأربعين هجرية.
- ٥- زينب بنت خزيمة الهلالية تُكنى بأُمّ المساكين ~، ماتت سنة أربع هجرية.
- ٦- أُمّ سلمة هند بنت أبي أمية المخزومية، تقدم لها النبي ﷺ بعد موت زوجها أبي سلمة، فرفضته متعلقة: أتني غيري (شديدة الغيرة)، وأتني مصيبة (ذات أولاد صغار)، وليس أحد من أوليائي شاهد، فبعث إليها رسول الله - ﷺ: «أما قولك: إني مصيبة، فإن الله سيكشفك صبيانك، وأما قولك: إني غيري فسأدعو الله أن يذهب غيرتك، وأما الأولياء فليس أحد منهم إلا سيرضى بي...»، ماتت سنة إحدى وستين للهجرة.
- ٧- زينب بنت جحش الأسدية ~، وهي بنت عمة النبي ﷺ، زوجها النبي ﷺ لحبه زيد بن حارثة، ثم جاء أمر تزويجها بالنبي ﷺ بعد طلاقها من زيد من السماء، فكانت تفخر على أمهات المؤمنين بذلك.
- ٨- جويرية بنت الحارث الخزاعية ~، كانت من أكثر النساء بركة على قومها، إذ اعتقها النبي ﷺ ثم تزوجها، ماتت سنة تسع وخمسين.
- ٩- أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان ~، ماتت سنة أربع وأربعين للهجرة.
- ١٠- صفية بنت حيي بن أخطب ~، ماتت سنة خمسين للهجرة.
- ١١- ميمونة بنت الحارث، خالة ابن عباس ~، ماتت بسرف سنة إحدى وخمسين، ~ وأرضاهما.

وهناك من النساء اللاتي لم يدخل بهن النبي ﷺ: ١- أسماء بنت النعمان، ورد أن النبي ﷺ قال لها: (الحقي بأهلك) لأنه رأى بكشحها بياضًا، أي: وجد عيبًا، ولقد استنبط الفقهاء من ذلك أنه يمكن أن يفسخ الزواج بالعيب، فمن تزوج امرأة ووجد عيبًا قد كتموه عنه فيفسخ العقد، ولو دخل بها ثم وجد العيب فله أن يرضى بذلك، وله أن يفسخ العقد، وهذا معمول به بالأصول الشرعية، ولو صح هذا الحديث لكان دليلًا عليه.

٢- بنت أبي الجون، وكانت من أجمل نساء العرب، وورد أنها لما دخل عليها النبي ﷺ، قالت له: أعوذ بالله منك، تحسب أنها ستنتال حبه - فقال: استعذت بمعاذ، الحقي بأهلك، وهنا استنبط العلماء فائدة عظيمة جدًا، ألا وهي: إن استعاذ المرء بالله أمامك فلا بد أن تعيده، ولذلك مريم قالت: ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتُ نَفِيًّا﴾ ١٨ ﴿مريم: 18﴾.

وأمهات المؤمنين محرمات على المؤمنين، فلا يحل لأحد بعد وفاة النبي ﷺ أن يتزوج بواحدة منهن، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنكِحُوا أَرْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ ٥٣ [الأحزاب: 53]، فحق أمهات

المؤمنين التوقير والتبجيل والتعظيم وعدم الزواج منهن، كما أنه لا يجوز التحدث معهن إلا من وراء حجاب، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسَلُّوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ [الأحزاب: 53]، وكذلك لا يجوز السفر بهن دون محرم، وهذا هو الصحيح الراجح.

ومن حقوقهن أيضاً: توقيرهن، والذب عن عرضهن من أن تناله الألسنة النجسة بالقذف، خاصة الطاهرة المطهرة أم المؤمنين عائشة ~ المبرأة من فوق سبع سموات، بل من تناول عليها فهو كافر؛ لأنه مكذب لله في كتابه، دخل عليها النبي ﷺ فقال لها: «أبشري يا عائشة فإن الله قد أنزل عذرك، وقرأ عليها القرآن، فقال أبوأي: قومي فقُبلي رأس رسول الله ﷺ، فقالت: أحمد الله لإياكما»⁽¹⁾، ولأنه مؤذي لله بإيذاء رسوله في زوجاته.

ولاة الأمور

قال المصنف: [ونرى الحج والجهاد ماضيا مع طاعة كل إمام، برا كان أو فاجرا، وصلاة الجمعة خلفهم جائزة]، وقال أيضاً: [ومن السنة: السمع والطاعة لأئمة المسلمين وأمراء المؤمنين - برهم وفاجرهم - ما لم يأمرُوا بمعصية الله، فإنه لا طاعة لأحد في معصية الله، ومن ولي الخلافة واجتمع عليه الناس ورضوا به، أو غلبهم بسيفه حتى صار الخليفة، وسمى أمير المؤمنين، وجبت طاعته وحرمت مخالفته والخروج عليه وشق عصا المسلمين].

ومن السنة السمع والطاعة لولاة الأمور، ويتم تنصيبهم بإحدى طرق ثلاث: **أولها:** الاستخلاف، ويقصد بها: أن يستخلف الخليفة السابق من يكون بعده، وهذا يجب السمع والطاعة ومثاله: تعيين أبي بكر ؓ عمر بن الخطاب خليفة بعده.

ثانيها: أن يتم تنصيبه من قبل أهل الحل والعقد، والمقصود بأهل الحل والعقد، أي: أهل العلم والدين والتقوى والورع، فيختارون ولياً يرون فيه أهلية الحكم والإمارة فيؤمرونه عليه، مثاله: أبو بكر ؓ وما كان في سقيفة بني ساعدة، وعثمان بن عفان ؓ وإجماع أهل الشورى عليه.

ثالثها: أن يتأمر بالغلبة، أي: تأمر بالسيف أو الإرث أو القتال، كإمرة معاوية ؓ وأرضاه، فإنه نازع بالسيف والقتال حتى أُمِر على المسلمين، وكإمرة عبد الملك بن مروان، وغيرهم.

ويجب على المسلمين تجاه ولي الأمر أيًا كانت طريقة وصوله للإمارة: السمع والطاعة لهم، وهذا واجب بالكتاب والسنة، وهذا منهج السلف الصالح، وطاعتهم مقيدة بالمعروف، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ

(1) صحيح أبي داود (5219).

مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَّعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ٥٩﴾ [النساء: 59]، وفي هذه الآيات العظيمة لفظة مهمة، قال: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ جعل طاعة مستقلة لله، وجعل طاعة مستقلة لرسول الله، قال: ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾.

وقد بيّنت قبل ذلك أنّ التوحيد توحيدان: توحيد العبادة لله، وتوحيد الاتباع للنبي ﷺ، لا سيما وأنّ الرسول ناقل للشرع على الراجح أصولياً، فالنبي ﷺ مبلغ عن ربه، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ٦٧﴾ [المائدة: 67]، فالحاصل أنّ الله جعل لنبيه طاعة مستقلة، ثم جعل لولاة الأمور طاعة تابعة لطاعة الله وطاعة رسوله، فلمهم علينا السمع والطاعة بالمعروف، فإن أمروا بمعصية، فلا سمع ولا طاعة، فعن علي بن أبي طالب -«- عن النبي ﷺ قال: «... لا طاعة في معصية، إنّما الطاعة في المعروف»⁽¹⁾.

والسمع والطاعة في المنشط والمكروه، وهذا أمر النبي ﷺ، فعن عبادة بن الصامت، قال: «بَايَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ، وَالْمُنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ، وَعَلَى أَثَرَةٍ عَلَيْنَا، وَعَلَى أَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ، وَعَلَى أَنْ نَقُولَ بِالْحَقِّ أَيْنَمَا كُنَّا، لَا نَخَافُ فِي اللَّهِ لَوْمَةً لَئِيمَةً»⁽²⁾. ومن الحقوق التي لهم: عدم الخروج عليهم إلا أن يرى منهم كفرٌ بواح لهم فيه من الله برهان.

والسمع والطاعة لولاة الأمور فوائد عظيمة، منها: والاستسلام لأمر النبي ﷺ، وعدم الاختلاف في الأمة، ودرء المفسدات التي تحصل بسبب الخروج على ولادة الأمور، فإن أحسن فله وإن أساء فعليه، وقد حذر النبي ﷺ كل راع، فقال: «ما من عبٍ استترعاه الله رعيته، فلم يحطها بنصيحة، إلا لم يجد رائحة الجنة»⁽³⁾ أي: أنه لا يشتم رائحة الجنة بحال من الأحوال، وقد دعا النبي ﷺ على من هذا حاله فقال: «اللَّهُمَّ مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئاً فَشَقَّ عَلَيْهِمْ، فَاشْقُقْ عَلَيْهِ، وَمَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئاً فَرَفَقَ بِهِمْ، فَارْفُقْ بِهِ»⁽⁴⁾ وهذا دعاء محقق الإجابة، فعلى المرء أن يعلم أنّ قلوب ولادة الأمور بيد الله، وعليه أن يلزم نفسه الطاعة، وأن يلتزم بدين الله، وأن يسمع ويطيع في الطاعة دون المعصية.

(1) صحيح البخاري (7257).

(2) صحيح مسلم (1709)، أخرجه البخاري (7199، 7200).

(3) صحيح البخاري (7150)، ومسلم (142).

(4) صحيح مسلم (1828).

هجران أهل البدع

قال المصنف: [ومن السنة: هجران أهل البدع ومباينتهم، وترك الجدل والخصومات في الدين، وترك النظر في كتب المبتدعة، والإصغاء إلى كلامهم، وكل محدثة في الدين بدعة، وكل متسم بغير الإسلام والسنة مبتدع، كالرافضة والجهمية والخوارج والقدرية والمرجئة والمعتزلة].

مسألة هجران أهل البدع من المسائل المهمة جداً، والهجران: مصدر هجر، ومعناه لغة: الترك، والمراد هجران أهل البدع، أي: الابتعاد عنهم. والبدعة، لغة: الاختراع.

واصطلاحاً ما عرفه الشاطبي -: طريقة في الدين مخترعة، تضاهي الشرعية، يقصد بالسلوك عليها المبالغة في التعبد لله سبحانه.

وقوله: تضاهي الشرعية، أي: تشبه الطريقة الشرعية لكنها في الحقيقة مضادة لها. والحق أن أجمع تعريف لها ما قاله ابن تيمية - -: ما خالف الكتاب والسنة أو

إجماع سلف الأمة من الاعتقادات والعبادات.

وحقيقة، البدعة أحب إلى الشيطان من المعصية؛ لأنَّ صاحب البدعة قد يضطر إلى النفاق أو القتال في سبيل إظهار بدعته عند الخاصة والعامة، بل هو يلوي عنق النصوص ليستدل بها على بدعته، فالبدعة كما قال سفيان الثوري: "البدعة أحب إلى الشيطان من المعصية"، وقال بعض السلف: "لأنَّ أَرَى في المَسْجِدِ ناراً لا أَسْتَطِيعُ إطفاءها أحبُّ إليَّ من أن أَرَى فيه بدعة لا أَسْتَطِيعُ تَغْيِيرُها"، وكفى بأهل البدعة سوءاً، وبشارة بالسوء قول الله تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَسِقُونَ ٢٧﴾ [الحديد: 27]، فالله لن يقبل العبادة أو الاجتهاد فيها طالما أنها خرجت عن دائرة السنة والشرعية.

فعن علي بن أبي طالب -: «قال النبي ﷺ: «...لَعَنَ اللَّهُ مَنْ دَبَّحَ لِغَيْرِ اللَّهِ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ سَرَقَ مَنَارَ الْأَرْضِ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَهُ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ أَوَى مُحَدَّثًا»⁽¹⁾، فكيف بالمحدث نفسه؟ ويقول النبي ﷺ أيضاً: «أُحْدِثُ في أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ، فَهُوَ رَدٌّ»، وفي رواية مسلم، قال: «من عمل عملاً»⁽²⁾، ومعنى رد أي: باطل فيرجع على صاحبه، ولا يقبل عند الله جل في علاه، ومن أشد ما يكون على المبتدع أن التوبة محجوبة عنه ما دام في بدعته، وهذا يعني الزجر الشديد من الله جل في علاه ومن رسوله على البدعة وصاحبها.

والبدعة بدعتان: بدعة مكفرة، وبدعة مفسدة.

فأما البدعة المكفرة: فهي البدعة التي يشوبها الشرك، كالإلحاد في أسماء الله

(1) صحيح مسلم (1978).

(2) صحيح البخاري (2697)، أخرجه مسلم (1718).

وصفاته، والتوسل بالأموال بأن يجعلهم وسطاء بينه وبين الله جل في علاه، فهذه البدع مكفرة تقدر في توحيد المرء.

وأما البدعة المفسدة: فهي التي تخالف طريقة النبي ﷺ، وكلاهما مذموم، إلا أن البدع المكفرة أشد ذمًا؛ لأن صاحبها يخلد في نار جهنم، أما البدعة المفسدة فصاحبها لا يزال على التوحيد وماله بإذن الله إلى الجنة، لكنه على شفير كفر فلا بد أن يرجع إلى صوابه.

وقد تعامل أهل السنة والجماعة مع أهل البدع بالهجران والتحذير منهم، وهذا على الإجمال، أما التفصيل فيها فنقول: الأصل الذي أصله السلف في هجران أهل البدع ليرجعوا عنها، ويلتفتوا حول أهل السنة والجماعة، فإن كان هذا الهجران سيأتي بمفسدة أكبر، كاستمراره على بدعته مثلاً، فلا هجران، بل يسلم عليه، وينصح، ويدعى له لعل الله جل في علاه أن يهديه، فالأمر على المقاصد، فمتى علمنا أن الهجر دواء ناجع لردع المبتدع وقمعه ورده لحياض السنة، ودرء انتشار بدعته فلا بد منه، وإن كان سيزيد الهجران مفسده وطمغيانه، وسيفوت مصالح أعظم فلا هجران.

ولك في فعل ابن عباس ؓ مع الذين خرجوا على علي بن أبي طالب خير دليل للتوضيح، فلقد ذهب ابن عباس إليهم وأبطل ما قدموه من شبه، وناظرهم بالسنة، فكانت النتيجة أن عاد معه أكثرهم، واصطفوا بجانب علي بن أبي طالب - ؓ -، ولم يبق إلا من ختم الله على قلبه.

وهذا يقودنا للتنبه لمسألة من الأهمية بمكان، هي: أن الشرط في مناظرة أهل البدع إتقان المسائل التي تناظر فيها، فأما الذي لم يتقن اعتقاد أهل السنة والجماعة بأدلتها فضلاً عن أن يتقن شبه المبتدعة والردود عليها، فمثل هذا لا يناظر؛ لأنه سيودي بنفسه للتهلكة ولا شك.

وما دما تحدثنا عن مناظرة أهل البدع فلا بد أن نذكر بأبرز من برع في هذا المضمار، ألا وهو: شيخ الإسلام ابن تيمية، فقد أشهر سيف السنة على وجوه المبتدعة، وقمعهم بفضل الله عليه، فلقد كان - - يناصر الحق، وكذلك كان الشافعي الملقب بناصر السنة؛ لأنه كان يتصدى لأهل الرأي والقياس، ويعارضهم بالسنة، وكان يقول: القياس وإن كان حجة لكنه في مضايق الأمور، ومن نصرته للسنة أنه شئع - - على أهل الكلام، وحكم عليهم بالضرب بالجريد والنعال، وأن يطاف بهم في المداخن.

الغرض المقصود: أنهم رفعوا راية السنة، وحاربوا لأجلها، فمثل هؤلاء، أو من سار سيرهم فله أن يناظر، وينافح، ويصد المبتدع، أما طالب العلم المبتدئ، أو المقلد فلا يجوز له مناقشة المبتدع خشيةً على قلبه، ولقد كان من السلف من يتجنب المبتدع في الطرقات، ولا يقبل منهم سماع كلمة ولا نصيفها، وهذا ورد عن ابن سيرين، وأحمد بن حنبل، ومالك بن أنس، والحسن البصري وغيرهم - جميعاً -.

وقد جاء عن عمر بن الخطاب التغليظ على المبتدع وزجره حتى يعود إلى رشده، فقد ورد أن أبا موسى الأشعري بعث إليه أن هناك من يتكلم في القدر، فما كان منه -

وهو الراعي المسؤول عن كل شيء صغيرًا كان أو كبيرًا - إلا أن بعث له أن يأتيه به، وقد أعد له عراجين النخل -جريد النخل- فلما دخل عليه جلس فقال له: من أنت؟ قال: أنا صبيغ، فقال عمر: وأنا عمر عبد الله، ثم أهوى إليه فجعل يضربه بتلك العراجين حتى شجه - فجعل الدم يسيل على وجهه فقال: حسبك يا أمير المؤمنين! فقد والله ذهب الذي كنت أجد في رأسي.

وهذا الذي لا بد أن يحدث مع أهل البدع إن كان لك سلطة عليهم، فعلى الإنسان: أن ينظر لهذه البدع بعين الشرع، فيتبرأ من فعلهم، ويبغضهم على هذه الفعلة الشنيعة، وينأزهم ويناصحهم إن كان طالبًا للعلم متقنًا. وينظر إليهم بالعين الأخرى: وهي عين القدر، فيحمد الله أنه لم يكن على طريقتهم، وأن ثبته الله على السنة، ويدعو لهم لعل الله أن يهديهم إلى سنة سيد المرسلين.

ولقد أحسن المصنّف ببيان بعضاً من علامات أهل البدع، فقال:

١- يتصفون بغير الإسلام والسنة بما يحدثونه من البدع القولية والفعلية والعقدية، وأنهم يتعصبون لأرائهم؛ لأنهم يتبعون الأهواء، والحق ما أحقه الله، والقاعدة عند أهل السنة: العلم قال الله قال رسوله قال الصحابة ليس بالتأمويه ما العلم نصبك للخلاف سفاهة بين الرسول وبين رأي فقيه فلا يقال: قال الشيخ الفلاني، ولا الشيخ العلاني، ولا تقل: قال الفقيه الفلاني، أو المحدث العلاني، بل قل: قال رسول الله ﷺ، ولا يفهم من هذا الكلام أننا لا نعرف قدر علمائنا ومشايخنا، بل نعرف قدرهم، وما هم عليه من العلم والفضل، ولكن الانجرار خلف من لا يعلمون بداعي الهوى والتعصب، بحيث نتنازل عن النعمة العظيمة التي وهبنا الله إياها، نعمة التدقيق والنظر في الأدلة والترجيح بين أقوال أهل العلم، ف لا، وهذا لا يتنافى مع معرفة فضل الفاضل وإنزاله منزلته منزلته، فأهل السنة لا يتعصبون لأرائهم، بل يرجعون للحق عند ظهوره لهم، بخلاف المبتدعة الذين لا يرجعون للحق وإن تبين لهم، بل إن التعصب المذهبي قد أوصل بعضهم لأن يطعن في صحابي نصرته لمذهبه!

٢- ومن علامات أهل البدعة: يكرهون أئمة الإسلام والدين، فلا تكاد تجلس مع المبتدع إلا يطعن في شيخ الإسلام ابن تيمية؛ زاعماً أن لا شيخ للإسلام؛ وأنه مجسم مشبه على ما يزعمون، بل ويكفره، وهذا من منطلق عداوتهم وحقدهم على أهل السنة، وكلما كان العالم السني حرباً عليهم كلما كانوا له شديدي العداوة والحرب عليه، وأعلى هذه الطوائف حقداً وحرباً على السنة الرافضة، وهم الذين غلوا في آل البيت، وكفروا الصحابة أو فسقوهم، وهم فرق شتى، فمنهم الغلاة الذين ادعوا بعلي «الألوهية» والربوبية، وكان أول ظهور بدعتهم في خلافة علي بن أبي طالب، على يد مؤسسها اليهودي عبد الله بن سبأ الذي أراد الدخول للإسلام لتخريبه تحت غطاء حب آل البيت، فادعى بعلي الألوهية، فما كان من علي إلا أن حرقهم، فازدادوا به فتنة والله المستعان.

من طوائف المبتدعة:

١- الرافضة: ولقد سُموا بالرافضة؛ لأنهم رفضوا زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب حينما ترضى على الشيخين، وزيد بن علي هو الإمام زيد «، ومنهجه

تفضيل علي على أبي بكر وعمر ؓ جميعاً، وأتاه الأحق بالخلافة ولكنه يترضى على الثلاثة، ويأمرهم من الفضل بمكان، وإليه ينسب مذهب الزيدية، الذي ينتحله من العلماء الأفاضل الشوكاني - - .

أما تسميتهم بالشيعة؛ فلأنهم يزعمون أنهم ينشيعون لآل البيت وينتصرون لهم، وفي حقيقة الأمر هم أشد الناس حرباً لأهل البيت، فالمتنبع للتاريخ يجد أن كل هزيمة، ونكبة نزلت على آل البيت بسببهم، فهم الذين أخرجوا الحسين للقتال بعد أن وعدوه بالموازنة والمبايعة، ثم تركوه مقتولاً، ويأتون الآن يقيمون المآتم، ويضربون أنفسهم بالسلاسل والسكاكين حزناً عليه!! والله إنهم لفي تيه وتخبط إن لم يرجعوا إلى منهج أهل السنة والجماعة، والويل كل الويل لمن يقول بالتقارب بين السنة والشيعة، فكيف نتقارب مع أناس نقضوا كلمة التوحيد، وزعموا أن علياً إله من دون الله؟! وكيف نتقارب مع رجل يسب أباً بكر وعمر علانية، ويقذف أم المؤمنين عائشة بالزنا والعياذ بالله؟! هذا الكلام ضلال مبين، والله المستعان.

٢- الجهمية: نسبة إلى الجهم بن صفوان الذي قتله سالم أو سلم بن أحوز سنة 121هـ، ومذهبهم هذا من أخبث المذاهب، وقد جمعوا كل شنيع في كل أصل، ففي الصفات، مذهبهم: التعطيل والنفي، وفي القدر، يقولون بالجبر، فيقولون: ألقاه في اليم مكتوفاً، وقال له: إياك إياك أن تبطل بالماء! وهم في الإيمان مرجئة، فيرون أن كفر إبليس مثل إيمان جبريل؛ لأن إبليس تحت إرادة الله يفعل ما أَراده الله جل في علاه، وكذلك جبريل يفعل ما أَراده الله جل في علاه، فاستويًا في ذلك، نعوذ بالله من الخذلان! ويرون أن الإيمان محله القلب فقط، فغلاتهم عندهم الإيمان هو المعرفة فقط!

٣- الخوارج: وهم الذين خرجوا لقتال علي بن أبي طالب - - بسبب التحكيم، ومذهبهم يقوم على التبرؤ من عثمان وعلي ؓ، ويرون الخروج على الإمام، وتكفير فاعل الكبيرة وتخليده في النار، وهم فرق عديدة.

٤- القدرية: وهؤلاء يقولون بنفي القدر عن أفعال العبد، وأن للعبد إرادة وقدرة مستقلتين عن إرادة الله - جل في علاه - وقدرته، ولذلك سُمُّوا مجوس الأمة، فقد جعلوا من أنفسهم شركاء مع الله في الخلق، وأول من أظهر القول به معبد الجهني في أواخر عصر الصحابة، فقد تلقاه عن رجل مجوسي في البصرة، وانظروا! فما من مبتدع يبتدع بدعة إلا ويكون قد أخذها عن أهل الكفر والضلال والعياذ بالله.

وهم فرقتان: غلاة، وغير غلاة، فأما الغلاة: فينكرون علم الله، وهؤلاء قال فيهم الشافعي: خاصموهم بالعلم، فإن أقروا فقد خصموا، وإن أنكروا فقد كفروا؛ وهؤلاء قد انقضوا أو كادوا، فلم يبق منهم إلا القليل، أما غير الغلاة فيؤمنون بأن الله يعلم كل شيء، لكنهم ينكرون وقوع هذه الأفعال بإرادة الله وقدرته وخلقه، وينسبون فعل العبد لنفسه خلقاً وإيجاداً، وهذا المذهب مخالفته ظاهرة لكتاب الله ، قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: 96].

٥- المرجئة: وهؤلاء يقولون بإرجاء العمل عن الإيمان، أي: تأخير عنه، فالعمل عندهم ليس من الإيمان، وهم طوائف: غلاتهم يرون أن الإيمان هو المعرفة فقط، ومنهم

من يقول: الإيمان قول وتصديق، وأفضلهم حالاً من يرى أن العمل يؤثر بزيادة ونقصان الإيمان، ولا يجعله من أركانه، وهؤلاء هم مرجئة الفقهاء، والمرجئة يحصرهم الكفر في كفر الاستحلال أو الجحود فقط.

٦- المعتزلة: وهم أتباع واصل بن عطاء الذي اعتزل مجلس الحسن البصري، وهؤلاء يكفرون بالمعصية، لكنهم لا يتجرؤون على القول بكفر فاعل الكبيرة، ولا يتجرؤون كذلك على القول بفسقهم، ويقولون: هو في منزلة بين المنزلتين، وفي الآخرة مخلد في نار جهنم، وهذا ضلال مبين والعياذ بالله.

٧- الكرامية: وهؤلاء أتباع محمد بن كرام الذي توفي سنة 255هـ، وهم يميلون إلى التشبيه، والقول بالإرجاء، وهم طوائف متعددة.

٨- السالمية: وهم أتباع رجل يقال له ابن سالم، وهؤلاء يقولون بالتشبيه. وفي ختام الكلام عن الطوائف لا بد من التنبيه على خطر مذهب الأشاعرة، وبيان انحرافه: الحق لو عمقنا النظر في منهج الأشاعرة سنجد أن الأشاعرة أيضاً من البعد بمكان عن أهل السنة والجماعة، والأشاعرة: هم أتباع أبي الحسن الأشعري، وهو منهم براء، فقد ثبت أنه اعتنق مذهب أحمد بن حنبل -- في آخر حياته، والصحيح أن التزامه بمذهب أحمد ليس كلياً، وقد كان في بداية أمره حتى سن الأربعين معتزلياً، ثم صار أشعرياً، ثم صار على منهج أهل السنة والجماعة، والأشاعرة يثبتون سبع صفات وينفون الباقي، وهي مجموعة في قولهم: حي عليم قدير والكلام له إرادة وكذاك السمع والبصر، وللأشاعرة بدع أخرى وليس هذا مجال التفصيل في هذه البدع.

الاختلاف في الفروع

قال المصنف: [وأما بالنسبة إلى إمام في فروع الدين، كالطوائف الأربع فليس بمذموم، فإن الاختلاف في الفروع رحمة، والمختلفون فيه محمودون في اختلافهم، مثابون في اجتهادهم واختلافهم رحمة واسعة واتفاقهم حجة قاطعة، نسأل الله أن يعصمنا من البدع والفتنة، ويحيينا على الإسلام والسنة، ويجعلنا ممن يتبع رسول الله ﷺ في الحياة، ويحشرنا في زمرة بعد الممات برحمته وفضله آمين، وهذا آخر المعتقد والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا].
تكلم المصنف في آخر الكتاب عن مسألة الخلاف في الفروع، وكأنه يشير إلى أن أهل السنة والجماعة لا اختلاف بينهم في الاعتقاد، وهذا حق، فما كان منهم في اختلاف فهو اختلاف تطبيقي كاختلافهم في رؤية النبي ربه يوم القيامة، لكنهم في الأصول متفقون.

والخلاف في الفروع معناه: عدم الاتفاق في المسألة على حكم واحد.
والفروع: جمع فرع، وهو ما بني عليه غيره.
أما اصطلاحاً: فهي المسائل الفقهية التي لا تتعلق بالأصول وهي العقائد.

والخلاف خلافان:

خلاف التنوع: وهو الخلاف السائد المعبر، وهذا الخلاف هو الذي وقع في الأمة

منذ عهد النبي ﷺ إلى يومنا هذا، ولقد اختلف الصحابة والتابعون ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين في مسائل كثيرة، فالاختلاف السائغ المعتبر: هو الاختلاف الذي ينبني على الدليل، بأن يكون لكل امرئ في هذا الخلاف دليل، فيسمى هذا الخلاف: خلاف تنوع، والواجب علينا تجاهه ألا ننكر على المخالف بل نناصحه، ونبيّن له الراجح من المرجوح، فإن أخذ به فلنفسه، وإن لم يأخذ به فعليها، وهذا هو الأدب في التعامل مع المخالف خلافاً معتبراً.

أما الخلاف الغير معتبر فهو خلاف التضاد: وهو الخلاف الذي لا ينبني على دليل، بل ينبني على الهوى والتعصب، كأن يخالف حنفي شافعيّاً - أو العكس - من أجل أن إمام المذهب تكلم في مسألة ليس له عليها دليل من كتاب وسنة، ويصرّ على ما ذهب إليه إمامه مع وضوح الدليل، فهذا الخلاف منبعه الهوى والتعصب، وهذا هو المذموم. وهذا الخلاف ينبني على التعصب والهوى، ولا بد في هذا من الإنكار وبشدة حتى يظهر الحق ويموت الباطل.

أما المسألة الثانية التي تتعلق بمسألة الخلاف، هي: هل يعتبر اختلاف التنوع المنطلق من الدليل رحمة للأمة أم هو نقمة؟ الجواب: ليس برحمة، أما الذين يتعلقون بقول النبي ﷺ: خلاف أمتي رحمة، فهذا حديث موضوع ليس بصحيح، فليس الخلاف رحمة بحال من الأحوال، الرحمة موجودة في الخلاف المعتبر؛ لأنّ هذا الخلاف إن كان ينبني على الأدلة فلكل مجتهد نصيب وأجر، فمن أصاب فله أجران، ومن أخطأ فله أجر واحد؛ فكلّ منهم قد أصاب الخير عند ربه في الخلاف المعتبر، لكنّه ليس برحمة؛ لأنّ هناك راجحاً ومرجوحاً، أمّا أن تقول: إنّ الخلاف رحمة، وأنّ للإنسان أن يتخير بين قولي العلماء فيأخذ بأيّ القولين أحب فهذا باطل، بل هو فتح لباب الزندقة لتضييع الدين، فكلماً صادفته فتوى لعالم من العلماء تطابق هواه أخذ بها، فهو يتنقل بين فتاوى العلماء اتباعاً لهواه من دون الله، ولم يتبع التأصيل العلمي الصحيح من الكتاب أو السنة، فهو شر كله وليس برحمة.

مسألة: هل الكل مصيب في هذا الاختلاف، أم أنّ هناك مصيباً ومخطئاً؟ فلو قال الشافعي مثلاً: الصلاة في المسجد الذي فيه قبر صحيحة مع الإثم، وقال أحمد: باطلة مع الإثم، فهل نقول: الاثنان أصابا الحق؟ ثم هل الحق متعدد عند الله؟ **الصحيح الراجح:** الحق واحد لا يتعدد، وقد يكون الحق الراجح مع أحدهم، والخطأ المرجوح مع الآخر، والحق عند الله واحد لا يتعدد، والدليل على ذلك: ١- قول الله: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: 32]، وهذه الآية صريحة جداً في ما قلناه.

٢- حديث النبي ﷺ: «إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَنَهْ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَنَهْ ثُمَّ أخطأ فَلَهُ أَجْرٌ»^(١) إشارة إلى أنّ الحق واحد.

ولقد استدلل القائلون بتعدد الحق بأدلة، منها:

(١) صحيح البخاري (7352).

١- قول النبي ﷺ لأصحابه: «... لَا يُصَلِّيَنَّ أَحَدُ الْعَصْرِ إِلَّا فِي بَنِي قَرْيَظَةَ. فَأَدْرَكَ بَعْضُهُمُ الْعَصَرَ فِي الطَّرِيقِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا نُصَلِّي حَتَّى نَأْتِيَهَا، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ نُصَلِّي، لَمْ يَرُدْ مِنْ ذَلِكَ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَلَمْ يُعَيِّفْ وَاجِدًا مِنْهُمْ»^(١) ووجه الدلالة عندهم: أَنَّ النبي ﷺ لم يخطئ أيًا من الفريقين، ولم يأمرهم بإعادة الصلاة، والإجابة على هذا الإشكال من وجهين:

الوجه الأول: أن نقول: هما على الحق، ولا يعد هذا خلافا؛ لِأَنَّ الأوائل صلوا في بني قريظة بأمر النبي ﷺ، وصى الآخرون في الطريق عملاً بقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْفُوتًا ١٠٣﴾ [النساء: 103]، فأقرهم النبي ﷺ على هذا الفهم، وإقراره ﷺ وحي من الله أَنَّهُما على الحق.

الوجه الثاني: أن يقال: ليس كلاهما على حق؛ بل كان الفريق الأول على حق، الآخر مخطئ، والنبي ﷺ أقر اجتهداهما فقط؛ سيما ومجال الاجتهاد مباح، بل مرغّب فيه، قال تعالى: ﴿لَعَلَّهُمُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: 83].

الإجماع:

ضابطه وإمكانية وقوعه

الإجماع لغة: العقد والاتفاق.

اصطلاحاً: اتفاق مجتهدى الأمة على حكم شرعي بعد وفاة النبي ﷺ، وهو حجة لا

نزاع في ذلك، والدلالة على ذلك:

١- قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ تَنَزَّعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [النساء: 59]، ووجه الدلالة في الآية مأخوذ من مفهوم المخالفة، بمعنى: أنكم عند الاجتماع تأخذون باجتماعكم، ولا تردونه إلى الله ورسوله ﷺ.

٢- ومن قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ١١٥﴾ [النساء: 115].

٣- ومن قوله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَجْمَعُ أُمَّتِي - أَوْ قَالَ: أُمَّة مُحَمَّدٍ ﷺ - عَلَى ضَلَالَةٍ وَيُدِّ اللَّهُ مَعَ الْجَمَاعَةِ، وَمَنْ شَدَّ شَدًّا إِلَى النَّارِ»^(٢).

ومع هذا فالإجماع عزيز، مسائل قليلة التي كان فيها الإجماع؛ ومما يؤثر عن الإمام أحمد قوله: وما يدريك لعل الناس قد اختلفوا، والإجماع عند الشافعي هو إجماع

(١) صحيح البخاري (4119)، أخرجه مسلم (1770).

(٢) أخرجه الترمذي (2167) واللفظ له، والحاكم (397)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (37/3) باختلاف يسير.

الصحابية؛ لأنّ من الصعوبة حصر من بعدهم، فالعلماء مشتتون في جميع الأمصار، فليس من الممكن جمع أقوالهم من المشرق ومن المغرب، أما في عصرنا فمن الممكن حصر أقوال العلماء المعترين عن طريق الشبكة العنكبوتية، أو الهاتف، أو حتى عن طريق اجتماعهم في مواسم الحج، أو في مؤتمرات علمية فلو حصل ذلك وأجمعوا على مسألة فلا يجوز لنا مخالفته.

ومن العلماء المعاصرين الذين سلكوا مسلك الإمام أحمد الألباني، لذا لما احتج عليه بالإجماع على جواز لبس المرأة الذهب الملق، قال متمثلاً بقول أحمد: وما يديكم لعل الناس قد اختلفوا فلم تطلعوا على اختلافهم، ثم قال: وكيف يجمعون على مسألة قد قال بها أبو هريرة، وقال بها كذا وكذا من الصحابة، ولسنا هنا بصدد الترجيح، فالراجع الحق: أنّ الذهب الملق حلال، لكنّه اعترض على من اعترض عليه أنّ الإجماع عزيز.

ولا تخلو الإجماعات التي ألفت من مقال وكلام، فمثلاً، إجماعات النووي لا يقصد الإجماع بمفهومه الشامل بل يقصد اتفاق الشافعية فيعذر له بذلك، وأما إجماعات ابن عبد البر، وابن المنذر، ففيها الخلط الكثير كما قال العلماء، إلا أنّنا نشكر لهم صنيعهم وجهدهم.

التقليد وأدابه

التقليد في اللغة: وضع القلادة في العنق. اصطلاحاً: اتباع الغير بلا حجة، بمعنى: أن تأخذ فتوى العالم من دون حجة عليها، فهو كالبيغاء ينادي بفتاوى المشايخ والعلماء فقط.

وللمقلد آداب لا بد أن يتأدب بها، ومنها:

أولاً: لا تصح منه المناظرة أو المعارضة أو الاحتجاج، بل لا بد له أن يعمل بهذه الفتيا بصمت دون أن يخبر أحداً بها.

ثانياً: لا يرضى لنفسه هذه المذمة، بل يجب عليه أن يجلس في مجالس العلم حتى يرفع عن نفسه الجهل، قال الإمام أحمد: أفضل ما يتعبد به المرء هو العلم فيرفع الجهل عن نفسه، وكفى بالجهل مذمة أنّ الجاهل لا يرضى أن يقال عنه: جاهل، فلا بد للمقلد أن يرتقي برفع الجهل عن نفسه.

فإن قيل: فهل يجوز للمقلد أن يأخذ بالفتوى ويعمل بها؟

الجواب: يجوز للمقلد أن يأخذ بالفتوى ويعمل بها عملاً بقول الله تعالى: ﴿فَسَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ٤٣﴾ [النحل:43].

ثم ختم المصنّف الباب بالكلام على المذاهب الأربعة المشهورة -وهنا مسألة مهمة جداً - فهل يجوز الخروج بالقول أو الفعل عن المذاهب الأربعة؟

الجواب: هذه مسألة عويصة بين العلماء، والراجح: أنّ الإنسان إذا ظهر له الدليل وجب عليه الأخذ به، ويضرب بكلام كل الناس عرض الحائط؛ لأنّ العلم قال الله وقال رسوله.

المذاهب الأربع المنتشرة:

المذهب الأول: مذهب الحنيفة، وإمامه أبو حنيفة النعمان بن ثابت إمام أهل العراق، ولد سنة 80 هـ وتوفي سنة 150 هـ، قال عنه الشافعي بعد أن نظر في كتبه، وتعلم من تلاميذه كالشيباني، وأبي يوسف، قال: الفقهاء عيال على أبي حنيفة؛ وهذا لشدة ذكائه، وتوقد ذهنه فقد كان قايماً بديعاً، حتى إن الإمام مالكا كان يقول فيه: لو ناظر أبو حنيفة رجلاً على أن هذا العمود من ذهب - وهو من الخشب - لأقنعه أنه من الذهب، لشدة ذكائه، وحسن مناظرته، إلا أنه يؤخذ على المذهب الحنفي أنه بعيد عن السنة، وليس هذا نفرة عن السنة، لكن الإمام أبي حنيفة كان في العراق، وقد كان فيهم أهل شقاق، ونفاق، وكذب؛ فالشيعة كانوا يكذبون على علي بن أبي طالب هـ، فلما رأى أبو حنيفة أن أهل المنطقة يندر فيهم الثقة الذي يؤخذ منه الحديث بدون شك فيه، نحاًها لضعفها، وأعمل فيهم القياس على الأصول الثابتة عنده، والسبب الثاني: أن المستجدات كانت تظهر في العراق بكثرة لقربها من بلاد فارس، فلعدم ورود أدلة ونصوص فيها كان لا بد من إعمال العقل والقياس حتى يصلوا لحكم النازلة المستجدة.

المذهب الثاني: المذهب المالكي، ورأسه: أبو عبد الله مالك بن أنس إمام دار الهجرة، ولد سنة 93 هـ وتوفي سنة 179 هـ، قال عنه الشافعي: إذا ذكر الحديث فمالك النجم، خلط بين الفقه والحديث، ومذهبه من القوة بمكان، ومنشر جداً في بلاد المغرب العربي.

المذهب الثالث: المذهب الشافعي، وإمامه أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي، ولد سنة 150 هـ وتوفي سنة 204 هـ، قال فيه الإمام أحمد: الشافعي للناس كالشمس للدنيا، وهل هناك خلف عن الشمس؟! قال: والشافعي للناس كالعافية للبدن، وفي الحقيقة، الشافعي من أمتن، وأتقن، وأحفظ، وأثبت علماء المذاهب، قال عنه أحمد شاكر: لو أمرت مجتهداً أن يقلد مجتهداً لأمرته أن يقلد الشافعي، وهو أقرب المذاهب للسنة، فأكثر علماء الشافعية من المحدثين الذين خلطوا بين الفقه والحديث.

والحق أن طالب العلم المبتدئ يُنصح بأن يبدأ الفقه بالتمرس على مذهب أهل بلده - وإن كنت أنصح بالمذهب الشافعي لجمعه بين الأثر والنظر -، ثم بعد أن يتقن المسائل على أصول مذهب بدليلها ينطلق للفقه المقارن، وفقه الحديث.

المذهب الرابع: المذهب الحنبلي، وهو من أقوى المذاهب وأقربها للسنة، إمامه إمام أهل السنة والجماعة، قال عنه يحيى بن معين لما سئل عنه: أحمد يسأل عنه؟ أحمد إمام الدنيا، وقال بعضهم: إن الله نصر هذا الدين بأبي بكر في الفتنة، وبأحمد في المحنة، أي: محنة خلق القرآن.

وهناك مذاهب أخرى لكتّها لم تنتشر كالأربعة، منها: **مذاهب الفقهاء السبعة**، وهم: سعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، والقاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، وعبيد الله بن عتبة بن مسعود، وخارجة بن زيد بن ثابت، وسليمان بن يسار، واختلف في السابع: فقيل هو أبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف، وهو قول الأكثر، وقيل هو سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، وقيل هو أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن

هشام المخزومي، وكلهم من التابعين.
ومذهب الليث بن سعد، الذي قال عنه الشافعي: الليث أفقه من مالك إلا أنه لم يحمله أصحابه، ومعلوم أن القول الجديد للشافعي كان بعد دخوله مصر، وتأثره بها
ومذهب سفيان الثوري، أمير المؤمنين في الحديث، كان له أيضاً مذهب فقهي، لكن لم يحمله أصحابه.
ومذهب الظاهرية، ورأسه داود الظاهري، وأشهر علم من أعلام الظاهرية ابن حزم الظاهري -.

والمذهب الزيدي وهذا منتشر بكثرة في اليمن، وناصره الإمام الشوكاني.
ختاماً، أقول: علم العقيدة من أهم العلوم وأشرفها، فشرف العلم من شرف المعلوم، ولا أحد أشرف من الله جل في علاه، ثم الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، اللهم اجعلها ذخراً لنا يوم نلقاك، اللهم آمين.

فهرس الموضوعات:

3	مقدمة الشارح:
4	توطئة:
4	القاعدة الأولى: وجوب التسليم لكلام الله، وكلام رسوله
6	القاعدة الثانية: في أسماء الله، وتحت هذه القاعدة فروع
7	القاعدة الثالثة: في صفات الله، وتحتها فروع:
9	القاعدة الرابعة: بم نرد على المعطلة؟
10	فصل
10	معنى البسمللة:
11	معنى الحمد والشكر
14	علم الله الشمولي:
16	فصل
16	وجوب إثبات صفات الله تعالى على الوجه اللائق به
20	فصل
21	الترغيب في السنة والتحذير من البدع
22	تعريف السنة والبدعة
26	إثبات صفة الوجه لله تعالى والرد على المخالفين
28	الرد على الذين نفوا صفة الوجه لله تعالى:
30	إثبات صفة اليد لله تعالى
32	الرد على المنكرين لصفة اليد
33	إثبات صفة النفس لله تعالى
35	إثبات صفة المجيء لله تعالى
37	صفة الرضا لله تعالى
39	إثبات صفة المحبة لله تعالى
42	الرد على المخالفين في إثبات صفة المحبة لله
43	إثبات صفة الغضب لله تعالى
44	الرد على المخالفين في صفة الغضب
45	صفة السخط لله تعالى
45	صفة الكره لله تعالى
46	صفة النزول لله:
49	موقف أهل البدع من صفة النزول والرد عليهم
49	صفة العجب والضحك لله:

50		صفة الضحك لله تعالى
51		تأويل أهل البدع لصفة ضحك الله تعالى والرد عليهم
52		صفة الاستواء على العرش
53		تأويل أهل البدع لصفة استواء الله على العرش والرد عليهم
55		إثبات صفة العلو
57		ثمرات التعبد بصفة العلو:
57		تأويل أهل البدع لصفة العلو لله ' والرد عليه
58		الرد على هذه الشبهة:
59		صفة الكلام لله ,
61		الجواب عليهم:
62		القرآن كلام الله غير مخلوق
62		ومن الأدلة على أن القرآن كلام الله:
63		الرد عليهم:
65		رؤية الله عز وجل
68		الرد عليهم:
69		القضاء والقدر
72		مراتب القدر
77		وجه الشبه بين قدرية هذه الأمة والمجوس:
78		مشروعية الاحتجاج بالقدر على المصائب
80		الإيمان
82		مسألة الإيمان يزيد وينقص
83		مسألة الاستثناء في الإيمان وقول العلماء في ذلك:
84		لوازم إقرار الإيمان في القلب:
85		فصل
86		أولاً: وجوب الإيمان بحادثة الإسراء والمعراج:
87		الفوائد المستنبطة من حادثة الإسراء والمعراج:
87		الإسراء والمعراج بالجسد والروح معاً
88		تحديد زمن حادثة الإسراء والمعراج وحكم الاحتفال فيها
89		ثانياً: وجوب الإيمان بمجيء ملك الموت على صورة بشر لقبض الأرواح
90		بدعة تقديم العقل على النقل وواجب العلماء والدعاة تجاهها
91		نماذج من فتاوى المخالفين للنصوص الشرعية:
92		ما واجبنا نحو من يرد الأحاديث الصحيحة بعقله الخرب؟!
93		ثالثاً: وجوب الإيمان بأشراط الساعة:
94		علامات الساعة الكبرى

98	خروج يأجوج ومأجوج.....
99	٣-خروج الدابة، وطلوع الشمس من مغربها.....
99	القبر أول منازل الآخرة.....
100	الناجون من فتنة القبر.....
103	إنكار بعض أهل البدع لعذاب القبر ونعيمه.....
104	النفخ في الصور وأقسامه:.....
105	البعث والنشور.....
106	الحساب.....
109	وزن الأعمال.....
110	تطابير الصحف.....
111	حوض النبي §.....
112	الشفاعة.....
114	أنواع الشفاعة.....
117	الجنة والنار مخلوقتان ولا تفنيان:.....
120	فصل.....
123	فضل صحابة رسول الله §:.....
127	فصل.....
129	حكم تكفير أهل المعاصي:.....
135	فصل.....
137	أسماء زوجات النبي وتاريخ وفياتهن:.....
139	ولاة الأمور.....
141	هجران أهل البدع.....
143	من طوائف المبتدعة:.....
145	الاختلاف في الفروع.....
147	الإجماع: ضابطه وإمكانية وقوعه.....
148	التقليد وأدابه.....
149	المذاهب الأربع المنتشرة:.....
151	فهرس الموضوعات:.....